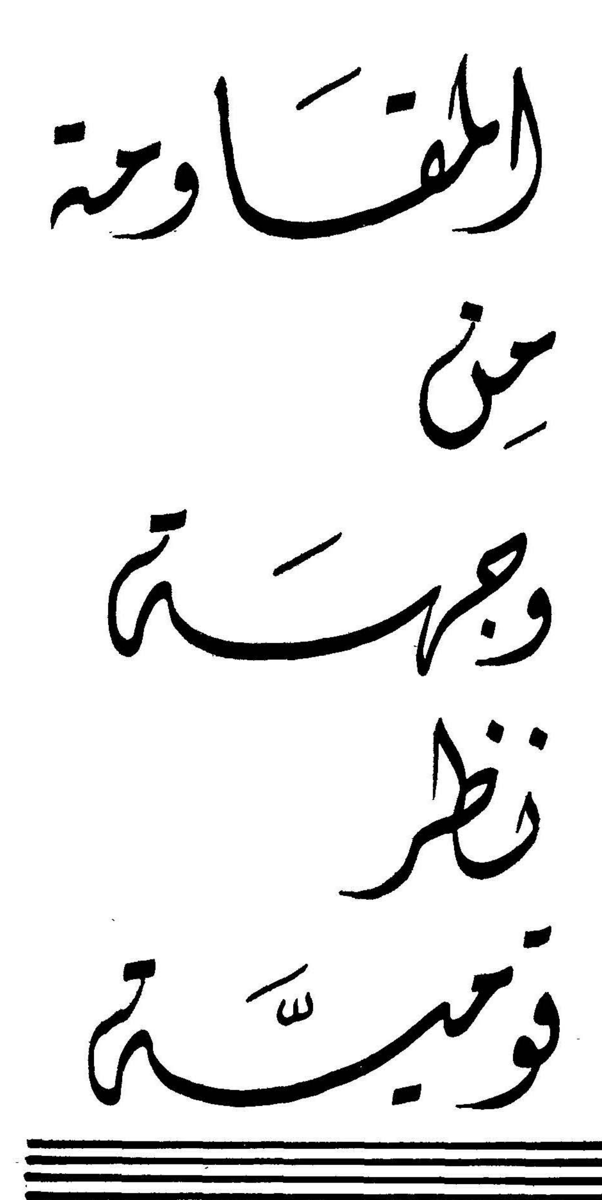


الدكتور عصمت سيف الدولة

كان الحديث عن « المقاومة من وجهة نظر قومية » موجها الى جمع من الشباب العربي التقوا على موعد محدود في نادي « الوافدين » بالقاهرة مساء يوم ٢ نوفمبر ١٩٦٩ . وبدأ الحوار بعد الحديث حتى انقضت حدود الموعد . تم لم تنقطع ساعات طويلة على مدى ايام عدة ، وشارك فيه شباب جاد في البحث عن اجابات لاسئلة محددة . وآخرون يثيرون الاسئلة لاختبار اجاباتهم المعدة . وغير هؤلاء وهؤلاء في مواقع عدة بصيغ متعددة . ولقد اثارت الاسئلة التي طرحت تساؤلات لم يطرحها احد . وثبت من كل هذا ان « المقاومة » اكبر اثرا ، واعمق محتوى ، من ان يكفي حديث قصير للاجابة عن كل ما تفجره من قضايا في اذهان الشباب العربي . فقد ذهبت الاسئلة والتساؤلات التي تثيرها « المقاومة » الى حد تناول كل القضايا الفكرية والحركية التي تتصل بالوجود القومي و مستقبل الحياة فيه ، او اغلبها ، ولما ينقطع الحوار بعد. عندئذ اصبح من حق المقاتلين في المقاومة ، وقياداتهم ، والشباب العربي في كل مكان ، ان يشاركوا في الحوار الذي بدأ حديثا . فهاكم الحديث كما كان ، وهاكم الحوار ، بعد انتقاء اسئلته واجاباته بمقياس الموضوعية ، والصلة بالحديث ، وعدم التشهير بأي من القوى او المنظمات التي تقف في مواجهة العدو المشترك . وصياغتها مرتبة على وجه يتفق مع تسلسل نقاط الحديث ذاته . دعوة الى مزيد من الحوار البناء حول اسلوب الوفاء بمسؤولياتنا القومية .

ع. س.

١ ـ الحديث

مدخل :

ان الحديث عن « المقاومة » حديث شائك لاسباب عدة . اولها اننا اذ نتحدث عن « المقاومة » لسنا على الحياد من معركتها البطولية ضد الغزو الصهيوني ، بل نحن مع « المقاومة » . ان هذا يعني أننا ملتزمون بحدود المعركة فلا نقول اذ نقول الا ما يدعم مقدرة « المقاومة » على النصر . والحديث عن المقاومة ، حتى فيما يدعم مقدرتها ، ليس سهلا في كل وقت . ذلك لان ثبات « المقاومة » في المعركة وتصاعد مقدرتها بعد هذا ، والبطولات الرائعة التي يقوم بها مقاتلو « المقاومة » قد أضفى على « المقاومة » هالة من القدسية لا تقبل من الحديث الا ما يشبه الصلاة والتمجيد . ومع هذا فقد تعلمنا من تاريخنا القريب ،

ومن هزيمة يونيو ١٩٦٧ ذاتها ان الصمت ، حتى لا نمس مشاعر بعض الجماهير فيما تأمل فيه وتقدسه ، قد أسهم في الهزيمة . فتراكمت السلبيات خفية حتى انهارت القوى التي ما كان يظن احد انها قابلة للانهيار . لهذا فقد اخترنا الحديث الشائك عن « المقاومة » . السبب الثاني ، اننا اذ نتحدث عن « المقاومة » نتحدث عن ابطال يواجهون الموت كل يوم ، او يموتون . ونحن نتحدث عنهم من مقاعدنا المريحة في القاهرة على وجه يبدو كما لو كنا ننتمي الى عالمين مختلفين منعزلين . هناك من يرون - ويرددون - ان وراء هذه العزلة تاريخا من صنع المثقفين العرب انفسهم ، اذ انهم أهدروا سنين طويلة في احاديث لم تنقطع الا عندما اكتشفوا انهم بينما كانوا مشغولين بتنميق الكلمات ورصها جملا وسطورا والقائها جدلا صاخبا ، كان العدو يعد في صمت قوته المقاتلة التي اوقعت بدولهم الهزيمة فكشفت عن عقم الحوار الذي اضاعوا فيه اعمارهم وان فلسفة « السلاح » هي الصحيحة ، اما سلاح « الفلسفة » فهو عبث لا يطاق . ولا شك ان وراء هذا الاتهام قدرا محدوداً من الحقيقة وان كان غير كاف لتغطية نوايا المغامرين . ومع هذا فقد تعلمنا من تاريخنا القريب ، ومن تاريخ الثورات في العالم ، انه اذا كان الفكر المجرد من السلاح عبثا فارغا ، فان السلاح المجرد من الفكر مغامرة جاهلة . وتعلمنا من قائد ثورة اكتوبر ، لينين العظيم ، انه « لا ثورة بدون نظرية » . من أجل هذا اخترنا الحديث الشائك عن « المقاومة » من وجهة نظر « قومية » يقينا منا بأنا ما نزال نفتقد من الفكر المحرك اكثر مما نفتقد من السلاح الفعال .

وحديثنا ، بعد ، ليس استعراضا فكريا بدون غاية . ان غايته ان يسهم في تحقيق قدر من الوحدة الفكرية بين الشباب العربي كمقدمة لازمة لوحدة ثورية يحقق بها هؤلاء الشباب النصر على اعداء المصير التقدمي الذي يتطلعون اليه . وليس اكثر تعويقا للوحدة الفكرية ، وبالتالي تكريسا للفرقة الثورية ، من عدم تحديد مضامين الالفاظ التي نستعملها في الحديث او الحوار . عندما نتكلم لغة واحدة ، بينما يعني بها كل واحد منا معنى مختلفا ، فنختلف . لهذا ستكون بداية حديثنا تحديدا لما نعنيه « بالمقاومة » ثم ما نعنيه بالنظرة «القومية» لعل هذا التحديد ان يساعد على ألا يفهم احد ما يقال على اساس من افكاره الخاصة . فاذا انتهينا من هذا التحديد الذي سيستغرق اكثر حديثنا سيكون سهلا علينا ان ندرك بدون حاجة الى حديث طويل - النظرة القومية « للمقاومة » .

مع التسليم مقدما بان كل هذا اجتهاد قد تختلف فيه الآراء .

ماذا تعني « المقاومة » ؟

عندما نتحدث عن « المقاومة » نعني اسلوب القتال المسلح الجماهيري لتحرير الارض العربية من الغزو الصهيوني . فالمقاومة تعنينا - في نطاق هذا الحديث - من حيث هي « اسلوب » للنضال ، اسلوب قتال « مسلح » متميز عن النضال الدبلوماسي او الدعائي او الفكري . وهي « اسلوب » قتال مسلح « جماهيري » متميز عن الاسلوب الدولي واسلوب الحرب النظامية . ان هذا لا يعني ان المقاومة مجرد عصابات مسلحة مقطوعة الصلة بالصراع الدبلوماسي ، او الدعائي ، او الفكري ، وبالدول وسياساتها وجيوشها . ابدا . انما يعني ان المقاومة اذ تلجأ الى واحد او اكثر من تلك الاساليب ، انما تفعل هذا كدعم ومساندة لاسلوبها المتميز : القتال الجماهيري المسلح .

ونحن نعلم ان « المقاومة » ضد الغزو الصهيوني ليست مجرد « مقاومة » دفاعية بل تتضمن نوايا هجومية تذهب الى حد تحرير فلسطين ، ومع ذلك نسميها « مقاومة » . ونعلم ان « المقاومة » مجسدة في عديد من المنظمات المتميزة من حيث منطلقاتها الفكرية ، او تركيبها البشري ، او غاياتها الاستراتيجية ، او مقدرتها القتالية ، او حتى بقادتها دون مميز موضوعي آخر . وكلها عندنا - في نطاق هذا الحديث - مقاومة . كما نعلم ان تلك المنظمات « الجماهيرية » المتعددة ليست على قدر موحد من الاستقلال او التبعية بالنسبة الى بعض الدول العربية . ومع ذلك نعنيها جميعاً عندما نتحدث عن المقاومة . ذلك لان ما يهمنا من « المقاومة » في هذا الحديث هو تلك السمة المشتركة بين كل المنظمات وهي : اسلوب القتال الجماهيري المسلح .

ماذا تعني « القومية » :

ان كان هذا واضحا وبسيطا فلعله مما يثير الدهشة ان يكون مفهوم « القومية » اقل وضوحا واكثر تعقيداً . يرجع هذا فيما نعتقد الى عوامل متعددة ومتفاعلة اهمها :

اولا - ان موجة المد القومي التي بدأت في سنة ١٩٥٥ قد جذبت اليها بعضا من المثقفين الذين فهموا القومية على انها انتماء سلبي يحقق لهم نصيبا في عائد انتصاراتها بدون ان ينتبهوا الى حدها الايجابي من حيث هي التزام بالنضال من اجل تحقيق مضامين حية . لهذا كثر الحديث عن القومية حديثا فارغا كتفاخر فقراء الريف بانحدارهم من عائلات عريقة ، منقرضة . وتلقف اعداء القومية تلك الاحاديث فاضافوها - بسوء نية - الى حساب الفكر القومي .

ثانيا - ان الحركات القومية المعاصرة للصعود الرأسمالي في اوروبا قد اسقطت على القومية كل مثالب الرأسمالية ، وادينت القومية بما جنت أيدي الرأسماليين ادانة تحتاج مراجعتها الى جهد علمي لا يقدر عليه الكثيرون او لا يرغبون فيه . فاصبح رفض القومية ملجأ مريحا للعاجزين عن فهم حركة التاريخ وما يجري تحت انوفهم في القرن العشرين .

ومنها واخطرها - ثالثا - ان الحركة القومية العربية قد صاحبت محاولات التحرر من الاستعمار التركي والاوروبي ، وبهذا سبقت التحول الاشتراكي الذي بدا بعد التحرر . فلما طرحت قضايا التحول الاشتراكي حاولت الرجعية العربية ان تغلف موقفها الرجعي بما تبقى لديها من تراث النضال القومي ، فافرغت القومية من مضمونها التقدمي وانقلبت القومية على ايديها الى مجرد رابطة عرقية متعصبة ورجعية .

وغير هذا اسباب كثيرة .

وهكذا اصبح الحديث عن القومية مباحا لعديد من التيارات المتناقضة ، كل منها يدعيها ، وكل منها له في الاحداث « وجهة نظر قومية » .

من اجل هذا ، لا بد لنا من أن نصبر على طول الحديث عن « القومية » ليكون مفهومها الذي نعنيه ، ونلتزمه ، ونرى « المقاومة » على ضوئه ، محددا الى اقصى درجة من التحديد ممكنة .

الوجود القومي :

الذي لا شك فيه ان الوجود القومي (الامة) ، كاي معطى موضوعي ، قابل للمعرفة وان كان غير متوقف وجودا وعدما على تلك المعرفة . بمعنى اننا اذا عرفناه فذلك اكتشاف لحقيقة موضوعية . واذا لم نعرفه فالحقيقة قائمة وان كنا لا نعرفها . وقد وصل الكثيرون الى اكتشاف الحقيقة القومية عن طريق البحث العلمي باستعمال مناهج مختلفة . واصبح مسلما بان ثمة وجودا اجتماعيا ذا خصائص متميزة يسمى « الامة » . ولكنا اليوم نريد ان نحاول اكتشاف تلك الحقيقة من منطلق جديد : المنطلق الاشتراكي . نريد ان نبدأ كاشتراكيين لنرى معا ما اذا كان ذلك سيصل بنا الى ان نكون قوميين .

لماذا ؟

ان ازمة المستقبل العربي كما نراها من الآن هي ان القوى الاشتراكية منقسمة الى قوميين ولا قوميين . لان وحدة القوى الاشتراكية في الوطن العربي كما نطلبها ضرورة قومية . لان المقاومة كما نعرفها لن تنتصر نهائيا الا ان اصبحت مقاومة قومية اشتراكية . ولن يغنيها عن هذا مليون فوهة بندقية .

فلنبدأ من البداية .

والبداية هي البحث عن اجابة عن ذلك السؤال الحيوي الذي لا بد ان قد طرحه كل منا على نفسه وهو : كيف احقق لنفسي حياة

افضل ماديا ومعنويا ؟... منفردا ؟... هذا غير ممكن فلكل منا اسرة ينتمي اليها ولا يستطيع ان يحقق لنفسه حياة افضل بمعزل عنها . فلتكن غايته اذن ، ان يحقق الحياة الافضل لنفسه واسرته معا ؟... منفردين ؟... هذا غير ممكن ، فأسرة كل منا جزء لا يتجزأ من المجتمع الذي ينتمي اليه تؤثر فيه وتتأثر به سواء ارادت هذا أم لم ترده . اذن فالحياة الافضل ، بدون اختلاس ، لا يمكن ان تتحقق لاي منا واسرته الا في داخل مجتمع نسمح امكانياته وعلاقاته بالحياة الافضل التي نريدها لانفسنا .

من هنا يصبح دور كل منا ، وهو يسعى الى حياة افضل له ولاسرته ، ان يعمل ايجابيا لتطوير « المجتمع الذي ينتمي اليه » الى حيث تتحقق امكانيات وعلاقات الحياة الافضل . هذا الدور الايجابي يتضمن امرين اساسيين . الاول : ان لكل عامل ايجابيا الحق في ان يتطور المجتمع الذي ينتمي اليه ما دام هذا شرطا لازما موضوعيا لتطوير حياته الخاصة . أن هذا الحق ينصب على كل من الامكانيات والعلاقات: حق استرداد الامكانيات من مغتصبيها والمستأثرين بها ، وحق تنظيم العلاقات الاجتماعية بحيث يحصل كل واحد من عائد التقدم الاجتماعي على نصيب خاص متكافىء مع ما قدمه من عمل ايجابي ، مساهمة في ذلك التقدم . الامر الثاني : التزام كل عامل ايجابيا في مواجهة المجتمع الذي ينتمي اليه بان يسهم في تطوير المجتمع الى حيث يتحقق له ، ولغيره ، الامكانيات والعلاقات التي تسمح بحياة افضل . هذا الالتزام ليس التزاما منفردا ، بل التزام في مواجهة المجتمع . والمجتمع جماهير حية مريدة وقادرة على استيفاء حقوقها . وهذا يعني الا يقوم الالتزام بالنضال من اجل التقدم الا خلال علاقة جماعية منظمة تضع كل مناضل في مواجهة ، وتحت رقابة ، جماهير محددة هي جماهير « المجتمع الذي ينتمي اليه » .

الى هنا لا يثور خلاف بين الاشتراكيين .

فحق كل عامل في امكانيات المجتمع الذي ينتمي اليه ، او رفض الاغتصاب والاستئثار ، هو ترجمة للملكية الاجتماعية لمصادر الانتاج وادواته . وحق كل عامل في ان يحصل من عائد التقدم الاجتماعي على نصيب متكافىء مع ما قدمه من عمل ، هو ترجمة لشعار « لكل حسب عمله » . والتزام كل عامل ايجابيا في مواجهة المجتمع الذي ينتمي اليه هو ترجمة « للديموقراطية الشعبية » . والعمل الجماعي المنظم هو الصيغة التي تجسد تلك الديموقراطية .

عند هذا الحد كلنا اشتراكيون ، مناضلون في سبيل تقدم « المجتمع الذي ننتمي اليه » .

ثم يرد السؤال المهم :

ما هو ذلك « المجتمع الذي ننتمي اليه » ، ويرتبط مصيرنا بمصيره، والذي لنا حق في كل امكانياته ، وحق في صياغة علاقاته وعلينا التزام امام جماهيره بان نطوره ونحقق فيه الحياة الاشتراكية الافضل ؟.

ان طرح هذا السؤال ليس تفلسفا ولا تعسفا . بل ان الاجابة عليه شرط جوهري لنجاح اي نضال اشتراكي . اذ على ضوئه نعرف نقطة انطلاقنا ، وامكانياتنا المادية والبشرية ، وقوانا ، والقوى الحليفة لنا ، والقوى المضادة لغاياتنا ، وحلفاءها وساحة معاركنا المقبلة . وعلى اساسه نضع استراتيجيتنا ، وفي واقعه ندير معاركنا التكتيكية. ثم نقدم الحساب لجماهيره المحددة التي التزمنا امامها بان نحقق لها المستقبل الاشتراكي .

هذا اذا كنا جادين فيما ندعيه من تقدمية ، وما نعلنه من استعداد للنضال من اجل حياة افضل .

ونحن جادون .

فما هو المجتمع الذي ننتمي اليه ؟

اسهل الاجابات واقربها الى الذهن هي ان المجتمع الذي ننتمي اليه يتحدد « بالدولة » التي نحن رعاياها . فلكل « دولة » وطن وشعب، وفيها حكومة ، ولها امكانيات ، وعلاقات ، ومقدرة على التقدم . ذلك هو الامر الواقع .وليس من المنكر ان الامر الواقع هو بداية الطريق النضالي ايا كانت غاية هذا الطريق . وان تجاهل الامر الواقع او القفز من فوقه الى غيره مثالية تبدد الطاقات ولا تغير من الامر الواقع شيئا . ولكن اذا كانت الدولة امرا واقعا فان التخلف امر واقع، والاستغلال امر واقع ، والاحتلال امر واقع، واسرائيل امر واقع، والهزيمة امر واقع ، فلماذا لا نقبل كل هذه الامور الواقعة ؟ لان الاشتراكيين تقدميون فهم يعرفون ان كل ما يبدو امرا واقعا هو في حركة وتغير دائمين . وان ثمة في كل يوم جديدا تحت الشمس . وان مهمتهم على وجه التحديد هي تغيير الامر الواقع الى الامر الافضل. اذن ، فكون الدولة امرا واقعا يحدد لنا مجتمعا معينا ليس بالضرورة انها افضل تحديد للمجتمع الذي ننتمي اليه . ويكون علينا أن نبحث عن الحقيقة الموضوعية لهذا المجتمع لنرى بعد هذا ما ، اذا كانت الدولة تتفق مع تلك الحقيقة او لا تتفق . وعندما لا تكون الدولة متفقة مع تلك الحقيقة الموضوعية يجب ان تزول الدولة المصطنعة لتقوم بدلا منها الدولة التي تتفق مع حقيقة المجتمع الذي ننتمي اليه .

فكيف يمكن ان نكتشف تلك الحقيقة اللازمة لتحديد مدى التزامنا النضالي من اجل الاشتراكية ؟

يقول القوميون ان الوجود القومي (الامة) مسلمة علمية وذات خصائص يسهل معها تحديد نطاق الانتماء، ويقدمون في التدليل على هذا عديدا من النظريات ، التي اسهم بعض الاشتراكيين في وضعها عن خصائص الامة : وحدة اللغة وحدة الارض ، وحدة المصالح وحدة الشعور النفسي ، وحدة الارادة.. الى اخر النظريات التي قيلت في خصائص الامة . وينتهي القوميون من هذا الحوار الى ان الامم هي « المجتمعات » التي ينتمي اليها الناس ، وان لكل انسان امة متكونة ، او في طور التكوين ينتمي اليها . وان التزامه النضالي يمتد الى ان يشمل كل امته وطنا وبشرا ، وان حقه في حياة افضل يمتد ليشمل كل امكانيات امته وعلاقاتها . ثم يضيف العرب القوميون : ونحن ابناء امة عربية واحدة ، فهي مجتمعنا الذي ننتمي اليه ، وامكانياتها حقنا ، والتزامنا قائم امام جماهيرها كافة برغم التجزئة الطارئة عليها .

والى عهد قريب جدا كانت كل الدراسات القومية في الوطن العربي تدور حول هذه الفكرة وتقف عندها .

ولم يكن هذا كافيا .

لم يكن كافيا لاذابة الجمود الفكري لدى بعض الاشتراكيين . ولم يكن كافيا لاقناع بعض آخر من الاشتراكيين بمضاعفة التزاماتهم النضالية والتصدي لسحق الدول الاقليمية وتغيير الحياة في الوطن العربي كله بدلا من المهمة السهلة نسبيا وهي تغيير الحياة في جزء منه . وقد استفز هذا الرفض كثيرا من الاشتراكيين العرب فاحتدمت المعركة بين صفوف الاشتراكيين . وطبيعي ان الرجعية كانت المستفيدة الاولى من هذا الخلاف . والواقع ان ما وصل اليه الفكر القومي من بيان لخصائص الامة لم يكن كافيا ، ولا يمكن ان يكون كافيا لاقناع اي مناضل من اجل الاشتراكية بان يمد التزامه النضالي الى خارج حدود دولته ، بما يتضمنه هذا من اعباء ثورية مضاعفة ، لمجرد ان يقال له ان اولئك المقهورين خارج الحدود اخوتك ابناء امتك لانك تتكلم لغتهم ، وتعيش معهم على رقعة جغرافية واحدة ، ولك معهم مصالح مشتركة .. الخ. ومن باب اولى لم يكن كافيا ، ولا يمكن ان يكون كافيا ، لاي اشتراكي ان يستجيب لدعوة عصبية قومية غير ذات مضمون تقدمي فيهدر جهده من اجل معان مجردة غير قابلة لان تتحول الى حياة افضل خاصة اذا جاءت الدعوة من صفوف القوى الرجعية . ذلك لان الغاية النهائية للنضال الاشتراكي هو ان يحقق حياة افضل .

ولم يكن ثمة امل في وحدة القوى العربية التقدمية الاباكتشاف العلاقة بين القومية والتقدمية . ومع ان الثبات النسبي للرابطة القومية ، وانعكاساتها على البناء الاشتراكي في المجتمعات التي سبقت الى بناء الاشتراكية ، وصمودها كاطار للتقدم في تلك المجتمعات بالرغم من ادانتها كان يشير الى ان هناك علاقة موضوعية بين القومية والاشتراكية فان القومية كانت قابلة للاضعاف كرابطة والذبول كفكرة والفشل كحركة، في عصر الصعود الاشتراكي ، ما لم يثبت انها بذاتها رابطة تقدمية او على الاقل انها ليست عائقا في سبيل الاشتراكية .

وقد قدم الاشتراكيون العرب ، تحت الحاح رغبتهم في وحدة القوى العربية التقدمية ، ووفاء منهم بمسئولياتهم القومية امام الجماهير العربية ، عديدا من الدراسات التي استهدفت الكشف عن علاقة القومية والاشتراكية ، من جميع الزوايا الفكرية او التطبيقية التي تهم الاشتراكيين في حوار مفتوح مع القوى التقدمية . وكان ذلك هو الجانب الجاد من الحوار الذي استنفد سنين غالية من حياتنا على امل لقاء كل التقدميين في وحدة ثورية . حتى فوجئنا بالعدو الصهيوني الامبريالي المشترك يعصف باحلام الطامعين في بناء الحياة الاشتراكية الافضل في جزء منفرد من الوطن العربي وتبينوا في اسوأ الظروف تلك الوحدة الموضوعية والتفاعل المتبادل بين كل المشكلات التي يطرحها واقع الامة العربية ، وتذكروا تلك الكلمة التي قيلت لهم فصفقوا لها ثم نسوها او تناسوها او اخفوها « ان التقدم العربي لا يمكن ان يقوم على اساس التجزئة » .

ونحن نفترض ان الدرس القاسي قد اثمر فنعيد الحوار بدون استغلال لمرارة الهزيمة ونعود بهم الى حيث توقفنا : العلاقة بين القومية والتقدمية . هل القومية رابطة تقدمية ؟ هل تقف عقبة في سبيل الاشتراكية ؟

ان الاجابة على هذه الاسئلة ستكون اخر الحوار . والرفض المتعنت لها يضع ادعياء الاشتراكية في الوطن العربي موضع اتهام جاد وصريح يتناول ولاءهم للجماهير واشتراكيتهم ذاتها ، فان الوقت العصيب الذي تمر به امتنا لم يعد يسمح بمزيد من تدليل المتمردين على امتهم ولو رفعوا شعارات الاشتراكية .

لماذا تكونت الامم :

قلنا من قبل ، ونقول الان ، لكل الاشتراكيين الذين يتنكرون لالتزاماتهم القومية ، ويقصرون ولاءهم على جماهير اقاليمهم بحجة ان القومية غير ذات علاقة بالتقدمية ، او بان الحركة القومية رجعية :

ايها الاخوة ،

ان مسالة الامة كظاهرة اجتماعية غير منكورة فالامم تملأ الارض وهي تطرح اسئلة ثلاثة :

الاول : ما هي الامة ؟ وفي الاجابة على هذا نظريات عديدة تعرفونها ولا تعنينا في هذا الحديث .

الثاني : كيف تتكون الامة ؟ والمتفق عليه انها تكوين تاريخي يتم على مدى حقبة طويلة من الزمان خلال المشاركة في احداث تاريخية نعرفها من تاريخ كل امة على حدة .

الثالث : الذي يعنينا الان هو :

لماذا تكونت الامم : لماذا لم تظل الاسر اسرا ، والعشائر عشائر، والقبائل قبائل ؟ لماذا تجاوزت المجتمعات تلك الاطوار البدائية حتى وصلت الى طور التكوين القومي ؟ لا يمكن ان يكون قد تم هذا كله اعتباطا . فالاشتراكيون خاصة يعرفون من منهجهم العلمي الا شيء يتم اعتباطا او مصادفة ، وان كل شيء حتى حركة المجتمعات من الماضي الى المستقبل محكومة بقوانين تضبط حركتها واتجاهها . كما يعرفون من منهجهم الجدلي ان التطور تقدم صاعد ابدا ، وانه لا يكرر نفسه ،بل ينمو من خلال الاضافة نموا جدليا .

اذان لماذا تكونت الامم ؟

يقول الاشتراكيون العرب ان المجتمعات البشرية قد تطورت من حيث النمو من الاسرة الى العشيرة الى القبيلة الى الشعب المستقر على الارض الى الامة خلال البحث عن حياة افضل • تلك الغاية التي لا تزال تحرك الانسان في اي مكان مهما اختلف مضمون الحياة الافضل • فالطور العشائري كان تحقيقا لحياة افضل عجزت الاسر منفردة عن تحقيقها . والطور القبلي كان تحقيقا لحياة افضل عجزت العشائر منفردة عن تحقيقها . والطور القومي كان تحقيقا لحياة افضل عجزت المجتمعات القبلية والشعوبية منفردة عن تحقيقها . وقد تم كل هذا خلال احداث ومراحل تاريخية مليئة بالصراع والهجرات والحروب بين القوى داخل المجتمعات ومع المجتمعات الاخرى المتماثلة بحثا عن الحياة الافضل ، استنفد فيها كل طور متخلف اقصى طاقته ، على التقدم ، فلما ان عجز عن مزيد من التقدم ، وكان لا بد له بحكم قوانين التاريخ ان يتقدم انتقل الى طور اكثر تقدما . اكثر تقدما من حيث انه يقدم له امكانيات التقدم لم تكن متاحة له في طوره السابق .

وهكذا ، اذا كنا نحن الان في الطور القومي ، واذا كنا ننتمي الى امة عربية تكونت تاريخيا ، فان هذا يعني ان تاريخنا قد استنفد كل مقدرة العشائر والقبائل والاقاليم العربية على التقدم قبل ان تتكون امتنا ، وانها عندما تكونت كانت دليلا تاريخيا لا ينقض على عجز المجتمعات الاولى التي تكونت منها على التقدم الاجتماعي منفردة . وانها هي الرابطة التقدمية التي تتيح لكل جماهير المجتمعات الاولى امكانيات التقدم الذي لم تكن متوافرة لها .

هل هي هي اخر طور ؟

هكذا يتساءل « الاميون » فنقول لا . فقياسا على حركة التاريخ الجدلية الصاعدة لا يمكن ان يكون الطور القومي اخر مراحل النمو الاجتماعي . بل نعتقد انه عندما يتم التكوين القومي لكل الامم التي لا تزال في طور التكوين، ثم تستنفد كل الامم اقصى طاقاتها على التقدم سيتم تكوين او تكوينات اجتماعية جديدة اكثر مقدرة على التقدم. كل ما في الامر اننا لا نعرف من الان كيف يكون التكوين الجديد كما لم تكن تعرف القبائل ان مصيرها الى الوحدة القومية . فقد يكون التكوين الجديد جغرافيا ،وقد يكون قاريا ، وقد يكون انسانيا عالميا . ثم اننا لا نعرف متى سيتم هذا على اي من تلك المستويات. ولكنا نستطيع ان نقول انه قياسا على ما استنفدته المجتمعات القبلية لتصبح امما ومع ادراك لزيادة معدل سرعة التطورالحضاري فان بين البشرية وبين تجاوز الطور القومي بضعة الاف من السنين تخرج ذلك الطور الاجتماعي المقبل عن الموضوع الذي يشغلنا وهو - حتى نتذكر - تحديد المجتمع الذي نلتزم في مواجهة جماهيره بالنضال الاشتراكي ونتحمل امامها مسئولية تطويره وتحقيق الحياة الاشتراكية الافضل فيه .

الامة العربية هي اذن مجتمعنا الذي ننتمي اليه ، والقومية هي الرابطة التقدمية التي تجمعنا لا مبرر للجمود ولا للخوف ، فان النصر معقود لاية حركة تتناسب مع المعطيات الموضوعية لساحة نضالها . والقومية هي الضمان للنصر الاشتراكي . وان كان ثمة من يرضيهم ان يضيفوا الى التزامهم القومي التزاما امميا نحو الوحدة المامولة للمجتمع الانساني، فلا تثريب عليهم، ولكن نقول لهم دعونا اولا نوف بمسئولياتنا القومية نحو الجماهير التي نعرفها ويرتبط مصيرنا بمصيرها الى الاف السنين ، وان عشتم بعد هذا فافعلوا ما تريدون . وحتى قبل ذاك الحين فان قبولكم حقيقة الوجود القومي هو قبول للوجود القومي لامم اخرى ، والتزام

بالتعايش السلمي معها ، والتحالف مع حركاتها التقدمية ، ضدالرجعية العالمية المتحالفة . ذلك لان مجرد القبول بحقيقة الوجود القومي للامم جميعا لا يعني ان امتنا ليست جزءا مؤثرا ومتاثرا بالتطور البشري كافة ، لاننا ايضا امة من البشر .

تلك هي القومية .

النظرة القومية :

عند هذا الحد ، حد اكتشاف المضمون التقدمي للقومية تصبح نظرية القومية ذات المضمون الاشتراكي عقيدة (ايدلوجية) كافية لتقييم الواقع العربي وتحديد استراتيجية تغييره ، وتعبئة قواه وقيادة المعارك فيه وتحقيق النصر لجماهيره . اي تكون كافية للتحول الى حركة قومية ثورية ذات منطلقات فكرية واستراتيجية حركية.

اما المنطلقات الفكرية فيمكن تلخيصها في جانبيها السلبي والايجابي في امرين .

١ ـ بما ان المجتمع العربي لا يتطور تطورا متكافئا معامكانياته الا بحشد كافة امكانياته لتطويره ككل فان الاقليمية التي تجسد التجزئة فكرا وتنظيما هي حركة رجعية فاشلة : رجعية لانها تعوق التطور الاجتماعي في الوطن العربي وفي اي جزء منه تطورا متكافئا مع الامكانيات العربية المتاحة ، وفاشلة لانها محاولة لاعادة الامة الى طور متخلف عن الطور القومي وهو مستحيل بحكم حتمية التقدم الصاعد في حركة المجتمعات .

٢ ـ انه بحكم الوحدة الموضوعية للمشكلات القومية فان اية مشكلة في اي مكان من الوطن العربي هي مشكلة قومية غير قابلة لان تحل حلا تقدميا متكافئا مع الامكانيات العربية الا من منطلق قومي باداة قومية في اطار التقدم الاجتماعي لجماهير الامةالعربيةككل. وبالتالي فان الحل التقدمي النهائي لكل مشكلات التقدم في الوطن العربي لا يتم الا في ظل دولة الوحدة العربية الاشتراكية والديموقراطية .

ان هذا لا يعني ان كل جزء من الامة العربية عاجز تماما عن تحقيق بعض التقدم لجماهيره ،ولكن يعني تماما ان ما يتحقق في كل دولة اقليمية اقل بكثير مما كان يمكن ان يتحقق للشعب فيها في ظل دولة الوحدة الاشتراكية والديموقراطية .

واما عن الاستراتيجية فهي قائمة على اساس تلك المنطلقات الفكرية . تبدأ بالواقع وتنتهي الى غايتها العظيمة « اقامة دولة الوحدة الاشتراكية والديموقراطية » .وبدءا بالواقع العربي يمكن تقسيم استراتيجية الحركة العربية التقدمية الى خمس مراحل :ـ

المرحلة الاولى : الاعداد الفكري والبشري لقيام اداة الثورة العربية

المرحلة الثانية : اقامة اداة الثورة العربية تنظيما قوميا اشتراكيا ثوريا

المرحلة الثالثة : اشعال الثورة العربية التحررية الوحدوية الاشتراكية

المرحلة الرابعة : اقامة دولة الوحدة النواة العربية الثورية .

المرحلة الخامسة : تصفية الاقليمية واقامة دولة الوحدة الشاملة الاشتراكية الديموقراطية .

وطبيعي ان كل مرحلة من هذه تنطوي على مراحل تكتيكية لا داعي لحصرها الان ولا يمكن التنبوء بها مستقبلا . المهم ان نعرف ان الحركة العربية التقدمية تعيش الان في مرحلتها الاستراتيجية الاولى : مرحلة الاعداد الفكري والبشري لقيام اداة الثورة العربية . وانها من موقفها في هذه المرحلة تنظر وتقيم وتتخذ موقفا من اي حدث دولي او عربي او اقليمي ، ومن كل القوى ، والصراعات والحروب . وعلى ضوء مقتضيات هذه المرحلة تنظر وتقيم وتتخذ موقفا من الغزو الصهيوني ومن المقاومة .

فلننظر من هذه الزاوية ولنقدر الموقف العربي من الغزو الصهيوني بما فيه « المقاومة » .

حقيقة الموقف :

ان حقيقة الموقف من وجهة نظر قومية تتلخص فيما يلي :

اولا : أن هناك غزوا صهيونيا لجزء من الوطن العربي يستهدف توطين اليهود عليه في دولة تمتد من الفرات الى النيل . بدأ الغزو الصهيوني تسللا قبل سنة ١٩٤٨ ثم مسلحا في ذلك العام ثم ما تلاه من توسع حتى سنة ١٩٦٧ ، وهو غزو في ظل دعم وتأييد الامبريالية العالمية وعلى رأسها الولايات المتحدة الاميركية .

ثانيا : ان هذا الغزو موجه ضد الامة العربية بقصد الاستيلاء على جزء من الوطن العربي وانه قد بدا واتسع ونجح حتى الان في غيبة اية قوة قومية . ذلك لان التجزئة التي اقامها ذاتالاستعمار المؤيد للصهيونية ، والتي تجسدها الدول العربية الاقليمية ، قد حالت ، وتحول بين القوى المعتدية وبين القوى القومية المعتدى عليها بان حرمت على الجماهير العربية ان تتصدى للدفاع عن وطنها باداة قومية سياسية (دولة الوحدة) او باداة قوميةجماهيرية (التنظيم القومي الثوري) وان الدول الاقليمية على هذا الوجه قد اسهمت وتسهم بقدر في تغطية الغزو الصهيوني للوطنالعربي .

ثالثا : انه في غيبة القوى القومية تصدت الدول الاقليمية لهذا الغزو في حروب دفاعية ثلاث على مدى عشرين عاما ، وانهزمت في كل مرة بالرغم من تفوق امكانياتها المتاحة وان المرجع الاساسي لفشلها هو انها دخلت معركة قومية ـ او ادخلت فيها ـ بذهنية اقليمية ، من منطلقات اقليمية ، بادوات اقليمية ، كانت غايتها ان تدرأ خطرا يهدد سلامتها الاقليمية ولم تكن لدى اية دولة عربية في اي يوم من الايام ارادة تحرير الارض العربية في فلسطين . .

رابعا : ان معركة ١٩٦٧ قد اسفرت عن غزو الصهيونية لاجزاء من اقاليم بعض الدول العربية . وبذلك تغيرت طبيعة المعركة بالنسبة الى هذه الدول فاصبحت طرفا اصيلا في المعركة ، فلم تقبل الهزيمة كما قبلتها في ارض فلسطين ، ولم تقبل المفاوضة كما فاوضت على ارض فلسطين ، وصمدت كما لم تصمد من قبل،وهي تعد العدة لحرب هجومية لاول مرة في تاريخها ، كل هذا وهي تعلن وتكرر اعلانها بان حدود معركتها هي ازالة اثار العدوان اي تحرير ارضها وليس تحرير الارض العربية في فلسطين .

خامسا : الحقيقة الخامسة من حقائق الموقف ان قد اسفرت جولة يونيه سنة ١٩٦٧ عن دخول الجماهير العربية طرفا فيالقتال المسلح ضد الصهيونية في شكل منظمات فدائية ، صمدت للقتال بينما القوى جميعا منهارة ، وتصاعدت مقدرتها حتى فرضت وجودها على الاطراف التقليديين للمعارك السابقة : الصهيونية من ناحيةوالدول العربية من ناحية اخرى . تلك هي المقاومة احدى حقائق الموقف الراهن في الصراع ضد الصهيونية .

المقاومة من وجهة نظر قومية

قلنا ان الحركة العربية التقدمية تمر الان بمرحلتها الاستراتيجية الاولى وهي الاعداد لبناء اداة الثورة العربية تنظيما قوميا تقدميا ثوريا ، وانها من هذا الموقع تقيم وتحدد موقفها من الاحداث والقوى جميعا . وعلى ضوء ما اوردناه في نقاط خمس منحقائق الموقف في الوطن العربي يمكن تلخيص النظرة القومية على الوجه الاتي :

اولا : بالنسبة للغزو الصهيوني والامبريالي فانه يتناقض تناقض

الحياة والموت مع الحركة القومية لانه يستهدف الاستيلاء على ذات الارض التي تستهدف اقامة دولة الوحدة العربية ، عليها والقضاء على اي امل في قيام حياة افضل على الارض العربية ،وبالتالي فان سحق اسرائيل وتصفية الصهيونية العالمية هي القضية الاولى والاساسية للنضال العربي .

ثانيا : انه اذا كان ذلك الغزو قد بدأ واتسع ونجح في غيبة القوى القومية ــ الطرف الاصيل في المعركة ــ فانه قابل للاتساع والنجاح طالما كانت القوى القومية بعيدة عن ساحة القتال وان التنظيم الثوري القومي الجماهيري والسياسي هو الاداة الوحيدة القادرة على سحق اسرائيل وتصفية الصهيونية .

ثالثا : ان الدول العربية ، كانت ، وما تزال ، وستظل ، منفردة او متحالفة غير قادرة على تحرير فلسطين لسبب بسيط هو ان تحرير فلسطين يقع خارج نطاق اهدافها كدول اقليمية وبالتالي فان اي مخطط لتحرير فلسطين يجب ان يقوم بعيدا عن اية تبعية لاية دولة عربية سواء كانت تبعية سياسية او تنظيمية او مالية او ادارية .

رابعا : غير ان الدول العربية التي فقدت اجزاء من اقاليمها في حرب يونيو ١٩٦٧ قد اصبحت طرفا اصيلا في المعركة الى ان تزول آثار العدوان ، ولهذا فان الموقف القومي يتطلب دعم مقدرتها على الصمود وتنمية مقدرتها على القتال ودفعها الى المعركة والحيلولة دون انسحابها منها او استسلامها ، مع التحوط ضد ما تعلنه من ان حدود معركتها تقف عند حدود ٤ يونيو ١٩٦٧ .

خامسا : اما عن المقاومة كاسلوب فذلك هو المدخل التاريخي لانجاز المرحلة الاستراتيجية الاولى من مراحل الثورة العربية . فقد كانت الحركة العربية التقدمية تواجه صعوبات جسيمة تحول دون بناء تنظيمها القومي . كانت في حاجة الى مكان في الوطن العربي لا تمتد اليه قوانين وشرطة ومحاكم وسجون الدول الاقليمية . وكانت في حاجة الى ساحة نضال تعبىء فيها قواها وتربي كوادرها وتخوض معاركها بعيدا عن رقابة او وصاية او تخريب الدول الاقليمية . وكانت في حاجة الى تكوين جماهيري ثوري يتم ويقوم ويكتسب شرعية من مقدرته الذاتية على الوجود بعيدا عن جهود الدول الاقليمية . وكانت في حاجة الى الوجود المنظم الذي يمثل الجماهير العربية ككل ، ويحقق وحدتها القومية في ذاته ، بدون اعتداد بالانتماء السياسي لاية دولة عربية .

كانت ــ باختصار ــ في حاجة الى ممارسة اسلوب القتال الجماهيري المسلح الذي يكون السمة المشتركة بين منظمات المقاومة القائمة في الساحة الآن . الساحة التي هي مكان من الوطن العربي بعيد ــ فعليا ــ او يمكن ان يكون بعيدا عن قوانين الدول الاقليمية وشرطتها ومحاكمها وسجونها .

فكأن المقاومة ــ من وجهة نظر قومية ــ تمثل افضل الامكانيات المتاحة مرحليا لبناء اداة الثورة العربية .

دعوة الى القوى العربية التقدمية :

هل ينطبق هذا على كل منظمات المقاومة ؟

لا يمكن الهروب من الاجابة عن هذا السؤال الدقيق . فلنحاول الاجابة عنه في اطار ثلاثة حدود لا نتخطاها . اولها : اننا ندعم المقاومة ككل ضد العدو الرئيسي لامتنا العربية . ثانيها : اننا لا نعرف كثيرا عن حقيقة المنظمات في الساحة . ثالثها : ان المقاومة بكل منظماتها لم تتبلور بعد ــ نهائيا ــ لا فكرا ولا تنظيما ، فهي قابلة للتطوير والتطور.

في هذه الحدود نرى ان ثمة ثلاثة اتجاهات في المقاومة .

١ ــ اتجاه اقليمي مرتبط ببعض الدول العربية تنظيميا او ماليا او سياسيا .

٢ ــ اتجاه اقليمي فلسطيني يشكل الجانب الاكبر من المقاومة يمثل شعب فلسطين ويقاتل من اجل تحرير فلسطين لاقامة دولة فلسطينية .

٣ ــ اتجاه قومي غير متبلور وغير مفرز تماما ومتناثر بين منظمات محدودة الحجم او في قواعد كل المنظمات تقريبا .

وكل الاتجاهات تقاتل اليوم معركتها المشتركة ضد الصهيونية ، فهي في وضع يفرض عليها التحالف والتنسيق بين قواها . ولكنا نستطيع بسهولة ان نرى ان الاتجاه الاول سيخرج من المعركة بمجرد انقضاء مرحلة ازالة آثار العدوان اي بخروج الدول العربية المرتبط بها من المعركة بعد استرداد ما ضاع من اقاليمها في يونيو ١٩٦٧ .

اما الاتجاه الثاني الذي يجسد الاقليمية الفلسطينية فانه سيقاتل الى ان تتحرر فلسطين لان غايته ان يحررها وان يقيم فيها دولته . وهنا قد يبدو ان الاقليمية لا تساوي الفشل . والواقع انه الى ان تزول آثار العدوان قد لا تكون الاقليمية الفلسطينية سببا في اضعاف مقدرة المنظمات التي تجسدها . ولكن لننظر ماذا بعد ازالة آثار العدوان ؟ عندما ينفض حلفاء المرحلة ويعود حرس الحدود الى الحدود، وتطرح قضايا الامن الداخلي والالتزامات الدولية ، عندئذ ستكون تلك المنظمات امام اختبار دقيق . اما ان تصفي قواعدها او تقبل تصفيتها ، واما ان تستولي على قواعد في الدول العربية بالقوة المسلحة اي تدخل معارك ضد الاقليمية العربية ذاتها . ولن تكون حجتها في هذا الا ان لها حقا في الارض العربية خارج فلسطين ، اي الا اذا لاذت بالمنطلق القومي ، عندئذ ستتبين كم اخطأت عندما اختارت الملاذ الاقليمي . ولن تكون لها فرصة كسب المعركة الا اذا قبلت ان تكون للجماهير العربية حقا فيها وفي فلسطين لان ذلك هو المبرر لالتزام تلك الجماهير بتمكينها من النصر في قلب الارض العربية خارج فلسطين وعندئذ ستتبين ان الاقليمية تساوي الفشل ولو بعد حين . فان قبلت فقد تحولت الى قوة قومية . ولا بد ان تقبل . نقول لا بد لان الحقيقة الموضوعية لمعركة تحرير فلسطين انها معركة قومية ، لا تنتصر فيها الا القوى القومية . وبرغم كل قصر النظر ، وكل حسن النية ايضا ، فان المنظمات الاقليمية الفلسطينية ستجد نفسها في وقت ليس ببعيد انها اما ان تصبح قومية واما ان تهزم . لن يهزمها الاسرائيليون بل ستهزمها الاقليمية ، الاقليمية فيها والاقليمية خارجها . ان ما تواجهه في لبنان نموذج وانذار لما ستواجهه فيما بعد في دول عربية تقف معها الآن ضد الاقليمية اللبنانية .

انه مما يحير الفهم الا يرى الشباب الذين بلغت ثوريتهم حد الفداء المأزق القريب الذي هم مساقون اليه . ان كل ما سمعناه تأييدا لشعار « مسؤولية شعب فلسطين عن تحرير فلسطين » هو ان عزل الشعب الفلسطيني عن قضيته طوال عشرين عاما وتصدي الدول العربية للغزو الصهيوني هو الذي اضاع فلسطين . ولا شك في ان عزل الشعب العربي من فلسطين عن معركة تحرير فلسطين وحبسه في مخيمات اللاجئين احد الاسباب التي مكنت للغزو الصهيوني من ان يستقر فترات طويلة بدون مقاومة . ولا شك في ان تصدي الدول العربية للغزو الصهيوني هو الذي اضاع فلسطين . ولكن الا نتبين بوضوح انه اذا كانت الدول العربية قد عزلت الشعب العربي من فلسطين في مخيمات اللاجئين وحالت بينه وبين القتال لتحرير الارض المحتلة فانها في ذات الوقت كانت قد حبست الجماهير العربية في حدودها الاقليمية وحالت بينها وبين القتال لتحرير الارض المحتلة . وقالوا : لقد انقضى عشرون عاما ونحن مشردون ضائعون بلا وطن وبلا هوية ، فنحن نقاتل من اجل تحرير فلسطين ليكون لنا فيها ما نفتقده من وطن وهوية . وهذا صحيح ، ولكن الا نتبين بوضوح ان الاقليمية العربية هي التي حالت دون ان يكون لكم وطن وتكون لكم هوية يوم ان إعتبرتكم، انتم الذين تلقيتم عنها الضربة الموجهة الى الامة العربية كلها ، اجانب غرباء في بلادها ؟ الا نتبين بوضوح ان الاقليمية هي التي حاولت

وتحول دون ان يكون لكم في دولة الوحدة وطن وهوية ؟ فلماذا لا تقاتلون من اجل ما هو اسمى واشمل ، وتحاكمون القومية بما جنت أيدي الاقليمية ؟ لماذا نصاغ المقاومة صيغة اقليمية فتصطنع بينها وبين الجماهير العربية حدودا بدون ارض وهوية بدون دولة وتمييزا بدون موضوع • لكسب الرأي العام العالمي من خلال فكرة « الدولة الفلسطينية الديموقراطية » ؟..

هذا حوار افضل . ولكن هل جربتم كسبه من خلال فكرة « دولة الوحدة الديموقراطية » ؟ الحق انكم لا تكسبونه الا بمقدرتكم على النصر . ومع هذا فانما نسعى الى كسب الحلفاء والمؤيدين « للقضية » التي نكافح من اجلها والتي نعتقد انها حق وعادلة . ولكننا لا نغير قضايانا من اجل كسب الحلفاء والمؤيدين . افلا تعتقدون ان قضية « دولة الوحدة الاشتراكية الديموقراطية » اكثر حقا وعدلا من قضية « دولة فلسطين الديموقراطية » ؟

ان الجماهير العربية تعتقد انها اكثر حقا وعدلا واولى بان تكسب تأييد كل القوى التحررية التقدمية في العالم ولو بعد حين .

اننا نستطيع ان نستطرد الى ما لا نهاية ، ولكن الالتزام القومي يفرض علينا ان نؤيد وندعم المقاومة ككل ، ونؤيد وندعم المقاومة الفلسطينية بوجه خاص . لاننا نتحدث ونحن مشتبكون في المعركة فلا يمكن ان نخذل المقاومة عموما . ولاننا نعرف انه عندما تنسحب القوى الاقليمية العربية من ساحة القتال على اثر ازالة آثار العدوان ، لن تبقى في الساحة الا المقاومة الفلسطينية التي ستقاتل الى ان تحرر فلسطين ، فهي حليف طويل الامد نسبيا ، للقوى القومية تلك التي يمثلها الاتجاه الثالث .

هذا الاتجاه الثالث لم يتبلور بعد ، وتتوقف بلورته على التعجيل باقامة التنظيم القومي الثوري الذي تكون منظمته المقاتلة في ساحة المقاومة هي قوته الضاربة ، وتتحرك تحت قيادته طبقا لاستراتيجيته وفي حماية قواعده المنظمة على المستوى العربي .

كيف يتم هذا ؟

اننا نعرف ان شبابا عربيا في صفوف المقاومة يحلم احلاما غير واقعية وان شبح « جيفارا » العرب يعبث بمخيلة كثير من شبابنا العربي . وان فلسفة « النواة المسلحة » المعزولة عن الجماهير ، غير المبلورة عقائديا ، التي تبني استراتيجيتها عن طريق التراكم التكتيكي ، وتبني قاعدتها الجماهيرية من خلال المعارك ، وتكون عقيدتها الثورية بعد ان تنتصر ، هذه الفلسفة التي روج لها « ريجي دوبرييه » تتداول في صفوف المقاومة . وان اكثر من منظمة قد تعجلت فاختارت اسمها ، ورسمت شاراتها ، ووضعت مواثيقها ، ورفعت شعاراتها القومية وهي تنتظر التحام الجماهير العربية حول قيادتها اعتقادا منها بان هكذا يكون التنظيم القومي التقدمي الثوري • اننا نشفق على هؤلاء الشباب من خيبة الامل المريرة التي سيعانونها عندما يجدون ان الجماهير العربية ، وان كانت تعطف عليهم ، لا تلتحم بهم . ونخشى ان ينزلقوا حينئذ الى اتهام الجماهير لانها لم تستجب الى دعوتهم المجولة .

ويهمنا ان نقول لكل المناضلين الذين يمثلون هذا الاتجاه ، ويتطلعون الى ان يكونوا القوة الضاربة لجماهير امتهم العربية ، ان عبقرية « جيفارا » البطل كانت على وجه التحديد في استجابته لواقع الثورة في كوبا واختياره الاسلوب المناسب لها بدون تقيد بالاساليب التقليدية ، وان محصلة الخبرة من ثورة كوبا الناجحة هي انها غير قابلة للتكرار بعيدا عن مثل الواقع الذي افرزها .

ان تحرير فلسطين احدى المهمات الاساسية للثورة العربية ولكنها جزء من معركة التحرر العربي . ومعركة التحرر العربي ليست سوى مقدمة لوحدة الوطن العربي . وحتى معركة الوحدة ليست الا جزءا مكملا لمعركة الاشتراكية . والنصر في كل تلك المعارك لازم لتحقيق الغاية النهائية : اقامة دولة الوحدة الاشتراكية والديموقراطية التي تقدم للجماهير العربية في كل مكان امكانيات الحياة الافضل . ان نتجاهل هذه الوحدة الموضوعية بين مشكلات الحياة في الوطن العربي لن يؤدي الا الى الفشل . ان الجماهير العربية مع كل المناضلين ضد الاعتداء الصهيوني الامبريالي ، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه ، هو الى اي مدى ؟ لن تنتصر المقاومة ولن تنتصر الثورة العربية الا اذا كانت الجماهير العربية في كل مكان ملتزمة بدعمها والمساهمة فيها حتى الموت . ليس الموت في معركة المقاومة ضد الصهاينة فقط ، بل الموت حتى بعيدا عن الجبهة ضد القوى الاقليمية والامبريالية والرجعية والانهزامية . لا يمكن ان تنتصر المقاومة وهي تواجه القوى الصهيونية والامبريالية الا اذا استندت الى جماهير منظمة قادرة على ان تؤمن للمقاتلين قواعدهم ومواردهم المادية والبشرية ومواصلاتهم ، وان تفرض سيطرتها على اي مكان في مؤخرة المقاتلين بعمق الوطن العربي كله. ان هذا لن يتحقق كما يجب ان يكون الا ان احاطت باسرائيل دولة الوحدة النواة كقاعدة للثورة ، ومع ذلك فان المعركة مستعرة وليس مقبولا قوميا التخلي عنها لفتح معركة الوحدة ضد الاقليمية . ولكننا على يقين من ان الاقليمية هي التي ستفتح المعركة قبل ان تتحرر فلسطين لتصفية المقاومة . ان اوسع التأييد الذي يحيط بالمقاومة الآن لا يمكن ان يخفي عن النظرة القومية العلمية ان تلك المعركة قادمة لا شك فيها .وحينئذ سوف يتوقف النصر او الهزيمة على ما اذا كان للقوة المقاتلة في فلسطين قواعد جماهيرية قادرة على مواجهة الاقليمية والانتصار عليها ام لا .

ان هذا يحتم ان تكون المقاومة القومية جزءا من تنظيم جماهيري ثوري يضم الجماهير العربية في باقي اجزاء الوطن العربي ويؤمن لقوته الضاربة المقدرة على الاستمرار في القتال حتى النصر . فهل تكفي بطولة السلاح محوراً لهذا الالتقاء ؟ هل يكفي التأييد العاطفي للموت في سبيل استمرار المقاومة حتى النصر ، ولو تطلب هذا العصف بواحدة او اكثر من الدول العربية ؟

نقول لا يكفي . فان الجماهير العريضة لا تقدم على الموت انفعالا ولكن تضحي في سبيل غايات معروفة ومحددة . والجماهير العربية على استعداد للتضحية من اجل ازالة آثار العدوان ، ومن اجل تحرير فلسطين ، ولكنها لا تقدم على الموت الا اذا عرفت انها تموت من اجل حياة افضل لاسرها واولادها . الا اذا عرفت علاقة النصر في معركة ازالة آثار العدوان ، او معركة تحرير فلسطين بالنصر في معركة الحياة. ذلك هو المصدر الوحيد للصلابة الثورية والمقدرة على مواجهة مخاطر المعركة الطويلة المريرة .

ولا احد يستطيع ان يقدم للجماهير العربية ضمانا بان تضحياتها ستؤدي الى مستقبل اكثر رخاء واكثر حرية الا هي ذاتها متجمعة وملتحمة في تنظيم قومي غايته النهائية ان يحقق لها حياة افضل : ان يقيم لها دولة الوحدة الاشتراكية والديموقراطية . اذن لا تكفي اخوة السلاح بدون التزام عقائدي ، ولا تغني الجبهات المساندة عن الوحدة التنظيمية ، كما لا يغني التحرك الانفعالي عن المسيرة العلمية .

ان مثل هذا البناء ليس مسؤولية المقاومة القومية ، ولكن المقاومة القومية شريكة فيه وذات حق في ان تكون جزءا منه . لهذا فاننا لم نوجه دعوتنا الى المقاتلين في ساحة المعركة . ان كل ما هو مطلوب من هؤلاء ان يلتحموا في منظمة مقاتلة وان يثبتوا من خلال المعارك الحية جدارتهم بان يكونوا القوة الضاربة لجماهير امتهم العظيمة ، ثم ان يحذروا من اغراءات البطولة فيتحدثوا الى تلك الجماهير من مواقع مسلحة ، وان يتجنبوا ان يصوغوا انفسهم فكرا وتنظيما وحركة في استعجال معزول عن مساهمة الجماهير نفسها في تلك الصيغة الفكرية التنظيمية الحركية . ثم ان يقبلوا من الآن ان يكونوا جزءا من تنظيم قومي ثوري يعملون تحت قيادته .

الى متى ؟

لا يمكن ان يطلب منهم الانتظار — الى ان تخرج القوى القومية التقدمية من ترددها المدمر وتكف عن الانتظار العقيم حتى تحقيق

شروطها الخاصة لكي تقتحم المعركة . ان الجانب الاساسي من بناء التنظيم القومي الثوري يقع على عاتق القوى العربية التقدمية وليس على جانب المقاومة . وان مسؤولية النصر في المعركة الدائرة ضد اسرائيل واقعة على عاتق تلك القوى . وهي اذ تتخلى عن مسؤولياتها لن تستحق الا هزيمة اخرى . ولن يجديها حينئذ البكاء مرة اخرى كما بكت في يونيو ١٩٦٧ .

ان كتائب « انصار » المعركة يجب ان تشكل في كل مكان من الوطن العربي لدعم المقاومة فكريا وماليا وبشريا وسياسيا وعسكريا تمهيدا لالتحامها مع المقاتلين القوميين من خلال مؤتمر قومي ينبثق عنه التنظيم القومي الاشتراكي الثوري . عندئذ ستتحول المقاومة الى اداة للثورة العربية قادرة على ان تستمر في المعركة حتى النصر .

تلك هي المقاومة من وجهة نظر قومية .

الموقف القومي من المقاومة :

« المقاومة » من وجهة نظر قومية تعني المقاومة كما يجب ان تكون. اما الموقف القومي من « المقاومة » فيعني موقف القوى القومية التقدمية (منظمة او غير منظمة) من المنظمات الاخرى المشتبكة في القتال ضد الغزو الصهيوني للارض العربية . وهذا الموقف يتحدد بالموقف القومي من المعركة وقواها .

ونحن نرى بوضوح ان لمعركة تحرير فلسطين مرحلتين :

١ ـ المرحلة الاولى :

١ ـ الهدف : ازالة آثار العدوان (استرداد الارض المحتلة بعد يونيو ١٩٦٧) .

٢ ـ القوى الرئيسية : القوى القومية التقدمية المقاتلة والشعبية.

٣ ـ القوى الحليفة :

آ ـ المنظمات الجماهيرية الاقليمية المقاتلة .

ب ـ الدول العربية .

ج ـ القوى الماركسية في الوطن العربي .

د ـ قوى المعسكر الاشتراكي (دوليا) .

هـ ـ قوى الحركة التحررية العالمية .

٤ ـ القوى المضادة :

آ ـ القوى الاسرائيلية (الدولة) .

ب ـ القوى الصهيونية (المنظمة عالميا) .

٥ ـ حلفاؤها :

آ ـ القوى الامبريالية (الولايات المتحدة الاميركية والاستعمار) .

ب ـ القوى العربية المرتبطة بالاستعمار والولايات المتحدة الاميركية .

ج ـ القوى الداعية الى المساومة او الاستسلام .

د ـ القوى العاملة على اضعاف المقدرة العربية على القتال.

٢ ـ المرحلة الثانية :

١ ـ الهدف : تحرير فلسطين وتصفية الوجود الاسرائيلي .

٢ ـ القوى الرئيسية : القوى القومية التقدمية المنظمة المقاتلة والشعبية .

٣ ـ القوى الحليفة : القوى الاقليمية « الفلسطينية » .

٤ ـ القوى المضادة :

آ ـ القوى الاسرائيلية (الدولة) .

ب ـ القوى الصهيونية (المنظمة عالميا) .

ج ـ الامبريالية العالمية بقيادة الولايات المتحدة الامريكية والاستعمار .

٥ ـ حلفاؤها : الرجعية العربية العميلة للاستعمار والولايات المتحدة الاميركية .

٦ ـ قوى تنسحب من المعركة او التحالف .

آ ـ المنظمات الاقليمية العربية (من غير فلسطين) .

ب ـ الدول العربية الاقليمية .

ج ـ القوى الماركسية في الوطن العربي (من غير فلسطين ربما) .

د ـ قوى المعسكر الاشتراكي .

لقد وضعنا الاجابة بهذه الصيغة ليسهل علينا تحديد ضوابط المواقف التكتيكية للقوى العربية التقدمية على ضوء التفرقة الحاسمة بين قوى المعركة في كل من المرحلتين . ويمكن اجمال تلك الضوابط فيما يلي :

اولا : انه لا يجوز تحت اي ظرف اثارة معارك مع القوى الحليفة في كل مرحلة فلن يستفيد من هذا الا العدو المشترك . ان الوقوف موقفا عدائيا ، دعائيا ، او حركيا ، ضد اية قوى مقاتلة ، او مشتبكة ، او مجابهة ، عسكريا ، او فكريا ، او سياسيا ، لقوى اعدائنا وحلفائها ، خطأ تكتيكي مدمر في هذه المرحلة . ان اقصى ما يمكن الذهاب اليه هو اتخاذ موقف دفاعي ضد الحلفاء الذين يرتكبون هذا الخطأ ، بدون وعي ، او استغلالا لظروف المعركة قاصدين تحقيق النصر لحسابهم الخاص . على ان يبذل كل صبر ثوري ضد اي استفزاز ، وتبذل كل محاولة ممكنة لتنمية اسباب التعاون وتوثيق التحالف وتصفية اسباب الخلاف . نقول هذا مدركين تماما ان الساحة لا تخلو من تخطيط واع لتخريب العلاقة بين القوى التي تقف معنا لفض تحالفها او تحويلها عن هدفها المشترك . كما اننا ندرك تماما التخريب الذي قد ينتجه الجهل الذي يعربد تحت حماية السلاح ، او الانتهازية التي تبحث عن مكاسبها الخاصة . ولكننا مدركون في الوقت ذاته ان الاستجابة لكل هذا والمساهمة فيه عن طريق قبول الدخول في معارك جانبية بين القوى المتحالفة هو « موضوعيا » وبصرف النظر عن المبررات اضعاف للمقدرة العربية ومساعدة غير مباشرة للقوى المعادية .

ثانيا : ان مواقع القوى ستتغير جذريا بعد انتهاء مرحلة ازالة آثار العدوان . والدخول في مرحلة تحرير الارض المحتلة من فلسطين قبل سنة ١٩٦٧ وتصفية الوجود الاسرائيلي . وان كثيرا من القوى المشاركة الآن في القتال ، والحليفة ، ستنسحب من المعركة ثم تكتفي بالتأييد الادبي ، او تقف على الحياد ، او تنضم الى تحالف القوى المعادية . انها تلك القوى التي تقبل الوجود الاسرائيلي على الارض العربية او غير مستعدة للقتال حتى تصفية ذلك الوجود . تلك هي اخطر مرحلة سيواجهها النضال العربي . وفيها ستقع مسؤولية الاستمرار في المعركة على عاتق :

١ ـ القوى القومية التي تقاتل من اجل تحرير فلسطين لانها جزء من الوطن العربي ولتقيم دولة الوحدة .

٢ ـ القوى الاقليمية الفلسطينية التي تقاتل من اجل تحرير فلسطين لانها وطنها الخاص لتقيم فيه كما تقول « الدولة الفلسطينية الديموقراطية » .

ثالثا : على ضوء هذا فان ضابط الموقف القومي من المقاومة الآن اي في مرحلة ازالة آثار العدوان تتلخص في امرين : (آ) دعم المقاومة ككل في مواجهة القوى المعادية وحمايتها من محاولات الاضعاف او التصفية والوقوف معها ضد اية قيود تفرضها عليها الدول العربية .

(ب) نقد المقاومة في خصوصية « الاقليمية » عن طريق التركيز على ما تسببه تلك الاقليمية (فكرا ، وصيغة ، وعلاقات) من اضعاف لمقدرتها على النصر .

٢ ـ الحوار

مدخل :

سؤال (١)

أليس من المبالغة القول باننا ما نزال نفتقد من الفكر المحرك اكثر مما نفتقد من السلاح ؟ لقد هزمتنا اسرائيل بقوة مسلحة متفوقة ولم تهزمنا في مناظرة فكرية . بل ان الواقع الاجتماعي الذي يضم اشتاتا من الناس في الارض المحتلة وكما يشير اليه تعدد الاحزاب وكثرتها هناك يدل على تمزق الاتجاهات الفكرية . وبالرغم من هذا فان المقدرة المادية قد حققت لاسرائيل النصر حتى الآن .

جواب (١)

لا اعتقد ان هناك مبالغة في القول باننا نفتقد من الفكر المحرك ـ الفكر المحرك وليس الفكر المجرد ـ اكثر مما نفتقد من السلاح . وليس صحيحا ان مرجع انتصار اسرائيل على الدول العربية حتى الآن هو تفوقها في القوة المسلحة . الاسباب اعمق واقدم من هذا . لقد ثبت ان اسرائيل كانت تعد العدة للقتال في سنة ١٩٦٧ منذ ١٩٥٦ . وكانت تعد للقتال ١٩٥٦ منذ ١٩٤٨ . وكانت تعد للقتال سنة ١٩٤٨ منذ الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ . ومن قبل هذا بنصف قرن كانت تعد المقاتلين والمال اللازم للقتال . ان هذا التخطيط طويل المدى (الاستراتيجي) هو المرجع الاول لانتصار الصهيونية حتى الآن . وقد كانت الصهيونية العالمية تخطط للمستقبل منذ اكثر من قرن على ضوء فكرة محددة ومحركة هي اقامة دولة يهودية تمتد من الفرات الى النيل . ولا شك ان الفكرة ذاتها غير مقطوعة الصلة بمعطيات مادية وفكرية سبقتها،ولكن ابتداء من تكوين الحركة الصهيونية اصبحت القوة المادية المالية والعسكرية تعد وتنتقي ويتم التدريب عليها لتكون كافية لتحقيق اهداف الصهيونية خطوة خطوة . ولولا هذه الوحدة الفكرية لما التزم الصهاينة جيلا بعد جيل وفي كل مكان من الارض بأن يبذلوا من اموالهم وجهدهم ما يكفي لبناء قوة عسكرية متفوقة .

اما عن انعدام الوحدة الفكرية في الارض المحتلة بين اشتات من الناس فتلك حقيقة يجب ان نفهم في حدودها . أنهم مختلفون فيما يتعلق بكيفية الحياة في اسرائيل . ويذهبون في هذا الاختلاف من اقصى اليسار الى اقصى اليمين . ولكن خلافهم هذا لا يتجاوز مداه ليتناول وجودهم في الارض المحتلة ، اي وجود اسرائيل . ان الوحدة الفكرية هنا متحققة الى اقصى درجاتها . وهي هي الفكرة المحركة للنشاط الهادف الى اعداد القوة العسكرية المتفوقة . اي ان التفوق المادي استلزمته واقامته فكرة الحفاظ على الوجود الاسرائيلي والتوسع فيه حتى يتم تحقيق الغاية القديمة ، الدائمة ، اقامة دولة يهودية من الفرات الى النيل وفي هذا هم متفقون .

على عكس هذا كان الامر في الجانب العربي . اننا نمتلك امكانيات مادية وبشرية اكثر بكثير مما تملكه الصهيونية العالمية . ونستطيع ان نعد قوة عسكرية اكثر تفوقا مما تستطيعه اسرائيل . كان ذلك هو الوضع دائما . ولكن العقيدة المحركة لحشد هذه الامكانيات والاعداد العسكري لهزيمة الصهيونية كانت مفتقدة دائما . وليس ادل على هذا من ان الحروب التي خاضتها الدول العربية كانت كلها حروبا دفاعية . كما انها دخلت كل الحروب بدون ان تكون مستعدة لها ، او حتى بدون ان تتوقعها . وافتقاد الفكر المحرك هو الذي حال دون التقاء العرب على تخطيط استراتيجي طويل المدى لمواجهة المخططات الصهيونية . وهو الذي حال دون وحدتهم اللازمة لهزيمة الغزو الصهيوني الامبريالي .

انه اذا كان يبدو الآن على ضوء احداث جرت في يونيو ١٩٦٧ ان التفوق المادي العسكري كان العامل الحاسم في الهزيمة ، فان هذا لا يعني ان اسباب هزيمة ١٩٦٧ كانت عسكرية ، بل الهزيمة العسكرية كانت النتيجة الحتمية لاسباب اسبق منها واعمق . اهمها انه لم تكن لدينا فكرة محركة تحدد الغاية التي اعددنا لها قواتنا المسلحة . وعندما جاءت المعركة لم نفتقد السلاح فقد كان وفيرا ، ولكنا افتقدنا معرفة كيف نستعمله .

ماذا تعني المقاومة :

سؤال (٢)

ان الحديث عن « المقاومة » ككل بالرغم مما قيل من انها مجسدة في منظمات متعددة متميزة من حيث منطلقاتها الفكرية او تركيبها البشري او غاياتها الاستراتيجية ، والتركيز على انها « اسلوب القتال الجماهيري » فيه عناية بالشكل اكثر من العناية بالمضمون ، في حين ان العبرة في استحقاق اية ثورة للنصر هو بمضمونها الاجتماعي . هل تجوز التسوية مثلا بين منظمة تخوض الثورة من اجل مجتمع اشتراكي لمصلحة الكادحين وبين بعض المنظمات التي لا تريد حتى ان تفصح عن مضمون التزامها الاجتماعي ؟

جواب (٢)

لا توجد حركة ، ولا ثورة ، بدون مضمون . بل ان كل حركة او ثورة ذات مضامين مركبة . والحديث عن المقاومة كاسلوب قتال جماهيري لا يعني تجاهل مضامينها الاجتماعية ، ولكن يعني اختيارا للزاوية التي تتصل بموضوع الحديث . والمقاومة ككل متميزة بانها اسلوب قتال جماهيري . اما من حيث مضامينها فانها جميعا كما نعتقد ذات مضمون « تحرري » بحكم انها قوة مقاتلة ضد الغزو الصهيوني . وهي هنا متشابهة بل انها لا تتميز في هذا عن حركة الدول العربية التي تواجه اسرائيل . فحركتها تلك ذات مضمون تحرري ايضا . وفيما يتجاوز المضمون التحرري تختلف المنظمات والدول نفسها من حيث المضمون الاجتماعي . وحتى ونحن نتكلم عنها من موقف قومي فانا ناخذ موقفا ذا مضمون تحرري وحدوي اشتراكي ، ونقيسها على موقفنا ، وندعوها اليه . لاننا نعتقد ان العبرة في استحقاق اية ثورة للنصر ليس بمضمونها الاجتماعي فقط ، ولكن بمضمونها الصحيح اي الذي يستجيب لمتطلبات الواقع . والواقع هنا واقع عربي محتل مجزأ متخلف . ونحن لم نشأ ان ندخل في محاكمات المنظمات بعضها للبعض الاخر ، اعتقادا منا بان القضايا التي تختلف عليها لا تؤثر في استحقاقها للنصر الا من حيث بعدها او قربها من المضمون القومي التقدمي الذي ندعوها اليه . وان الخلاف حول المضامين الاجتماعية لا ينفي الوحدة حول المضمون التحرري الذي لا يكتمل الا في اطاره القومي . مع ملاحظة ان استحقاق النصر هنا ليس استحقاقا قانونيا بل يستحق النصر من يقدر على تحقيقه ولا تقدر عليه وبالتالي لا تستحقه الا المقاومة القومية الاشتراكية . ان اي مضمون غير هذا ، او دون هذا ، او يتجاوز هذا ، خطأ لن يؤدي الى النصر .

الوجود القومي :

سؤال (٣)

اني لا ارى ان المدخل الى معرفة الوجود القومي او الامة هو ان نبدأ كاشتراكيين . وربما يكون العكس هو الصحيح . اي اننا اذا بدأنا كقوميين يمكن ان نصل الى ان نكون اشتراكيين ، باعتبار ان القومية تتضمن الولاء للجماهير العريضة التي تتكون منها الامة ولان الوجود القومي اقدم من النظام الاشتراكي وسابق عليه تاريخيا .

ـ التتمة على الصفحة ٥٤ ـ

محمود درويش

عشرون أغنية عن الموت المفاجيء ..
كلُّ أغنيةٍ ـ قبيلهْ
ونحبُّ أسباب السقوطِ
على الشوارعِ
كلُّ نافذة ـ خميله
والموت مكتملٌ
ففي ملءَ الهزيمة يا مدينتنا النبيله
في كلِ موتٍ كان موتي
حالة اخرى ـ
بديلاً كان للغة الهزيله
(والعائدون من الجنازة عانقوني
كسَّروا ضلعين
وانصرفوا
ومن عاداتهم ان يكذبوا
لكنني صدّقتهم
وخرجتُ من جلدي
لأغرق في شوارعك القتيله)

*

قاع المدينة

تتفجَّرين الآن برقوقاً
وانفجر اعترافاً جارحاً بالحبّ ،
لولا الموت كنت حجارةً سوداء
كنت يداً محنَّطةً نحيله
لا لونُ للجدران ـ
لولا قطرة الدم ـ
لا ملامح للدروب المستطيله
(والعائدون من الجنازة عانقوني
كسَّروا ضلعين .. وانصرفوا
ومن عاداتهم ان يسأموا
لكنهم كانوا يريدون البقاءَ
خرجتُ من جلدي
فقابلت الطفوله)

*

قد صار للاسمنت نبضٌ فيك
صار لكل قنطرةٍ جديله
شكراً ! صليب مدينتي .. شكراً
لقد علّمتنا لون القرنفل والبطوله
يا جسرنا الممتدّ من فرح الطفوله
يا صليب ـ الى الكهوله
الآن نكتشف المدينة فيك
آهٍ .. يا مدينتنا الجميله !

اعرف عدوك

الخصائص الاجتماعية للجيش الاسرائيلي

بقلم الدكتور اياد القزاز

لعبت المؤسسة العسكرية ولا تزال تلعب دورا مهما في كل المجتمعات سواء كانت متقدمة ام متأخرة ، كبيرة أم صغيرة ، وقد أعار المتخصصون في العلوم الاجتماعية اهمية خاصة لهذه المؤسسة في العقد الاخير ، فظهرت مئات المقالات والكتب التي تتعلق بدورها واهميتها في مختلف مناحي الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية . والمتتبع للمجتمع الاسرائيلي ومؤسساته ونظمه المختلفة يرى بوضوح ان المؤسسة العسكرية هناك تلعب دورا بارزا في حياة ذلك المجتمع ، وان هذا الدور لا يقتصر على الاعمال العسكرية بل يتعدى ذلك الى كثير من الاعمال المدنية التي تقوم بها المؤسسات والنظم المدنية في المجتمعات الاخرى . ولكي نفهم الجيش الاسرائيلي واهميته في تكوين المجتمع الاسرائيلي تفهما صحيحا علينا ان نتعرف على الخصائص الاجتماعية لهذه المؤسسة والتي اهملت كثيرا من قبل الباحثين والكتاب العرب عند معالجتهم لهذا الموضوع . وفي هذه المقالة سوف اتطرق الى اهم الخصائص الاجتماعية تاركا الخصائص الثانوية الى بحث آخر مفصل .

١ ـ يتكون الجيش الاسرائيلي من قوة نظامية دائمة وهي العمود الفقري للجيش خلال السلم والحرب . ومعظم افراد هذه المجموعة الصغيرة العدد نسبيا هم في الاصل اعضاء في منظمات الشباب youth Movement (١). كما ان معظم ضباط هذه النواة هم بالاصل من المجندين بالجيش الذين اجتازوا امتحانات معينة صعبة واختبارات خاصة شاقة . وعليه فان ضباط هذه المجموعة يمثلون الى حد ما المجتمع بصورة عامة من ناحية خصائصهم الاجتماعية ومراكزهم الاقتصادية . ويقدر حجم هذه المجموعة ، حسب معظم التقديرات المتوفرة في مختلف المطبوعات المنشورة ، بحوالي الثمانين الفا ، اي سبع المجتمع اليهودي (١) . وتتميز هذه المجموعة بمرونة خاصة وقابلية على الحركة السريعة ومواجهة الطوارىء ، وهي كذلك على مستوى عال من التدريب والتخصص ، ومهمتها تعليم المجندين وقيادتهم وكذلك الاشراف والتخطيط والادارة العامة للعمليات العسكرية .

والى جانب هذه القوة قوة احتياطية يفوق عددها بكثير القوة النظامية ويقدر افرادها بحوالي ٢٥٠ الف شخص (٢). وهذه المجموعة مكونة من الذين انهوا خدمة العلم ، ويحصل افرادها على تدريب متقدم مستمر ويتم استدعاء هذه القوة ، عند الضرورة ، اما عن طريق الراديو باستعمال كلمات خاصة متفق عليها او عن طريق الاتصالات الخاصة ، ويمكن حشد هذه القوة وتهيئتها للقتال في وقت قصير لا يتعدى ٤٨ ساعة .

وهناك قوة اخرى تلعب دورا مهما في الجيش الاسرائيلي وهي قوة حراس الحدود . وافراد هذه القوة مدربون تدريبا خاصا على حراسة الحدود والقيام بالاشتباكات البسيطة وعرقلة تقدم الجيش المهاجم .

٢ ـ ان عملية التجنيد التي تأتي عادة بعد انهاء الدراسة الثانوية ، الا في حالات خاصة حيث تؤجل الى حين انتهاء الظروف الشاذة ، اجبارية على كل شخص . وهذه العملية تشمل جميع الافراد الاسرائيليين ولا يستثنى منها الا افراد معدودون ، وبذلك تكون عملية التجنيد في اسرائيل مختلفة جدا عما هي عليه في كثير من البلدان ، ومنها البلاد العربية .

فرغم اننا نرى ان عملية التجنيد شاملة عامة لكل الافراد في كثير من البلدان من الناحية النظرية ، فان هذه العملية من الناحية التطبيقية غير عامة حيث يستثنى منها الكثير من الاشخاص وفي كثير من الاحيان يفوق

١ ـ Amitai Etzioni, « The Israeli Army : The Human Factor », JEWISH FRONTIER, Novembre, 1959, pp. 6-7.

١ ـ Amos Perlmutter, « Military and Politics in Israel», (Frederick, A. Praeger publisher, 1969.) p-1.

٢ ـ Colonel Irving Heymont, «Israel Defense Forces», Military Review, February, 1967, p-42.

عدد الاشخاص المستثنين الاشخاص المجندين . اما في اسرائيل فالقضية على العكس : الاستثناء من التجنيد قليل جدا ولا يكون سوى نسبة ضئيلة . وعليه فان حمل السلاح يشمل جميع الطبقات الغنية والفقيرة . واسباب عمومية التجنيد في اسرائيل كثيرة اهمها ان المجتمع الاسرائيلي مجتمع صغير من الناحية السكانية (١) . اذ لا يتعدى عدد افراده ٢٫٥ مليون نسمة وبذلك لا يستطيع ان يستثني كثيرا من شبابه من التجنيد وحمل السلاح ، وبالاضافة الى ذلك فان الشخص الاسرائيلي منذ حداثة عهده في العائلة وخلال سني دراسته في المدارس الاولية والمتوسطة والثانوية يعلم ويطبّع على ضرورة الانخراط والانضمام والعمل في الجيش .

٣ — ان عملية التجنيد في اسرائيل تختلف عن بقية دول العالم في ناحية مهمة اخرى ، وهي ان التجنيد هناك لا ينحصر في الرجال بل ويشمل النساء ايضا وعادة يجند الرجال الذين تتراوح اعمارهم بين ١٨ — ٢٩ سنة لمدة سنتين ونصف وتجند النساء اللائي تتراوح اعمارهن بين ١٨ — ٢٦ سنة لمدة سنتين . واسرائيل هي الدولة الوحيدة في العالم التي تفرض التجنيد الاجباري على النساء في ايام السلم . ويرجع سبب ذلك الى حاجتها الماسة الى الاستفادة من كافة القوى البشرية الى اقصى حدود الامكان . وتقوم المجندات اللواتي لا تخلو أي وحدة في الجيش منهن بفعاليات وخدمات متعددة ومختلفة . اذ ان دورهن لا يقتصر على التدريب في مختلف الفنون العسكرية بل يتعدى ذلك الى وظائف اخرى اهمها تعليم اللغة العبرية للمهاجرين الجدد الذين لا يعرفونها والتجسس والقيام بمختلف الوظائف الكتابية والادارية مثل ادارة مستودعات الاسلحة والمستشفيات والمختبرات ومحطات المخابرات اللاسلكية كما يعملن كسائقات وطبيبات وممرضات وصيدليات (٢) . ووجود المجندات في الجيش قد ساعد كثيرا على تخفيف الضغط الجنسي والمعاناة النفسية خاصة عند المهاجرين الاوروبيين الذين تعودوا الحياة المختلطة بين الجنسين (٣) .

وبالاضافة الى ذلك ، فان عملية تجنيد النساء تؤدي الى تنمية روح الاستقلال والاعتماد على النفس والوعي الاجتماعي والقومي بين النساء ، كما ان انخراطهن في وحدات الجيش يساعد على ازالة العديد من الآراء الخاطئة حول دور المرأة في الحياة التي اتى بها بعض

١ — Amitai Etzioni, «The Israeli Army: The Human Factor», Jewish Frontier, November 1959, p-5.

٢ — Ada Maimon, «Women Build a Land», (New York, Theodor Herzil Foundation, Inc., 1962) p-228.

٣ — Amitai Etzioni, «The Israeli Army: The Hu- Factor», Jewish Frontier, November 1959, passim.

المهاجرين من المجتمعات المختلفة التي نشأوا فيها (١) .

٤ — ان متوسط عمر الضباط ، بما فيهم الضباط ذوو الرتب العالية ، صغير جدا اذا ما قورن باعمار ذوي الرتب العالية ، صغير جدا اذا ما قورن باعمار ضباط الجيوش الاخرى في العالم . اذ أن متوسط اعمار الضباط الاسرائيليين يقل عن متوسط اعمار ضباط جيوش الدول الاخرى في العالم بحوالي عشر سنوات او اكثر . كما ان معظم الضباط في اسرائيل يحالون على التقاعد او ينقلون الى وظائف مدنية قبل بلوغهم الخمسين. وتتجلى هذه الحقيقة في رئيس اركان الجيش . فمنذ ١٩٤٨ حتى الآن تسلم هذا المنصب ثمانية اشخاص جميعهم ، عدا شخص واحد ، كانوا دون الاربعين ، وقد نقلوا الى وظائف مدنية وهم في اوائل الاربعين من عمرهم (٢) . ولصغر متوسط عمر الضباط الاسرائيليين نتائج هامة أبرزها ، تسهيل الاتصال بين الضباط بحيث لا يشعرون بفرق كبير في السن مما يساعدهم على الاحتكاك وعلى كسر حدّة التقاليد وتأثيرها على علاقاتهم واوضاعهم الشخصية . كما ان احالة الضباط على التقاعد قبل ان يصلوا الخمسين من العمر ساعد على عدم تكوين طائفة خاصة من الضباط ذات مصالح خاصة ومميزات معينة .

٥ — تتكون غالبية الضباط من ذوي المراتب العالية من المهاجرين الاوروبيين . اما المهاجرون من آسيا وافريقيا ، او من يسمون بالمهاجرين الجدد ، فلا يحتلون المراتب العليا ، وعددهم حتى في المراتب الدنيا قليل جدا بينما نجد عددهم في مرتبة المجندين يفوق كثيرا عدد المهاجرين الاوروبيين (٣). ورغم انهذا الوضع قد تغير الى حد ما في السنين الاخيرة ، فان المهاجرين الاوروبيين لا زالوا هم المسيطرين على المراتب العالية والمراكز الحساسة في الجيش .

٦ — ان صغر المجتمع الاسرائيلي من الناحية العددية والجغرافية ساعد كثيرا على كثرة الاتصال والاحتكاك بين المجندين والضباط وأسرهم ، فباستطاعة هؤلاء الاتصال بزوجاتهم او صديقاتهم او اصدقائهم في عطلاتهم الاسبوعية والرسمية والسنوية . وقد ساعدت هذه الوضعية كثيرا على تشابه الضباط والمجندين مع بقية افراد المجتمع وعلى عدم تكوين طبقة خاصة ذات قيم

— التتمة على الصفحة — ٨١ —

١ — اديب قعوار ، « المرأة اليهودية في فلسطين المحتلة » (بيروت ، منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الابحاث ، دراسات فلسطينية ٢٩ ، ١٩٦٨) ص ١٧١ — ١٧٣ .

٢ — J.C. Hurcwitz, «Middle East Politics; The Military Dimension», (New York, Frederick A. Praeger Publisher 1969) p-364.

٣ — Amitai Etzioni, «The Israeli Army: The Human Factor», Jewish Frontier, part III, February 1960, p-18.

قرأت العدد الماضي من « الآداب »

الأبحاث

بقلم فاضل العزاوي

***

بدأت « الآداب » عددها الاخير – الثاني عشر – بالدعوة الى التجدد والتفتح على الطاقات الثقافية العربية الجديدة والسعي لتقديم فكر ثوري ذي أبعاد حضارية ، والابتعاد عن القوالب الجامدة التي قد تؤدي الى الاضرار بوعي الانسان العربي وموقعه الجديد في العالم . ان مثل هذه النظرة مهمة في نظرنا ، ذلك لاننا نعتقد ان الثقافة المحنطة غير القادرة على توسيع آفاقها باستمرار لن تكون قادرة على اضاءة الواقع الانساني . لقد قام الجيل الادبي السابق الذي التزمته الآداب منذ اعدادها الاولى بالتعبير عن مشاكله وهمومه وطرح رؤياه للاشياء والعالم الذي نعيش فيه . قال كل ما كان يريد ان يقوله وخاض حربه الخاصة التي كانت مقدمات اولية للحرب التي ينوي الجيل العربي الجديد الذي ولد في خضم تجارب سياسية واجتماعية وحضارية عنيفة ان يخوضها ببسالة ، لا من أجل كسب واقعة او واقعتين من هذه الحرب ، وانما من أجل بناء وطن لا نخجل من الانتساب اليه وصياغة انسان عربي متحرر من امراض قرون التحنيط والايديولوجيات البائسة التي عجزت عن تحرير الانسان العربي من اغلاله .

اذا كان الجيل السابق الذي لعب دورا تاريخيا مشرفا قد انزلق من رحم الجيل القديم المكثف بكل مثاليات الوعي العشائري والبدوي للوطن والامة والعالم والانسان فانه قد حمل معه في الوقت ذاته كثيرا من مثاليات الجيل القديم وامراضه . وحتى عند قيامه بدوره التاريخي كان يتحاور مع العالم القديم بنفس اساليبه وافكاره او على الاقل بنفس طريقة تناوله للامور . ألم يكن السياب يقول للشعراء التقليديين ان القصيدة الجديدة تختلف عن القصيدة القديمة بعدد التفعيلات ؟ ألم نكن نبحث عن مبررات شكلية في الماضي التليد لاقدس قضايانا المعاصرة ؟ لقد كان الجيل الذي سبقنا خطوة في اكتشاف وجهنا الحضاري والانساني . حقا انها كانت خطوة رائدة ولكنها مع ذلك خطوة واحدة .

اما الجيل العربي الجديد الذي يعي اليوم وبشكل قوي عذاباته ، حريته ، مواقفه ، فانه يطمح ان يسير بالشوط حتى النهاية ، لا عن طريق محاورة العالم القديم وانما عن طريق هدمه بعد استخلاص كل العطاءات الحضارية التي اثبتت قدرتها على البقاء فيه وبناء عالم جديد يمنح الانسان العربي الكثافة التي يفتقدها . ان الصوت العربي الجديد المنبثق من فوهات بنادق المحاربين ، من وعي حركة تطور الامة ، من الكشوفات العلمية للعصر ، من التجدد والتجاوز المستمر ، من المظاهرات المطالبة بالخبز للشعب والحرية للجماهير والوحدة للوطن ليس منبثا بالمخاض فحسب : انه الصوت الذي يضيء المستقبل المفقود ويحدد موقعنا الجديد في العالم بثقة تامة ولكن بدون ادعاءات زائفة .

ان « الآداب » الجديدة ستكون قادرة على مواصلة نفس خطها السابق الرائد عندما ترتبط اكثر بالمعطيات الجديدة للثقافة العربية والتجارب الادبية الاكثر انفتاحا والاعمق وعيا والتي قد تواجه بعض المقاومة ليس من الجيل المحافظ فحسب وانما من الجيل الذي قام بدور ريادي ايضا .

من اجل كل هذا نقيم الموقع الجديد لمجلة « الآداب » والذي نعتقد انه سيكون ذا خطورة خاصة .

***

في العدد الماضي من الآداب ثلاث دراسات سياسية ذات علاقة بالصراع الذي يخوضه العرب ضد المحتلين الاسرائيليين . فالدراسة الاولى (بوق الصهيونية والعدوان) ، وهي في الحقيقة مقال صحفي عن السياسة الاعلامية لراديو اسرائيل – تفضح الروح العدوانية والتضليلية الكامنة وراء مخططي سياسة الحرب النفسية ضد العرب في اسرائيل . ويورد الكاتبان السوفياتيان ي. شرايبر وم. كوسوف امثلة على الاكاذيب الملفقة التي توجهها محطة الاذاعة الاسرائيلية الى يهود الارض المحتلة والعرب والعالم . كما يفضح الكاتبان الحملة المعادية التي شنها الراديو الاسرائيلي ضد الاتحاد السوفياتي ، مثيرا ستارا من الاضاليل حول واقع حياة اليهود هناك ، وقد رافقت هذه الحملة حملة صهيونية عالمية شاركت في اثارتها صحف ومجلات امريكية عديدة في الاشهر الاخيرة مثل مجلتي تايم ونيوزويك الامريكيتين . وعلى الرغم من ان هذا المقال الصحفي لا يخلو من فائدة الا انه لا يصلح في نظري للنشر في مجلة شهرية تهتم بالقضايا الفكرية مثل « الآداب » . ان صحفنا السياسية اليومية تزدحم بعشرات التعليقات المشابهة واعتقد ان هذا المقال الصحفي منشور في الاصل في احدى الصحف اليومية.

ترى ألم يكن من الافضل لو قامت المجلة بتكليف بعض رجال الاعلام العرب بكتابة دراسة مفصلة علمية ودقيقة عن سياسة راديو اسرائيل ، برامجه ، الاغاني التي يذيعها ، المخطط النفسي ، الاهداف التي يتوخاها ، ومدى استماع المواطنين العرب لهذه المحطة ؟ ان تقديم مثل هذه الدراسات يمكن ان يساعد الاذاعات العربية ذاتها في اختيار اللغة التي تخاطب بها الجماهير . لقد هبطت سمعة اذاعة اسرائيل الى الحضيض بعد ان بدأت تزيف الحقائق بشكل مكشوف ولا تذيع الا ما هو أقل من ربع الحقيقة . ولكن هل افلحت الاذاعات العربية بالمقابل في أكتساب ثقة المستمع العربي على الاقل ؟ مما لا شك فيه ان موقع الاذاعات العربية اليوم افضل مما كانت عليه قبل الخامس من حزيران ١٩٦٧ غير انها ما زالت عاجزة عن كسب الثقة النهائية للمستمعين . ثمة حقيقة اعلامية لا يمكن نكرانها وهي انك اذا اردت اسماع صوتك لمليون شخص وليوم واحد فقط فاطلق كذبة كبيرة . اما اذا اردت اسماع صوتك للناس دائما فلا تقل سوى الحقيقة . ان هدم الثقة بما يذيعه راديو العدو من اضاليل واكاذيب ضروري جدا ولكنه ليس كافيا اذ يجب في الوقت ذاته ان نثبت امام العالم ان صوتنا هو صوت الحقيقة .

ثمة وهم في هذا المقال لا بد من الاشارة اليه وهو ان الكاتبين يعتقدان ان سبب هذه الدعاية التي تخدم مصالح الامبريالية العالمية هو (ان حكام اسرائيل وضعوا بلدهم في خدمة الاستعمار) و (انهم لم يوجهوا انتباههم الى عذابات شعبهم الذي يستغل على يد عصبة من الاثرياء) . وبصيغة اخرى فان الكاتبين كما يبدو لي يدعوان الى اسرائيل متحررة من سيطرة الامبريالية العالمية ، تقدمية ، ومعادية للتوسع والعدوان . لقد اكتشف الروائي العظيم دستويفسكي زيف هذه النظرة منذ عام ١٨٧٧ عندما اكد في الدراسة الرائعة التي نشرتها الآداب في نفس العدد الماضي بعنوان (القضية اليهودية)) على (انه

– التتمة – على الصفحة – ٨٤ –



بقلم زكي الجابر

***

— ١ —

مهمة الفكر والادب تغيير العالم .. تلك مسلمة نؤمن بها ونسعى من اجل تثبيتها مفهوما يتحدد في ضوئه العمل الشعري . ولقد حاول شعراء العدد الماضي من الآداب « جميعا » ان يساهموا في هذا اللون من النضال الانساني على درجات مختلفة من التجديد والابداع .. البياتي يود أن « يقتل هذا الليل بصرخات جبننا المصلوب تحت الشمس » ، والركابي يأتي وعلى شفتيه « اخضرار البشارة » ، ودنقل يرقب الامواج « دون ان تكف عن صراعها اليائس » ، والناعم « يمضي الى الاغوار يتبع الشهادة » ، والخافاني لم يبصر في الفارس « رياحا تنحني » ، والنجمي له « غابة ثأره » ، وعزيزة « تسمع الرياح عبر الاردن تأتي بالبشارة » ، وغالي يود « أن يفجر قطار الشمس » ، واخيراً بندر عبد الحميد يعبر عما في نفوس الاطفال ويقول « جئنا .. ولكن غفرانك ان نحن تأخرنا » .

ان ارادة التغيير متوفرة عند هؤلاء الشعراء .. ولكن هل كانت اداتهم بمستوى التغيير ؟

ان المخاض الذي مر به الشعر العربي اسفر عن الكثير من المزق المشوهة .. واننا بتنا نفتقد دهشة الفرح واصبح عسيرا تلمس توهج الذهب امام التماع اكوام النحاس .. ومع الاعتذار لسارتر ففي دنيا الشعر كما في المسرح .. وكما في الحب « اصعد او تدحرج » .. وما اكثر المتدحرجين !

ان اعتمادنا ارادة التغيير لا يعني بأي حال اغفالنا المقاييس الادبية ، مع الاعتراف الكامل بالرأي الذي يذهب الى ان استعمال هذه المقاييس واصدار الاحكام النقدية وكشف الانفعالات الجمالية امور تتأثر بخبرات الناقد وتجاربه النفسية ..

— ٢ —

حاولت ان ادرك ما يريد الركابي بقوله :

« اتيت :

نـواء الجذور

مخاض انتظار على شفين ..

وحاولت ان اتقرب الى الصورة التي ارادها الخافاني بقوله :

(انت تأتي

تتهجى صدف الموت ، وتبكي)

وكيف يتهجى الانسان صدف الموت .. ولماذا وضعها في سطرين ، انني لا ارى غير تخليط .. وازعم انها ليست اوتوماتية نفسية صرفة جرى التعبير عنها بالكلمات .. فما اراده بريتون بلا شك غير هذا الضرب من الكلام .

وعندي ان البياتي شاعر أصيل .. ولكنه افتقد صوته منذ ان فارق العهد الذي كتب فيه (ملائكة وشياطين) ، فقد ودع عبد الوهاب مع ديوانه هذا انسجامه مع نفسه والتقاء فكره مع ذاته .. وظل تائها يقتبس النار في صقيع موسكو ، وينتظر طويلا على ابواب مدريد ، ويبكي الحلاج من اعلى اهرام خوفو .. فهل يعود البياتي الى نفسه حين يعود للكتابة على قبر السياب ؟. ولقد قرأ السياب اسمه من قبل على صخرة ... هنا في وحشة الصحراء .. على آجرة حمراء .. واحس بما يحس به الانسان العربي حين يرى قبره ...

لقد عاد البياتي الى طفولته كما عاد من قبل نيرودا الى طفولته على ضفاف نهر بيوبيو .

ولكن حدثني يا بيوبيو

ان كلماتك هي التي تنزلق في فمي

فلقد وهبتني النطق والغناء — الليلي ،

هذا الغناء المزوج بالمطر والاوراق

لم يرني احد وانا طفل ،

ولكنك انت كنت تقص عليّ

حكاية بزوغ النهار من الارض

عاد البياتي يصيح تحت الطاق « بغداد يا بغداد » ولم نجد جواب ندائه كما وجدنا جواب الخليج للسياب حين صاح :

يا خليج يا واهب اللؤلؤ والمحار والردى

فيرجع الصدى

كأنه النحيب

يا خليج ....

مفهوم واحد كان على البياتي ان يسقطه من قصيدته وهو قوله (نبدأ حيث تبدأ الاشياء) ففي اعتقادي ان هذا الضرب من الكلام الفلسفي لا ينسجم مع عفوية القصيدة وانطلاقها البريء ورائحتها الطفولية .

وآه لو عاد عبد الوهاب الى دنياه الاصيلة وتكون البداية هذه الكتابة على قبر السياب !

***

امل دنقل هو ذلك الشاعر الذي لونه المحبب ، بسماته الانسانية وكل ما تحمله مدرسة التطرف في الادب والنقد من تفاؤل يائس او يأس متفائل ..

وامل في (صفحات من كتاب الصيف والشتاء) هو ذاته الذي طالما ضحى بالشكل في سبيل المحتوى .. ترى اي ناقد يحترم اللفظة وجرسها يستسيغ ان يقرأ :

كان « ترام الرمل »

منبعجا — كامرأة في اخريات الحمل

غير ان أمل يستطيع ان يفرض الاحترام في قصيدته هذه وغيرها بسبب من طرفه المصرية المحببة .. انه شاعر له لونه الفريد المميز .

والناعم عبد الكريم في قصيدته « جميل يمضي الى الاغوار » .. يرجع بي الى « حسن التخلص » الذي اهتز له قدماء البلاغيين . لقد انتهى زمن « حسن التخلص » وجاء عهد « الترابط العضوي » ، وكان على عبد الكريم ان يمضي الى الاغوار بلا مقدمة طويلة تحمل روح الشاعر الذي امتدح مطيته طويلا لانها حملته الى الخليفة المدوح .

وفي قصيدة السيد طالب غالي « اليمامة وبستان الليمون » .. اندفاع المؤمن وحماس الشباب .. وارادة الثورة.. ولكن تنتصب امامنا المقاييس الادبية ، فالقول :

تفجر في دمي بركان

تفجر .. (جـر)

في دمي بركان

يفتقد سلامة اللغة .. كما يفتقد سلامة المعنى التي تترتب على سلامة اللغة .

— ٣ —

والى اولئك الذين لم اتحدث عنهم تحيتي فقط .

بغداد — زكي الجابر

القصص

بقلم الدكتور علي جواد الطاهر

***

— ١ —

ليس ما ينشر في « الآداب » عن فلسطين من قصص (وشعر ..) على المستوى المناسب للقضية ، وقد يفترض القارىء ان تقدم له الآداب قصصا (وشعرا ...) أعلى مما يقرأ اذا ارادت ان تقرن القول بالفعل ، وبذلت جهدا اكبر ، وافرت مفهوما أرصن وتعاملت مع اقلام امتن والتزمت نهجا انصع — ولا شك في انها شاعرة بذلك ، ولا ادل من افتتاحية العدد الماضي . ان القارىء العربي يطمع ان تكون له مجلة أدبية ، وقد شجع صدور الآداب عام ١٩٥٣ هذا الطمع .

والقصص العربية في العدد الماضي ثلاث ، موضوعها واحد : فلسطين ، وان شئت ملامح من الفداء . وهذا جميل جدا ، ولكنه يستدعي الحذر الفني والخوف من ان تستحيل فلسطين ويستحيل معها الفداء شعارات ومطايا ومعابر ، يكفي ان يلج كاتب بابها ليقول اني اسهمت في المعركة ويجد الناشر والقارىء ..

ان الموضوع اذا كان مثل فلسطين حمل الكاتب مسؤولية كبيرة ، وجعل طريقه شائكة لان المعروف منه كثير : مادة وفكرا وعاطفة ... وسياسة ، وهذا يوجب على الكاتب أن يكون ابعد من المعروف الشائع ، واصدق واعمق من اصحاب الصحف والاذاعات ووكالات الانباء : ان يعيش فلسطين ، والا كثر الافتعال — وهو ما يحصل .

واذا كان هذا واجب الكاتب ، فان كثيرا من الكتاب يهمهم النشر بأي ثمن ، وارخص الثمن الضرب على الوتر الذي تضرب عليه المجلة ، والمناداة بالصوت الذي يرفعه رئيس التحرير ، ومن هنا تصبح المسؤولية على رئيس التحرير أكبر مما هي على عاتق الكاتب الاديب والمتأدب .

وقد تكون مسؤولية مجلة كالآداب اكبر من مسؤولية غيرها من المجلات ، ولا يعفيها الا تجد ما ينشر فتنشر ما تجد .

— ٢ —

تجري قصة « الصورة » في الباص ، يرويها شخص يحك جلده والبثور المنتشرة عليه بأظافره الطويلة ، ويصعد في احدى المحطات فدائي عاد من الجبهة في اجازة ويحمل نسخا من بيان المنظمة عليه صورة . ويصعد من محطة اخرى شيخ اعرابي عجوز له ابن جندي في الاردن . ويجري حديث بين الشيخ والفدائي ، ويعرف الشيخ من الفدائي ان الصورة هي « صورة فدائي شهيد » و « يغمره ذهول غريب ... وينفجر في بكاء مرير وقد ضم صورة الشهيد الى صدره بحنان ... : أويلاخ عليك ... وجنبك وليدي خضير » .

ثم ينزل الشخص الراوية من الباص .

— أهذه قصة ؟

— لا . واذا نظرت في اجزائها وجدتها قد جمعت اعتباطا ورقعت ترقيعا . ولقد اطال الكاتب في كثير من اجزائها هذه لغير داع : وصف الباص والجابي والقصر الابيض والمستشفى وعمارة سلمان وادي دون اية حاجة الى ذلك ، فكتب — بذلك — ما يقرب من ثلث القصة قبل ان يصعد الفدائي الى الباص ، ثم ما الصلة بين ذلك الوصف وهذا الفدائي ، لقد كان وصفا مجانيا . هل الوصف غاية ؟ الوصف الخارجي الذي لا تجد له رابطا بالامر الداخلي للراوي ذي البثور ولا بموضوع الفداء . وهذا يؤلف مصدرا مهما للجفاف المسيطر على القصة .

اما المصدر المهم الآخر فلان صميم الحدث ليس حيا ولا يصلح لان يكون مدار قصة ، ومن هنا كان متكلفا وكان باهتا . ولم يعمل المؤلف حتى ان يجعله ذا مغزى من نوع ما يفعل المعلمون وهم يقصون على اطفالهم حكايات تشجيعية تربوية كأن يجعل من الشيخ العجوز مثالا للرجولة والتضحية اذ يفخر بابنه الذي يتحفز لحرب الاعداء فيمتلىء بشرا ويفيض حماسة لا ان ينفجر في بكاء مر ويقول : « أويلاخ عليك » — وما كان يكون لو فعل ذلك بعيدا عن الواقع او ما يمكن ان يبدو واقعا .

ولم تكن لغة القصة وطيدة في بابها . وقد وردت لفظة «الكاكية» وهي مصرية ، ويقول العراقيون : الخاكية ، ووردت « خربشة جلدك » والذي يقال في العراق : كرد جدك (او هرش ...) .

وأجرى المؤلف على لسان القروي العجوز ما ليس من مألوف تعبيراته كأن يقول : « اروح لكم فدوة » وهي من مألوف تعبيرات النساء ، ومنها او قريب منها قوله : « ابني ... زغيرون » ...

لقد عجل الكاتب وكان المناسب ان يترك التجربة مدة كافية لتخميرها — او لامتحانها — وان يعيد النظر فيما كتب قبل ان يبعث به الى النشر .

أكان ضروريا ان يكتب يوسف الحيدري هذه القصة وان ينشرها ؟ لقد كتب قبلها قصصا جيدة وكان له في مجموعته : حين يجف البحر، ورجل تكرهه المدينة ما يستجاد ويستلطف ويختار . ارجو الا تدخل « الصورة » في مجموعته الثالثة المنتظرة .

— ٣ —

وجاءت قصة « الصوت والصدى » بقلم رشاد ابو شاور على لسان فلسطيني فدائي يعبر الحدود من الاردن الى سورية للتدريب .. وكان المعسكر خيمة واحدة .

حاول كاتبها ان يتفنن بأن يقطع السياق باستذكار الماضي : « ولدت في قرية ... قرب الخليل ... » ولكن القطع جاء طويلا ادخل بالجغرافية الاجتماعية . وظهر القسر عليه .

وتنتهي من القصة كمن قرأ اثرا لا روح له ولا حياة . وتسائل عن سر الكتابة ، وسر النشر واذا وجدت ما يسوغ الكتابة لم تجد ما يسوغ النشر .

يحاول المؤلف ان يفهم القارىء انه فلسطيني ، فان صح ذلك ، تضاعفت مسؤوليته وطولب بالحرارة والجدة والعمق والا فالذي قاله يمكن ان يتهيأ لاي قائل .

ولكن « الصوت والصدى » خير من « الصورة » — اذا كان لا بد من المقابلة .

— ٤ —

اما قصة « موت الرجل الذي سبق موته » فجيدة جديرة بالكتابة والنشر والقراءة ، لما تعكس من عمق الحالة النفسية لبطلها ، ولما تدل عليه من الاناة التي بذلها الكاتب في صوغها ، ولما تبين من حسن التصرف والقدرة على التفنن ... والظهور بمظهر رصين من النمط الجديد .

الحالة النفسية هي أسى وأسف منبثقة من نفس المؤلف وصالحة للانتقال الى نفس القارىء لما تخلق من جو تحيطه به ولما توحي اليه من ثقة بأن الكاتب قريب من التجربة — أو انه يستطيع ان يبدو قريبا جدا من التجربة .

وتطلب تلخيصا ، ولا تلخيص ، لانها ليست قصة احداث قدر ما هي قصة مشاعر ، وقد عمل الكاتب على ان يتنقل بين الصور ويروح ويغدو فيغير في النغمة ويبعد عن الملل . ان في عمله كثيرا من التعقيد ولكنه يبدو غير معقد ، ومن هنا كان عملا فنيا .

قراءتها مرة ثانية (وربما ثالثة) . فقد يمر بها قارىء فيراها اعتيادية هذا اعجاب عام ... ولكن القصة ليست سهلة ، ولا بد من وقد يرميها بالقصور . انك ان تركتها بعد القراءة الاولى فان حكمك

— التتمة — على الصفحة — ٨٥ —

عبد الوهاب البياتي[1]

مرثية إلى المدينة التي لم تولد

تطن بالناس وبالذباب

ولدت فيها وتعلمت على أسوارها
الغربة والتجواب

والحب والموت ومنفى الفقر

في عالمها السفلي والابواب

علمني فيها ابي قراءة الانهار

والنار والسحاب والسراب

والرفض والاصرار

علمني : الابحار

والحزن والطواف

حول بيوت اولياء الله

بحثا عن النور وعن دفء ربيع
لم يجيء بعد

وما زال ببطن الارض والاصداف

منتظرا نبوءة العراف

علمني فيها انتظار الليل والنهار

والبحث في خريطة العالم عن مدينه

مسحورة دفينه

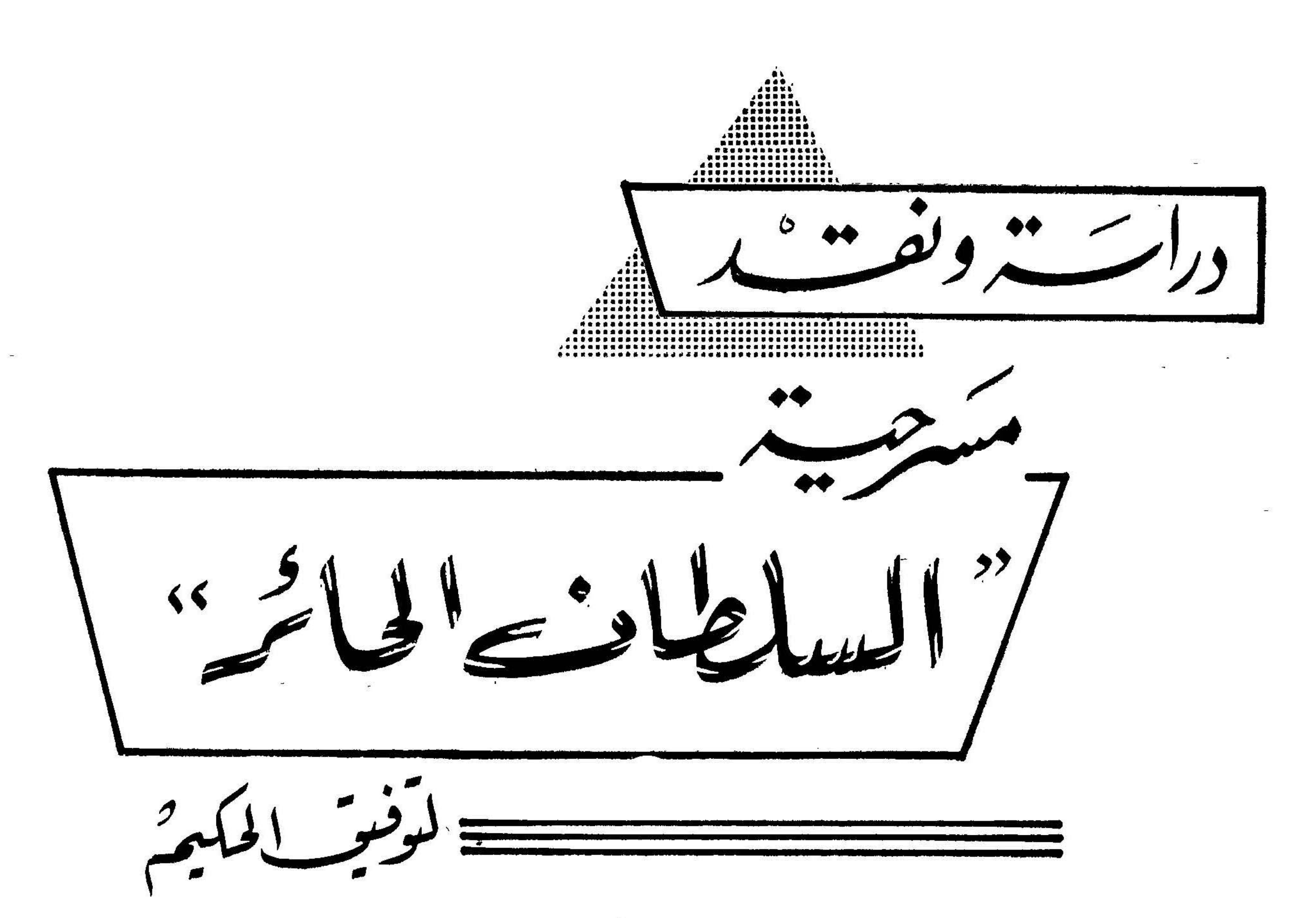
تشبهها في لون عينيها وفي -

ضحكتها الحزينه

لكنها لا ترتدي الاسمال

وخرق المهرج الجوال

ولا يطن صيفها بالناس والذباب



تستمد هذه المسرحية مادتها الاولية من احداث التاريخ العربي في عصوره المتأخرة ، وان لم تكن هي في ذاتها مسرحية تاريخية . ذلك انها لا تتقيد بسيرة اشخاص بعينهم مأخوذين من التاريخ بحيث تسرد لمحات من حياتهم تجسمها في اطار مسرحي ، وانما استلهمت التاريخ في استحداث شخصيات تمثل نماذج بشرية عامة مثل الغانية وقاضي القضاة والوزير والسلطان والخمار والاسكافي . وقد حرص توفيق الحكيم على ان يضمن لنفسه النجاة من حساب الذين يعنون بالمحافظة على جوهر الحقيقة التاريخية ، فلم يضع لهؤلاء الاشخاص اسماء تميزهم وانما تركهم « نماذج » كما قلنا ، وبذلك لم يعد من حق الناقد ان يحاسب المؤلف على تحريفه لشخصية هذا او ذاك من رجال التاريخ . ولقد اتاح ذلك لتوفيق الحكيم فرصة يخرج فيها على ملامح الشخصيات الواقعية التي قد يكون استمد منها اصول المسرحية . ومنها شخصية العالم الاسلامي عبد العزيز بن عبد السلام (١) المتوفي سنة ٦٦٠ هـ ، وكان ذا شخصية قوية متسلطة ، وشغل منصب القضاء وغيره وكان مسموع الصوت لدى السلاطين ، لا يبالي ان يخالفهم نصرة للحق ، وقد يفرض عليهم رأيه وعقيدته . والواقع الذي لا بد لنا ان نقرره انه ما من دليل مطلقا على ان توفيق الحكيم قد ارتكز الى هذه الشخصية في رسم صورة « قاضي القضاة » لانه لم يسمه باسمه في المسرحية . غير ان ادارة المسرح القومي (الذي مثلت عليه المسرحية اول مرة في القاهرة) قد اشارت في اعلاناتها الى شخصية هذا القاضي باعتبارها مصدرا لاحداث الحكاية حينما عرضت المسرحية في القاهرة اول مرة (٢). وهذا غير ملزم لتوفيق الحكيم على أي وجه من الوجوه ما دام لم يتقيد فنيا بالاسماء .

١ ـ اخبار عبد السلام موجودة في ذيل مرآة الزمان ـ المجلد الاول لقطب الدين اليونيني الحنبلي ص ١٧٢ ـ كذلك ذكره ابن العماد الحنبلي في كتابه « شذرات الذهب في اخبار من ذهب » ص ١٠٣ .

٢ ـ معلوماتنا عن اخراج المسرحية في القاهرة مستندة الى كتاب الدكتور محمد مندور « مسرح توفيق الحكيم » وقد ادرج فيه جانبا من اعتراض اثاره الاستاذ أمين الخولي حول تاريخية الشخصيات في المسرحية .

١ ـ الحكايه وبناء المسرحية

جوهر القصة التي استوحاها توفيق الحكيم من التاريخ ان احد النخاسين قد لفظ بان السلطان رقيق مملوك لم يعتق ومن ثم فان حكمه للبلد باطل شرعا لانه لا يصح ان يحكم الناس الا رجل حر . وسرعان ما يقبض رجال الشرطة على هذا النخاس ويسوقونه للاعدام في ساحة عامة بالمدينة . ويلجأ النخاس الى عدل السلطان فيسأله ان يحاكم قبل تنفيذ الحكم ويقبل السلطان الطلب وتتم المحاكمة . وسرعان ما يتبين ان تهمة النخاس صادقة وان السلطان مملوك لم يعتق . ويلتمس الحاضرون وبينهم السلطان حلا لهذه الازمة الخطيرة فيصر قاضي القضاة على التزام حكم الشرع والقانون في هذه القضية ومضمونها ان يباع السلطان بالمزاد العلني ، فاذا اعتقه المشتري صح ان يرجع سلطانا ويحكم الناس . ويتم البيع العلني فعلا في مشهد مثير وتكون المفاجأة المذهلة ان المواطن المتخفي الذي اشترى السلطان ليس الا المرأة الغانية التي يسميها الناس « عاهرة » . وتكون المفاجأة الثانية ان الغانية ترفض ان تعتق السلطان الا اذا قضى ليلة في منزلها ، على ان يكون اذان الفجر علامة انتهاء هذه الليلة . ويتم ذلك كله دون ان يلجأ السلطان الى الباطل او الى السيف في الخلاص من مآزقه المتلاحقة . غير ان الغانية تضطر الى توقيع وثيقة العتق في منتصف الليل لان قاضي القضاة دفع المؤذن بالقوة الى ان يؤذن اذ ذاك لصلاة الفجر . وتنتهي المسرحية بسورة عاطفية نبيلة تجيش بها نفس الغانية ، وتترقرق في المشهد كله معان فلسفية وانسانية مؤثرة تضيف قيمة حية جديدة الى ادب توفيق الحكيم .

هذا ملخص الحكاية كما رسمها المؤلف في المسرحية ، وعليها بنى عملا فنيا منيرا في ثلاثة فصول . فاذا اردنا ان ندرس اسلوب العرض الفني الذي استعمله توفيق الحكيم لاحظنا انه التزم تخطيطا عاما في الفصول كلها : فكان يبدأ الفصل بعرض المشكلة من وجهة نظر الجمهور الذي يمثله شخص او شخصان ، ثم ينتقل ويعرض وجهة نظر السلطان وحاشيته .

ففي الفصل الاول يبدأ العرض بتقديم (محكوم عليه) مجهول الهوية مشدود الى عمود في ساحة عامة بالمدينة والى جانبه جلاد

مبتذل في حالة سكر . ونفهم من السياق ان هذا المتهم نخاس يبيع الرقيق وقد اتهم السلطان بانه عبد مملوك لم يعتق فلا يصح لـه ان يحكم البلد . ثم يتيح لنا المؤلف ان نعرف الموضوع من وجهة نظر السلطان الذي كان يحسب انه قد عتق .

وفي الفصل الثاني يحدث شيء يشبه هذا فهو يبدأ بعرض خواطر الجمهور ومشاعرهم . ويكون الخمار والاسكافي والجلاد رمزاً لسكان المدينة ينقل دهشة العامة من ان السلطان يباع في المزاد العلني كما تباع الاشياء . ثم ننتقل الى مشهد البيع فنعرف وجهة نظر السلطان ومسلكه الفذ في هذا الموقف العصيب .

ولا يحيد الفصل الثالث عن هذه الخطة الفنية ، فهو يبدأ بالجمهور المستثار وقد تجمع حول منزل الغانية يتساءل في ريبة صارخة عما يفعله السلطان هناك . وحين يتأزم تطلعنا ينقلنا توفيق الحكيم الى داخل المنزل لنعرف ما يدور فيه . وهذا الاسلوب الذي استعمله المؤلف في عرض جانبين مختلفين للموضوع في كل فصل قد اتاح لنا المقارنة المستمرة بين مواقف الاشخاص المختلفين بازاء الاحداث وكشف عن نفسياتهم ومسالكهم .

وقد استعان توفيق الحكيم ببعض الوسائل المسرحية في بناء عمله الفني ومن ذلك اسلوب (التقابل والتضاد) (ما يسمى عند الانكليز Parallelism and Contrast) فكان آذان الفجر احد التفاصيل التي انتفع بها في شد اجزاء المسرحية وربطها واحداث نبرة من الفكاهة فيها . ففي أول المسرحية يتعلق بآذان الفجر قتل رجل قال الحق . وعندما يصبح الاذان موعدا لاراقة الدماء البريئة تتقدم الغانية وتتفق مع المؤذن على خدعة وذلك بالا يؤذن للفجر تلك الليلة فيبطل الحكم وينجو المحكوم عليه .

وفي الفصل الثالث كان أذان الفجر موعدا لخروج السلطان من منزل الغانية ، وقد تجمعوا حول المؤذن واوحوا اليه ان بقاء السلطان في هذا المنزل يلطخ شرفه ويسيء الى مكانته ثم الحوا عليه ان يؤذن للفجر في منتصف الليل . وأذن المؤذن راضخا . فهذا المؤذن قد أقام نوعا من الربط بين الفصل الاول والفصل الثالث . ووجه الارتباط المسرحي ان الغانية التي انتصرت على الجلاد في الفصل الاول بالتحكم في الآذان ، قد دحرها قاضي القضاة في الفصل الثالث بالتحكم في الآذان نفسه ، وبذلك انتهى حلمها الجميل وخرج السلطان من منزلها . ويحصل التضاد المسرحي Contrast من كون الآذان يخدم الغانية مرة ويدحرها مرة . اما مغزى التدخل في قضية جليلة لها قداستها مثل الآذان فسنقف عنده فيما بعد حين ندرس فلسفة المؤلف في مسرحيته .

كذلك لجأ توفيق الحكيم ، في بعض وسائله المسرحية ، الى احداث حادث صغير يؤدي معنى معينا ثم تكراره في حادث اكبر يؤدي المعنى نفسه وهو ما يسمى في النقد الغربي اصطلاحا بالتقابل Parallelism) ويتجلى ذلك الحادث الصغير في موقف الطفل الذي يريد ان تشتري له أمه ((السلطان)) . فان شراء السلطان بالنسبة للطفل مجرد نزوة طارئة وكان السلطان لعبة من اللعب المسلية . وقد اراد توفيق الحكيم بهذه اللمسة التمهيد لموقف الغانية التي كانت اول الامر تلهو كالطفل فارادت ان تشتري السلطان لتستمتع بصحبته وتزين به مجلسها (تلعب بكلمة اخرى) . فتكرار الدافع الطفولي في الحالتين يخلق جوا من الشبه بين الطفل والغانية . ولنقارن الدوافع. دار الحوار التالي بين الطفل وأمه :

الطفل ـ هل للسلطان سيف ؟
الأم ـ نعم ، سيف كبير .
الطفل ـ وهل سيبيعونه هنا ؟
الأم ـ نعم يا بني
الطفل ـ متى يا أماه ؟
الأم ـ عما قليل .
الطفل ـ أماه ، أشتريه لي .
الأم ـ ماذا ؟
الطفل ـ السلطان . اشتري لي السلطان .
الأم ـ اسكت . انه ليس لعبة تلعب بها .
الطفل ـ انك قلت انهم يبيعونه هنا . اشتريه لي اذن .
الأم ـ يا بني . اسكت . هذا ليس لمثلك .

فالطفل لا يريد ان يشتري السلطان الا لانه يحب ان يلعب به وبسيفه وقد حسبه لعبة من اللعب . والموقف هنا مجرد من أي جد وانما هو نزوة عابرة في قلب طفل صغير . ثم لندرس مضمون موقف الغانية من شراء السلطان . دار الحوار التالي :

الغانية ـ لا . لا اريد ان اتركك . لا اريد ان اتخلى عنك . انت مملوك لي . انت لي ، لي .
السلطان ـ لك ولغيرك من أبناء هذا الشعب .
الغانية ـ اني أريد ان تكون لي وحدي .
السلطان ـ وشعبي ؟
الغانية ـ شعبك لم يدفع فيك ذهبا ليحصل عليك .

وفي موضع آخر تقول له : ((حقا . وأي فخر وأي سرور ان اسمع هذا من فم سلطان عظيم . انه لشرف يستحق ان يدفع له ذهب الارض كله . ما من احد يجسر بعد اليوم على ازدرائي في المدينة فانا أسيء معاملة السلاطين .)) وفي موضع آخر تقول له ان عليه ان يحكم الشعب من بيتها اذ تعيره للدولة نهارا وتسترجعه ليلا . فهذه الفتاة كما يبدو من مسلكها الصبياني تحسب السلطان حلية لطيفة يمكن ان تقتنيها . وموقفها في ذلك يشبه موقف الطفل .

ومن الوسائل اللطيفة التي قوت بناء المسرحية تلك المفارقات التي نعثر عليها فيها . فالمحكوم عليه مثلا ينجو من القتل ويبيع هو نفسه السلطان ، بينما كان المقرر اولا ان يقتل بأمر السلطان .

والمفارقة الثانية تكمن في حقيقة الغانية ، فالمسرحية تبدأ ونحن نحسبها ((عاهرة)) ساقطة يسخر الجلاد من وصفها لنفسها بالسيدة ولا تنتهي المسرحية الا وقد ارتفعت الى أعلى مقام لأن السلطان نفسه يسميها السيدة الفاضلة النبيلة .

والمفارقة الثالثة يتضمنها موقف القاضي فهو في بداية المسرحية أعلى مثال للذين يحترمون القانون ويؤمنون بقدسيته ، ولكن تقدم الاحداث يعريه بين أيدينا ويوقفه نموذجا سيئا للتحايل على القانون والعبث به لاغراض غير قانونية فيها ظلم للناس . وهكذا ترتفع الغانية وينحدر القاضي . الغانية التي هي احط فرد في الدولة والقاضي الذي هو اعلى فرد فيها بعد السلطان ، وكأن تبادلا يقع بينهما في قوة الخلق ونظافة السلوك .

٢ ـ دراسة الشخصيات

١ ـ شخصية السلطان

رسم توفيق الحكيم في السلطان شخصية محبوبة تنزل من نفس القارىء منزلا جميلا فمنحه صفات طيبة كالعدل ورحابة الصدر والحكمة والشجاعة والذكاء وسرعة الخاطر واحترام القانون ورقة الشعور . وخلاصة القول انه جعله انسانا رقيق المشاعر مستقيما كريم الطباع واعطاه الى جانب ذلك الصبر وروح النكتة في المواقف الحرجة . وسنحاول فيما يلي ان نمثل لهذه الصفات فيه بنماذج من سلوكه واقواله تثبتها وتؤكدها .

اما عدالة السلطان فقد تجلت في سماعه لظلامة المحكوم عليه عندما تقدم يطلب ان يحاكم قبل اعدامه ، فقد لبى السلطان طلبه فورا وأقبل مع قاضي القضاة الى ساحة الاعدام حيث يحاكم . وعند هذا قد يوجه الى المؤلف نقد : فهل من المعقول ان سلطانا يحاكم متهما في ساحة عامة ؟ ولماذا لم يستدعه الى مجلس السلطنة لمحاكمته كما هو الدارج في هذه الحالات ؟ في الواقع ان توفيق الحكيم كان مضطرا

الى هذه « الغلطة » المسرحية اضطرارا لان التأليف المسرحي ـ كما هو معروف ـ يلزم المؤلف بالمحافظة على وحدة المكان في الفصل الواحد . والمحكوم عليه كان مشدوداً الى عمود في الشارع ، لكي يكون امام منزل الغانية ، ومن ثم فلا بد من ان يؤتى بالسلطان واتباعه الى هذا الموضع نفسه حفظا لوحدة المكان ورغبة في عدم تغيير المنظر . فكان هذا اخلالا بمعقولية الاحداث وتحريفا للواقع . ولعلنا لا نحتاج الى القول بان المسرحية الكاملة ، لا تخضع للضرورات الخارجية ، وانما حاكمها الوحيد منطق الفن . ولقد كان في امكان مؤلف قدير متمكن مثل توفيق الحكيم ان يتحاشى هذا التعسف لو بذل جهدا اضافيا في التخطيط لهذه المسرحية البديعة .

واما شجاعة السلطان فتبدو على ضربين : احدهما معنوي والآخر مادي . فالشجاعة المعنوية تبدو في صبر السلطان على تلك المواقف الحرجة المهينة التي تعرض لها ، فقد ووجه ـ وهو السلطان المهيب ـ بانه عبد رقيق لم يعتق ، فقابل ذلك في رحابة صدر واضحة ولم يغضب ولم ينفعل وانما تقبل الامر أجمل تقبل . ولو كان غيره في مكانه من ألقوة لربما شهر السيف غضبا .

وتبدو شجاعته الفعلية في ميدان القتال ، فقد سمعناه يصف مسلكه قائلا : « لم يحدث قط اني رجعت خطوة واحدة الى الوراء ولا حتى في ميدان القتال . اعترف ان هذا خطأ من الناحية الحربية فهناك احوال يتحتم فيها التقهقر . ولكني ما فعلت هذا قط . » ويقول في موضع آخر ذاكرا حروبه : « أنا الذي كان قائدا للجيوش وقاهرا للمغول » ولقد كان ينتصر في حروبه وقد انتزع بحد سيفه ياقوتة فريدة من رأس كبير المغول . والمسرحية كلها تصفه قائدا منتصرا مشغولا بالحروب والاعمال المجيدة حتى لا يجد وقتا للعواطف والزواج .

وحكمة السلطان يعترف بها الآخرون ومنهم المحكوم عليه الذي عرفناه صريحا جريئا الى حد انه قابل السلطان بحقيقة رقه وعبوديته دون ان يخاف العقاب ، ومن ثم فنحن نتقبل قوله له : « بل انت من خيرهم حكمة وسداداً ابقاك الله ذخرا لرعيتك » .

ونعرف في السلطان صفات أخرى نصت عليها الغانية في قولها له : « ما من شيء يصعقك . ان لك لرباطة جاش وثقة بالنفس وتحكما في اعمالك وقدرة على صنع ما تريد بدقة واحكام وحزم . انك بعيد عن الضعف والمخاتلة . انك صريح طبيعي شجاع تحترم شروط اللعب بامانة واخلاص . » ثم تضيف الى ذلك بعد قليل قائلة : « انك غاية في الذكاء والفطنة بل وفي رقة الشعور أيضا على الرغم مما يبدو عليك ومما تتظاهر به » • ونحن نقبل هذه الاحكام من الغانية ونعتبرها وصفا صادقا للسلطان ، لاننا عرفنا هذه الفتاة جريئة صريحة الى درجة انها سلمت السلطان « بضاعة » وطلبت تسليمها في بيتها. وقد اعترف السلطان نفسه بانها « تسيء معاملته » واعترفت هي قائلة : « كنت وقحة معك عن عمد ومتبذلة سليطة عن قصد . » فاذا اثنت عليه وامتدحته بعد ذلك امكن لنا ان نعد ذلك منها تشخيصا صادقا لصفات حقة فيه .

ومن مظاهر الذكاء وسرعة الخاطر في السلطان انه أدرك مراد قاضي القضاة سريعا عندما لخص له موقف الاختيار الضروري بين احتمالين فقال له : « فما عليك يا مولاي سوى الاختيار بين السيف الذي يفرضك ولكنه يعرضك وبين القانون الذي يتحداك ولكنه يحميك . » وقد ادرك السلطان فورا ان هذه العبارة هي الجوهر الاساس في حديث القاضي فراح يقلبها في ذهنه ويكررها . ونحن نلتفت الى هذا الادراك ونبرزه ونلح عليه ، بسبب ما نعرف من ان اغلب الناس ـ دائما ـ يضيعون في تفاصيل الاحاديث ولا يستطيعون النفاذ الى جوهرها . ولا يمكن لانسان ان يشخص الاسس الا اذا امتلك العقل الناضج ووضوح الفكر وقوة الشخصية . وهذا السلطان الفذ يملك هذه القدرة . وانما نقدر موقفه في هذا الموضع عندما نتذكر انه في اول المشهد اندفع الى فكرة القتل حلا للمشكلة منقادا لحماسة الوزير في هذا الاتجاه . فما كاد قاضي القضاة يبين له تفاصيل الحالتين ونتائجهما حتى تحسس موضع الاشكال والحيرة وتفهم المسألة تفهما ذكيا ووقف من ثم حائرا . ولو كان في مكانه انسان آخر اقل ذكاء وحساسية لما استطاعت عبارة واحدة من قاضي القضاة ان تحول مجرى تفكيره هذا التحويل الخطير .

ونصل عند هذا الى موقف السلطان من القانون واحترامه العميق له وتمسكه به تمسكا مطلقا بعد ان شرح له القاضي وجهي المسألة . فما كاد السلطان يفهم حتى صاح « القانون ... اخترت القانون » وكان هذا الاختيار دلالة على قوة اكيدة في شخصية السلطان لاننا حين نتأمل مضمون هذا القانون نجده ينطوي على اهانة بالغة للسلطان وهل هو الا أن يباع هذا الحاكم الجليل بالمزاد العلني امام شعبه كما تباع الاشياء ؟ ومن ثم فان اختياره ينطوي على معاني الصبر والبطولة والتضحية والا فما كان أسهل ان يحمل سيفه ويقتل القاضي فلا يحاسبه أحد ، كما صنع المعز لدين الله الفاطمي الذي قص الوزير قصته .

اما الممانعة الاولى الفورية التي لمسناها لدى السلطان فهي لا تدل الا على انه أخذ وفوجيء ودهش عندما سمع أول مرة انه (في نظر الشرع والقانون عبد رقيق . والعبد الرقيق يعتبر قانونا وشرعا شيئا من الاشياء ومتاعا من الامتعة) وان عليه ان يحتمل البيع بالمزاد العلني امام الشعب . واي سلطان لا يذهل ويخرج عن أطواره حين يسمع مثل هذا ؟ فاذا رأيناه يندفع بلا تفكير ويخطر له اختيار السيف للتخلص من هذه الازمة العويصة فان ذلك يشخص انفعالته الاولى ازاء ما يسمع . اما عندما فكر وتدبر وتأمل فانه لم يختر الا القانون راضيا لنفسه الاهانة الكبرى وهي البيع العلني امام الجمهور . فلا ينبغي للناقد ان يحكم بأن السلطان دموي المزاج وانما هو على العكس من ذلك متسامح صبور وقد رأينا من سماحته وصبره بازاء وقاحة الغانية وسوء معاملتها ما رفع مكانته في أعيننا درجات . ولقد رأيناه يسلك بازائها مسلك العقل فلا يلجأ الى السيف كما ينصح الوزير وانما يختار الصبر واللين والتعقل ثانية فيدور هذا الحوار الجميل :

الوزير ـ يا مولاي ، ما دام القاضي قد أخفق وأفلس فلنرجع الى وسائلنا نحن .

السلطان ـ لا لن نرجع الى الوراء .

الوزير ـ بالسيف يتم كل شيء في يسر ويحل في طرفة عين .

السلطان ـ لا ، لقد اخترت القانون ، وسأمضي في هذا الطريق مهما يصادفني فيه من أوحال .

الوزير ـ القانون ؟

السلطان ـ نعم . ولقد قلتها أنت منذ قليل ونطقت بالفاظ جميلة.

ان السلطان اختار ان يخضع للقانون كما يخضع له أضعف فرد في رعيته • ان هذا القول الرائع يستحق ان يبذل في تحقيقه كل جهد .

ويلتجيء السلطان الى محاولة اقناع الغانية بلين الكلام وقوة المنطق وبذلك يدل على تسامحه وصبره ثانية ، وذلك هو الذي يؤثر في نفسية الغانية فتعجب من رحابة صدره ورقة شعوره وسماحته وتكون النتيجة ان تتراجع عن موقفها المتعسف . وتكون الفلسفة الجديدة التي تلخص موقف السلطان من هذه الاحداث جميعا قوله : « ان الذي يمضي قدما الى الامام في خط مستقيم يجد دائما مخرجا . » ويضيف الى ذلك في موضع آخر : « الانتصار الحق هو في حل العقدة بلباقة الاصابع » اي في عدم استعمال السيف . وقد مضى في هذا الى درجة انه قرر ان يتنزل عن عرشه ان أخفق في حل المشكل عن طريق القانون. وقد شرح ذلك للغانية واخبرها أنه مصر عليه ، فتفجرت بالاعجاب به والثناء عليه كما سبق ان ذكرنا .

وتكمن المفارقة الواضحة في موقف قاضي القضاة الذي كان حاميا للقانون متمسكا به كل التمسك في الفصل الاول ، فاذا هو في الفصل الثالث يستهين به ويخرج عليه ليذل الغانية ويخيب املها . اما السلطان فقد انقلب موقفه من ذلك الذي حاول التهرب من القانون في الفصل الاول الى هذا الذي تفجر يعاتب القاضي في الفصل الثالث على عبثه بتفسير القانون من أجل رغباته الشخصية وعندها نسمع كلمات السلطان تنزل في حرارة وانفعال : « خيبت ظني فيك يا قاضي

القضاة . اهذا هو القانون في رأيك ؟ اجتهـاد وبراعة فـي التحايل والتلاعب ؟ »

وكان السلطان في هذا انسانا رقيق الشعور فقد عز عليه ان تدفع الفتاة كل أموالها ثمنا لليلة واحدة يقضيها السلطان في منزلها ، ومـع ذلك يحتال عليها قاضي القضاة ليخرج السلطان فـي نصف الليل .؟ وكان السلطان قد قدر موقف الفتاة كله واجل تضحيتهـا فرأى من حقها عليه ان يكافئها بتحقيق رغبتها الصبيانية فـي ان ترى السلطان فـي منزلها . ولذلك وجد في موقف القاضي الذي حرمها هـذه الفرصة بظلمه ، اساءة لا تغتفر وعبثا بنصوص قانون صريح .

على ان المشاهد والقارىء لا يملكـان الا ان يتساءلا هنـا كمـا تساءلنا : هل أحب السلطان الفتاة فكان ذلك دافعا الى رغبته في اتمام الليلة في منزلها ام انه أراد بذلك مجرد الدفاع عن رغبة الفتاة نفسها ؟ وسواء اكان الامر هذا أم ذاك ، فلا ينبغي لنا ان نجرد السلطان مـن حرصه على تطبيق القانـون حتى ونحن نفهم انه قد مال بقلبه الى الفتاة، لانه اثبت هذا الحرص على القانون في مواقف متعددة قبل ذلك . ولان منطق النفس الانسانية منطق معقد تتشابك فيه العوامل والدوافع فـي اغلب الاحيان ، وتتمثل هذه القاعدة عند ذوي الضمائر الحية والمثـل السامية على الخصوص لان دوافعهم الخلقية النبيلة كثيرا مـا ترتبط بدوافع عاطفية غزيرة تمليها عليهم سعـة آفاقهم واحتشاد مواردهم . وهذا يجعل مسلكهم ازاء القضية الواحدة غنيـا بالدوافع الكثيـرة والاعتبارات .

٢ ــ شخصية الغانية

يقوم السؤال في نفس القارىء والمشاهد حـول هـذه الفتاة : أشريفة هي أم ساقطة ؟ اما نص المسرحية فهو يبرزها فاجرة في نظـر المجتمع ، لان الرجال يزورونها ويسمرون في منزلها وينعمون بالموسيقى وبالشراب والرقص . ولكن توفيق الحكيم قد حرص على اظهار الظلـم والاعتداء في هذه النظرة ، لان الفتاة في حديثها الـى السلطان تكشف عن حقائق تغير الموقف فتعلم أنها امرأة حرة التفكير تريـد للمرأة ان تخرج من ضيق الافق وتزمت القيود ، فتجالس الرجال مجالسة عاقلة بريئة فيها الفن والثقافة والسمر دون ان تكون لها علاقات آثمة بهم . وقد سمعنا الغانية تقول للسلطان في هذا الصدد « تحلو لـي صحبة الرجال من اجل أرواحهم لا من اجل اجسادهم » . وقد كـان السلطان في بداية حديثه اليها لا يحترمها وانما يسميها « أيتها المرأة » وهي تسمية مهينة فيها اشعار بانها غير شريفة . ولكنه بعـد ان جالسهـا وعرف تفاصيل حياتها وتفكيرها أصبح يحترمها بأن يوحي الينا بأنها رغم مظان العبث في حياتها سيدة شريفة اخطأ المجتمع فهمهـا بسبب الملابسات الخارجية . وفي هذه الحالة يصبح حكم المجتمع عليها بالفجور حكمـا على المجتمع نفسه بالجهل والجمود والسطحية بحيث تبـدو الشريفة عاهرة . والواقع أن توفيق الحكيم لا بد وان يكون قصد هذا واراد ان يوجه نقدا صامتا الى مجتمع العصور العربية المتأخرة الذي عزل المرأة عن الحياة ومنعها من العمل والاختلاط والحركة خلافا لمـا كانت عليه نساء العصر الاول للاسلام حين كانت المرأة تركب الخيل وتطلب العلم وتشارك في الحروب وتجالس الرجال في المجالس الادبية ، ولدينا في هذا الصدد اسماء نساء عربيات لامعات مثـل السيـدة سكينة بنت الحسين والخنساء الشاعرة وليلى بنت طريف الشاري وسواهن . ولم يصبح عزل المرأة عرفا اجتماعيا دارجا إلا في عصور الكوارث والظـلام الاخيرة حين خيم الجهل والجمود على المجتمع العربي. وكل ذلك قد جعل توفيق الحكيم يصنع نموذجا متحررا لامرأة عربية تثـور علـى التقاليد البالية في ذلك العصر فتكـون النتيجـة ان يسميها الناس « عاهرة » .

ولا بد لنا أن نلاحظ ان هذا الاسم القارص الذي أطلقه الناس على الغانية قد أثر في حياتها وجعلها أحيانـا تتحلل مـن مبادىء السلوك المستقيم ولو تحللا جزئيا . فقد كانت تتألم أشد التألم من ان المجتمع يعتبرها ساقطة ، مثال ذلك هذا الحوار الذي دار بينها وبين السلطان في الساحة العامة خلال المزاد العلني :

السلطان ــ أترين هذا الوضع مقبولا ؟
الغانية ــ اكثر من مقبول . أراه مدهشا .
السلطان ــ هو مدهش فعلا . سلطان يصرف شؤون الدولة مـن بيت امرأة يقال انها ... لا تؤاخذيني . معذرة .
الغانية ــ قل قل . الكلمة لم تعد تجرحني لكثرة ما تلقيت مـن وخزات . تكسرت النصال على النصال .

ومن هذا الحوار نعلم أن الغانية قد عانت معاناة طويلة دامية مـن سماعها لفظة « عاهرة » يطلقها الناس عليها . ثـم بدأت تتقبل الاسم وتسكت . ولكن هذا الاسم دفعهـا الى الجرأة والسلاطة وعدم الاكتراث بقواعد السلوك ولو الى حد ما . ويتجلى ذلك في موقفها من الجـلاد في الفصل الاول . فقد ارسلت اليه خادمتهـا لتضربه بالفعل . وهذا موقف لا تقفه سيدة شريفة ، فالشريفات لا يضربن الرجال بالنعال مهمـا تكن الاسباب الدافعة الى ذلك . ثم انها تشتري للجلاد خمرا وتسقيه ، ومع انها تفعل ذلك انقاذا للمحكوم عليه بالاعدام الا أنه يترك في نفوسنا تساؤلا عن الطبقة التي تنتمي اليها هذه المرأة التي يسقى الناس الخمر على حسابها .

ومهما يكن فان الغانية تفلسف موقفها هذا للسلطان قائلة : « ظن بي السوء ما شئت ، ليس من عادتي الدفاع عـن نفسي ضد ظنـون الآخرين . اني في أعين الناس امرأة سيئة السيرة وقد انتهى الامر بي الى قبول هذا الحكم وقد وجدت في ذلك الراحة لي . ولـم يعد مـن مصلحتي تصحيح رأي الناس . » ثـم نضيف العبارة التـي تلخص فلسفتها وهي قولها : « عندما يجتاز الانسان أقصى حدود السوء فانه يصبح حرا . وانا احتاج الى حريتي . » ومضمون هـذه الفلسفة ان الانسان يقيد نفسه بقواعد عسيرة التطبيق من السلوك طلبـا لسعادة الشعور بحسن السمعة بين الناس ، فاذا اتهمه هؤلاء الناس لم يعد له ما يحرص عليه بينهم ، وهذا مرير مؤلم غير ان له جانبا مبهجا ــ على رأي هذه الغانية ــ هو ان المتهم يكتسب حريته فلا يعود يهمه ان يتقيد بالقواعد المتعارف عليها . والغانية تسمي نبذ القواعد الخلقية حريـة وتقول انها تحتاج الى هذه الحرية . ولذلك نراها تستخدم في منزلها خادمة سليطة لا تبالي ان تضرب رجلا سكران بالفعل ، وهـذا المسلك وغيره يبرر عند الناس تسميتهم لها بالعاهرة . امـا السلطان فهـو لا يعرفه عندما يسميها « السيدة الفاضلة » فكل حكمه عليها مرتكز الى أقوالها .

وخلاصة القول أنه اذا كان توفيق الحكيم يقصد ان نعتبر الغانية امرأة شريفة فقد كان عليه ان ينقي حياتها من هذه المآخذ . ذلـك ان المرأة الفاضلة ترفض ان تتحرر من قواعـد السلوك حتـى اذا سماها المجتمع عاهرة . لان في الاخلاق الفاضلة لذة للفاضل لا تزول حتى اذا فقد سمعة الفضيلة . والخلق النقي صفة راسخة فـي قلب المتخلق لا تزعزعها التسميات . وانما يبدو لنا ان هذه الفتاة غانية كما سماها توفيق الحكيم لها بعض صفات الشريفات ولكن على سلوكها مآخذ . ومن ثم فيكون السلطان قد تجـوز عندما سماها بالسيدة الفاضلة ورفـع مستواها من طبقة الى طبقة أعلى وأرفع . وهذا قد يستتلي أن السلطان قد أحبها ووقف منهـا موقفا عاطفيا محضا جعله يندفع الى رفع مستواها الاجتماعي .

ولكن موقف السلطان من الغانية لم يكن كله نابعا من العاطفة وانما استند جانب منه الى التقدير الانساني لما صدر عنها مـن نبل وكـرم أخلاق ، فقد وقفت من السلطان موقفا نبيلا يستحق الاعجاب . ذلـك انها اشترته بكل ما ادخرته خلال حياتها من أموال وهو مبلغ ثلاثين ألف دينار نعلم من حديث (المجهول) موكلها انها لا تملك غيره . ولـم يكن دافعها في بداية هذا الموقف نبيلا ، فنحن ندري انها اشترت السلطان لا لتعتقه ولا لتحرره ولا لتهبه للشعب حاكما عادلا شجاعا وانما كـان دافعها الاول تعبيرا عن نزوة صبيانية طارئة فقـد اعجبها ان يكـون السلطان مملوكا لها لتمرح معه وتلهو وتستمتع ، وراق لهـا ان تراه يحكم الشعب من بيتها فترتفع قيمتها وتزول الوصمة عـن سمعتها . فكانت دوافعها الى الشراء انانية محضة . او لعلها أرادت ان تنتقم من

المجتمع الذي أذلها بأن تذل سلطانه الحاكم وتجعله عبدا رقيقا لها .

غير ان هذه الدوافع الاولى ما لبثت ان تلاشت عندما أفهمت الغانية حقيقة موقفها ونتائجه . ومؤدى ذلك ان على السلطان اما ان يكون عبدا في منزلها ويتخلى عن العرش او ان تعتقه ويكون سلطانا وعند هذا تقول الغانية « انه لمؤلم ان اتركك تذهب ، ان افقدك الى الابد ، ولكنه مؤلم أيضا ان أراك تفقد عرشك ، لان بلادنا لن يتاح لها ابدا سلطان في مثل عدلك وشجاعتك . لا . لا تترك الحكم ولا تعتزل العرش . أريد ان تبقى سلطانا . » ومن ثم فانها قد اختارت بين الامرين العسيرين : « العبودية التي نمنحه لها والحرية التي تحفظه لعرشه وشعبه . » وهذا الاختيار هو موضع النبل في موقفها فقد حرصت على مصلحة الشعب وتنحت عن امتلاكها للسلطان وبذلك خسرت مالها وفرصة السعادة في حياتها معا . ورجعت امراة فقيرة سيئة السمعة في سبيل حرية الشعب ورفاهيته . فهل من تضحية اكبر من هذه ؟

وقد يقال في مناقشة تضحيتها ، انها كانت مضطرة اليها ، لانها خشيت ان يقتلها السلطان ان لم تعتقه كما هدد الوزير . غير ان توفيق الحكيم لم يجعل هذا دافعا للغانية مطلقا ولم يجعله يدور في خلدها • وقد سمعنا السلطان نفسه يؤكد اختياره للقانون واصراره على المضي في تنفيذه الى النهاية دونما لجوء الى السيف . فالغانية آمنة من هذه الناحية فضلا عن ان الخوف لم يتسرب الى نفسها قط ، فحتى لو كان احتمال القتل قائما فان الغانية لم تفكر في هذا الاحتمال ولم تحكمه في موقفها وانما كان مسلكها حرا حرية خالصة دوافعه وطنية غيرية لا أنانية فيها . وتزيد الغانية نبلا كلما تقدمت الاحداث ، وتثبت كرما خلقيا نادر المثيل . فعندما يؤذن المؤذن في منتصف الليل ويخرج السلطان ويوجه اللوم الى القاضي قائلا : « وأنت يا قاضي القضاة ، ألا تخجل من اللعب هكذا بالقانون ؟ » اذ ذاك رفضت الغانية ان تكون انانية وأن تتقبل حرص السلطان على اكمال الليلة معها حتى الفجر قائلا : « اما أنا فساحترم شرط هذه السيدة بمعناه الحقيقي الذي فهمناه كلنا . هلمي يا سيدتي . لنعد معا الى بيتك . اني طوع أمرك . » عند هذا تقول الغانية : « لا يا مولاي السلطان ، ان قاضي قضاتك أراد أن ينقذك ، واني لا أحب ان اكون أقل منه اخلاصا لك . انت الآن حر يا مولاي . » وبادرت الغانية الى توقيع حجة العتق وقد اختارت بذلك أن تخسر حتى الليلة المنفردة التي اشترتها بمالها كله . وهي بهذا قد رفضت ان تستغل نبل السلطان وحرصه على تنفيذ شرطها فاعطته حريته كاملة دون ان تجبره على شيء .

ثم ماذا ؟ عند هذا يقول السلطان : « فلنتقدم بالثناء على كرم هذه السيدة النبيلة . اسمحي لي يا سيدتي ان اوجه لك شكري وأن ارجو منك ان تقبلي رد مالك اليك . » واذ ذاك تندفع الغانية متوسلة: « لا لا يا مولاي السلطان • لا تسترد مني هذا الشرف . ما من ثروة في الارض تعدل عندي هذه الذكرى الجميلة التي سأعيش عليها طيلة حياتي ، اني بشيء زهيد أسهمت في حدث من أعظم الاحداث . » وترفض حتى ان يهديها السلطان الياقوتة الفريدة المخيطة في عمامته ، لانها لا ترى نفسها جديرة بها .

ومغزى هذا الرفض من الغانية عميق ، فهي ترفض المال وترفض الهدية لانها تقيم عواطفها نحو السلطان تقييما معنويا خالصا يجعل المال والياقوت يبدو تافها بازائه . ولذلك ترفض التعويض المادي رفضا قاطعا . ولكننا نعلم انها تطلب قلب السلطان في مقابل حبها وتضحيتها ، فلو قبلت المال لخسرت هذه الفرصة وأصبح مضمون تضحيتها ضائعا . وانما تريد ما هو فوق المال . تريد سعادة الفكر والروح في تقدير السلطان لها . وليس في آخر المسرحية ما ينفي احتمال حصولها على هذه المكانة في قلب من أحبت ، فالسلطان فيما يلوح قد بادلها احساسها المبهور الى درجة انه قال لها : « لن أنسى أبدا أني كنت عبدك ليلة . » وهي عبارة كبيرة المغزى تتأثر لها الفتاة حتى تبكي ولكنها تحرص على اخفاء دموعها . ومما يؤيد احتمال استجابة السلطان لمشاعرها انها سألته قائلة : « اهذه الليلة هي ليلتنا الاخيرة معا ؟ » فاجابها : « هذا سؤال عسير الجواب . » ومعنى عدم قدرته على الاجابة انه يميل اليها ويتأثر بشخصيتها القوية بحيث لا يستطيع ان يقول لها : « نعم . لن أراك ثانية . » وانما يحار ويتردد ويتوقف . وفيما بعد أصدر أمرا الى الناس بأن يحترموا هذه السيدة ويكفوا عن الاساءة اليها بالتسميات الجارحة • فكل هذا قد يوحي بانه مال اليها ، وقد يعني انه سيتزوج بها في المرحلة التالية حين تعدل سيرتها وترتفع في أعين الناس . ولكن توفيق الحكيم اعطانا مجرد لمحات حول هذا الموضوع ولم يقطع بشيء . وانما ترك الامر معلقا على تقديراتنا واستنتاجاتنا . ومهما يكن فان القارىء ينتهي من القراءة آسفا على انه لم ير السلطان يتزوج فعلا بالفتاة .

٣ ـ شخصية قاضي القضاة

تبدو شخصية القاضي متناقضة الى حد ملحوظ لا بد للناقد من ان يأخذه على الاستاذ توفيق ، فان في النفس تساؤلا فنيا عن التفكك الملحوظ في هذه الشخصية . ذلك اننا نلاحظ له عبر احداث المسرحية موقفين متناقضين متعارضين تمام التعارض لا تفسرهما شخصيته ولا ظروفه . والموقف الاول كان صلبا كل الصلابة ، راسخا كل الرسوخ، وفيه فضل القاضي ان يقتل على ان يخون القانون . فما كادت قضية عبودية السلطان تعرض حتى اعلن القاضي أنه لا يملك وثائق بعتق السلطان ، وعندما اقترح الوزير استعمال الكذب باشاعة زعم بين الناس مؤداه ان السلطان قد سبق عتقه ، توقف القاضي ورفض ذلك في اسلوب جريء لا ينساه المشاهد ، فقد دار الحوار التالي :

الوزير ـ يكفي ان نعلن على الملأ ان مولانا السلطان قد اعتق عتقا شرعيا ، اعتقه السلطان الراحل قبل وفاته ، وان الوثائق والحجج مسجلة ومحفوظة لدى قاضي القضاة، والموت لمن يجرؤ على تكذيب ذلك.

القاضي ـ هناك شخص سوف يكذب ذلك .

الوزير ـ من هو ؟

القاضي ـ أنا .

السلطان ـ انت ؟

القاضي ـ نعم . أنا يا مولاي . اني لا أستطيع ان اشترك في هذه المؤامرة .

الوزير ـ انها ليست مؤامرة • انها خطة لانقاذ الموقف .

القاضي ـ انها مؤامرة ضد القانون الذي أمثله .

وعندما يقترح السلطان ان يتنحى القاضي ويسكت ويتركه هو والوزير يتصرفان يعلن القاضي انه سيحكم ببطلان كل تصرفات السلطان ولا يقترح بديلا لذلك الا احد ثلاثة اما عزله ـ اي القاضي ـ عن منصبه ، او طرده من البلاد ، او قطع رأسه . والا فهو لن يسكت .

وأين هذا الموقف الصلب المتمسك بالحق الذي يحترم القانون احتراما مطلقا ، من الموقف المائع الذي اتخذه القاضي في الفصل الثالث حين رأى السلطان في بيت الغانية لا يخرج الا اذا أذن لصلاة الفجر ، فداس القانون والدين معا وجعل المؤذن يؤذن للفجر في نصف الليل ، وفي هذا ما فيه من ظلم لامراة اشترطت ان تتخلى عن أموالها كلها وتعتق السلطان مقابل ليلة واحدة يقضيها في منزلها . فباي حق تسلب هذه المراة حقها ، وشرطها قد قبل وأقره القاضي نفسه ؟ أين هذا الموقف المزري من ذاك الموقف الاول ؟

معنى هذا كله ان توفيق الحكيم قد زعزع شخصية القاضي وادخل التناقض عليها ، ولسنا ندري لماذا فعل هذا والبناء الفني للمسرحية لا يبرره ، حتى مع ملاحظتنا لكون حل العقدة يتوقف على ان تحرم الغانية تنفيذ شرطها فيخرج السلطان من بيتها قبل الفجر ، لان المؤلف كان يستطيع ان يجعل مثل هذا التلاعب بالقانون يتم بامر الوزير بدلا من القاضي . ولعل لاديبنا المبدع الاستاذ توفيق تعليلا يجيب عن سؤالنا ؟

يضاف الى ذلك ، المأخذ الواضح على سلوك القاضي في الفصل الثاني ، فانه باع السلطان بالمزاد العلني تنفيذا للقانون فكان ينبغي له ان يتمسك بصيغة شرعية لهذا البيع ، بدلا من ان يجعله بيعا «خاصا» مشروطا بالعتق . ولم يسمع قط أن بيت المال يبيع ملكا بالمزاد ويشترط التخلي عنه فورا . فما معنى ان يشتري الانسان شيئا ثم لا يستطيع ان يملكه ؟ ولو كان ذلك التخلي عن البضاعة المشتراة اختياريا مراعـاة لدوافع وطنية يستثيرها القاضي في نفس المشتري لصح الامر ، أما ان يجبر المشتري على العتق فورا فهو أمر مخالف لقوانين البيع والشراء وما كان ينبغي ان يصدر عن قاض رأينا منه التمسك بالقانـون تمسكا متشددا بحيث فضل الموت على مخالفة الشرع . فهذا المأخذ لا يقل عن سابقه جورا وعسفا وهو مناقض حق المناقضة لشخصية قاضي القضاة في الفصل الاول .

وان القارىء ليتساءل معنا : اذا كـان القاضي يستسهل اللعب بالقانون فلماذا عرض السلطان للهوان بطرحه في المزاد العلني امـام أعين الشعب ؟ وقد يمكن ان يبرر ذلك بان القاضي كان مفرضا هدفـه اذلال السلطان من وراء ستار الحرص على القانون . لـولا ان اخلاص القاضي للسلطان ملحوظ عبر احداث المسرحيـة بحيث لا نستطيع ان نشك فيه ، ومن ثم فلا يبقى الا التناقض قائما . وهذا مأخذ اكيد على هذه الشخصية في مسرحية توفيق الحكيم .

٤ ــ شخصية الوزير

يمكن لنا ان نصور هذا الوزير في اسطر قليلة تغني ، فهو رجل دموي الطباع شرس يسرع الى استعمال السيف ، والقتل عنده أسهـل الحلول . ولذلك رأيناه يحكم على النخاس بالموت دونما محاكمة قطعـا للالسنة • وعندما رفض الموكل المجهول توقيع حجة العتق لـم يتمهل الوزير وانما أسرع يقترح تعذيبه ، وكذلك اقترح قتل الغانيـة وقال : « بالسيف يتم كل شيء في يسر ويحل في طرفة عين . »

والوزير بميله الى القتل والعنف ، لا يتورع عـن ايجاد المبررات لمسلكه ، مثال ذلك انه عندما خشي الا تعتق الغانية السلطان عند الفجر اقترح اتهامها بانها جاسوسة للمغول ليستطيع قطع رأسها فورا . فهو لا يتحرج من الكذب والظلم ومبدأه ــ على طريقة مكيا فللي ــ ان الغاية تبرر الواسطة . ومثل هذا الموقف لدى بعض رجـال السياسة ، يرتبط في رأيي بغباء متاصل في أنفسهم ، وعجز عـن رؤية المسالك المتعددة التي يمكـن ان يحل بها كل مشكل دون اساءة الى بريء ،او ظلم لمعترض صادق له الحق في اعتراضه .

والى جانب هذا العنف والغباء نجد الوزيـر مخلصا للسلطـان يستعمل كل وسيلة ممكنة في خدمته . ولا ينم هذا عن طيبة النفس في رأينا وانما ينبع من قوة شخصية السلطان واسرها للقلوب . فان للخير اشعاعا وجذبا . ولعل حب الوزير للسلطان قد وهبه شيئا مـن الذكاء الخاطف أحيانا ، لان حب الخير يوسع النفس الانسانية ويلهمها ويفتـح لها ابواب الادراك . وهكذا نستطيع تبرير الموقف الحكيم الذي وقفـه الوزير حين نصح للسلطان بالا يقتل قاضي القضاة قائلا : « لا تصنع من هذا الرجل شهيدا » ثم اضاف يقول : « رب شهيد مجيد له مـن التاثير والنفوذ في ضمير الشعوب ما ليس لملك جبار . » فهذا مـن امثلة التعقل في حياة وزير دموي يتصف بالغباء .

٣ ــ فلسفة المؤلف

تختبىء في ثنايا مسرحية السلطان الحائر طائفة من الاراء التـي يؤمن بها توفيق الحكيم بحيث يستطيع القارىء استخلاصها . وابـرز هذه الآراء ما حرص المؤلف نفسه على النص عليه فـي مقدمة المسرحية وهو الحكم بأن حل مشكلات العالم والحيـاة لا ينبغي ان يكون فـي اللجوء الى القوة والعنف (السيف) وانما القانون هو الحل ، فـاذا مضينا في اتباعه نجونا . وقد لخص السلطان هذه الفلسفة بقولـه : « ان الذي يمضي قدما الى الامام في خط مستقيم يجد دائما مخرجا . »

ومذهب توفيق الحكيم في هذا ان القنابل الذرية لا تحل مشاكل العالم وانما الحل في الصبر والتعقل واتباع القانون واقامة الحق والعدل، وهو رأي حكيم فيه نبل وسمو ، فضلا عن ان الواقع يثبته •

ولكن توفيق الحكيم يشير الى ان اتباع هذا الرأي ليس سهـلا وانما الطريق كله شوك وابر ، فلقد أرانا هذا السلطان يحتمل الهوان فيباع بالمزاد العلني ويضطر الى قضاء ليلة في منزل امـرأة مشبوهة ملوثة السمعة . على ان الامر كله ينتهي الى الخير ، فاذا نبل السلطان يؤدي الى ارتفاع نفسيات الاشخاص المحيطين به ، فتتحول الغانية مـن تلك الفتاة الانانية التي تصرخ « مالي .. مالي ! » الى اخرى نبيلـة ترفض ان تعطى ثمنا لفضلها وكرمها وتأبـى الا ان تتمسك بالذكـرى الجميلة ، ذكرى المساهمة في عمل وطني نبيل .

✶ ✶ ✶

ولقد كانت شخصية هذه الغانية صورة من فلسفة توفيق الحكيم حول المرأة ، فان هذا الكاتب الذي اعلن نفسه حينا عدوا للمرأة انما يصدر في ضيقه بمسلكها عن نظرة مثالية اليها ، فهو يريد المرأة قويـة الشخصية تؤدي اعمالا بطولية خارقة لا يقدر عليها انسان . ومن امثلة هذا في مسرحه تمثيلية « الخروج من الجنة » وفيها شخصية السيدة (عنان) زوجة مختار . وقد اكتشفت بعد زواجها انهـا تحب زوجها وتعجب به أشد الاعجاب ، فضنت بحبها ان يبتذل بالفة الزواج ورتابة حياته اليومية ، وأرادت ان تبقيه حبا روحيا خالصا فطلبت الطلاق من زوجها ، وابتعدت عنه مختارة لتصون جوهر حبها وترفعه عـن الابتذال والتلوث . وهذا موقف عسير على القلب الانساني ، ربما لم يطقه بشر، ولذلك كتب الاستاذ توفيق على مسرحيته تلـك ان شخصية (عنان) مصنوعة من الخيال فلا وجود لها الا في ذهن مؤلفها . والواقع انهـا ضحت بقلبها وحبها في سبيل فكرة مثالية عالية لا يطاق الوصول اليها. والشخصية كلها صورة من رغبة توفيق الحكيم في ان يرى المرأة شامخة قوية ذات مثل راسخة بحيث تتحدى الجبال ، فاذا قصرت عـن ذلـك اعلن نفسه عدوا لها .

وغانية « السلطان الحائر » لا تخلو من ملامح المثالية التـي يبحث عنها توفيق الحكيم لانها تتحدى المجتمع تحديا سافرا جريئا لا تخشى فيه حتى ان توصم بانها « عاهرة » . وابرز ما يميز هذه الغانية انهـا شريفة غير ملوثة تخالط الرجال حبا لارواحهم مترفعة بنفسها عـن الاتصالات المدنسة ، باحثة عن الثقافة والفن والمتعة البريئـة . وليس يخفى ان هذه الغانية قد عاشت في عصر كان المجتمع فيه يعزل المرأة عن الحياة ويحيلها الى السلبية والهوان . ولقـد أرادت الغانية ان تخرج من هذا الاطار الضيق ففتحت باب بيتها ورفعت صلة المرأة بالرجل من علاقة المادية الحيوانية الى علاقة الفكر والروح ، ودفعت ثمن ذلك من سمعتها فكان هذا هو موضع الجرأة والتحدي • وفي موقف الغانية نوع من الاستشهاد الروحي والفكري ، فهي تضحي بنفسها فـي سبيل فكرة . تريد ان ترفع المرأة وتطهر علاقتها بالرجل من ربقة المادية الجسدية وتوصلها الى رتبة الصداقة الفكرية والروحية . وكل هـذه القيم متضمنة في موقف الغانية وان لم تصرح بها او تشخصها تماما .

ثم ان شخصية الغانية قد ذكرتني بشخصية (شهرزاد) لتوفيق الحكيم في مسرحيته المعروفة . فان بين الشخصيتين تشابها عامـا . وما الذي تمثله شهرزاد بالمعنى الفكري ؟ انها تتصف قبل كل شيء بقوة الشخصية بحيث تتحدى الخطر فتقدم باختيارها علـى مجابهة ملـك دموي موتور يقتل امرأة كل ليلة . وعندما ينهاها ابوها ــ الذي يمثل المجتمع ــ عن ذلك تطمئنه وتصر على موقفها الجريء . والجوهر فـي مسلكها هذا انها تقدم نفسها ضحية في سبيل انقاذ المئات من النساء ، وهي اذ تفعل هذا انما تقامر بحياتها مقامرة لا يعلـم نتائجها الا اللـه ، فاما ان تثبت اصالة ذهنها وقوة شخصيتها فتأسر روح الملك وبذلـك تنجو ، او ان يظهر عجزها وضعفها فتقتل كما قتلت قبلها مئات مـن الفتيات . ولكن شهرزاد اذ تقدم تشعر انها قادرة على النجاح وأن النصر

الفكري والروحي سيكون لها . ولذلك كانت المرأة الوحيدة التي تقدمت الى الملك طائعة غير مجبرة ، وسرعان ما انتصرت انتصاراً باهراً ، فلم يكتف الملك باعفائها من القتل وانما بات أسير حبها وارتفع على يديها الى مرتبة الفيلسوف . وهذه هي اللمسة المثالية التي اجتذبت توفيق الحكيم الى حكاية شهرزاد ، فهو يجد فيها صورة من المرأة النموذجية التي يحلم بها . المرأة التي تضحي بنفسها من أجل القيم العليا ، وتلهم الرجل وتفتح له أبواب الفكر والروح على مصاريعها .

وهذه الغانية ؟ ألم تضح بنفسها من اجل القيم الاجتماعية ؟ اما كان مجتمعها مهددا بأن يفقد ملكه الشجاع العادل العظيم ؟ اما تطوعت بمالها جميعا لانقاذه ؟ وعندما عرفت انه بين اثنين اما ان يفقد عرشه ويصبح مملوكا لها ، او ان يحكم وهو حر لاسطورة لها عليه . اذ ذاك .. اما رأيناها تضحي بمصلحتها الفردية وتختار المسلك العسير فتتخلى عن بطلها وحبيبها ؟ هنا لمسة السماحة والبطولة في شخصيتها وذلك ما يحبه توفيق الحكيم في المرأة ، ولذلك رفع الغانية من مستوى العاهرة الى مرتبة السيدة الفاضلة الخيرة .

وكما انتصرت شهرزاد على الملك شهريار انتصرت الغانية على سلطانها فقال لها انه لن ينسى هذه الليلة التي كان خلالها عبداً لها . فالانقياد الروحي من الملك موجود في الحالتين ، والرجل قد انقاد للمرأة بروحه وذهنه وأحبها وارتفع الى مرتبة الالهام على يدها . وكل هذه المعاني كامنة في صياغة المسرحية . ولعل الاستاذ توفيق قد قصد شيئا منها عندما جعل السلطان والغانية يذكران شهرزاد وموقفها في (ألف ليلة وليلة) . وقد بلغ من احساس السلطان بسطوة الغانية انه لم يشبهها بشهرزاد بل رأى فيها سطوة شهريار وجبروته لانه احس انها كانت هي التي تمسك بزمام الموقف . ولكن الغانية سرعان ما تأبى هذا الحكم وترد الى نفسها رقة المرأة واستسلامها الملهم وحكمتها في الايحاء والتوجيه الخفي فقالت له : « لا . أنت السلطان دائما . أما أنا فهي التي في وضع شهرزاد الجالسة دائما عند قدميك . » وهي تعلم انها أقرب الى قلبه عندما تتخذ هذا الوضع . ولذلك اختارته .

* * *

بقي من أفكار توفيق الحكيم ما يبدو لي انه رأيه في مسألة العبث بالاذان لاسباب دنيوية . والظاهر من سياق الصياغة في المسرحية ان المؤلف يرى ان ينزه الاذان عن أن يستعمل توقيتا لكذا وكذا من اغراض الدنيا العابرة . فذلك وقت الصلاة ولا ينبغي العبث به لاي سبب من الاسباب . أما من يعبث به فهو يعرض نفسه الى المشاكل عاجلا او آجلا . وقد صور المؤلف هذه الفكرة عندما جعل الغانية في الفصل الاول تغري المؤذن بالعبث بوقت الآذان ، وكان دافعها الى ذلك نبيلا ولا ريب فقد ارادت انقاذ حياة المحكوم عليه الذي قضي عليه أن يعدم عند أذان الفجر . ففي هذه الحالة استخدمت الغانية الاذان ضد الجلاد والوزير . فماذا كانت النتيجة ؟ استخدم الاذان ضد الغانية نفسها في الفصل الثالث ، حين اشترطت ان تنعم بزيارة السلطان لمنزلها حتى أذان الفجر ، فاذا قاضي القضاة يقدم الاذان الى نصف الليل ويحرمها نشوة السعادة ، وبذلك أصبح الاذان ضربة قاصمة لرغباتها . وتلك هي العبرة ، فالعبث بالقوانين والشرائع قد يكون في صالح العابث حينا وفي صالح اعدائه حينا آخر . والافضل ان تصان الشرائع ولا تمس قداستها . وذلك معنى متفرع من المغزى العام للمسرحية .

وآخر ما نحب ان نقول ان توفيق الحكيم قد وفق في هذه المسرحية الى الجمع بين الحركة المسرحية الحية ، وقوة الفكرة ، وتنوع الشخصيات ، وجمال الحوار ، يضاف الى ذلك انه استطاع ان يجعل الاحداث تنطق نطقا معبرا وتبين عن معان فلسفية وقضايا فكرية مهمة مثل ارتفاع العدالة والقانون عاليا فوق المصلحة الشخصية التي تضمنها قوة السلاح . ومثل صلة الخير والخلق الكريم بالجمال والحب ، ومثل العلاقة بين الحرية والاخلاق . وقد رفع ذلك كله مستوى المسرحية وجعلها في مكان رفيع بين مسرحيات توفيق الحكيم .

نازك الملائكة

الكويت

النموذج

قصة . لوحة بقلم نواف ابو الهيجاء

((التكويـــن))

فتح عينيه : رعب . وسط غابة من الشجيرات والاشواك كـــان مجبرا ان يعدو ، الهمسات من حوله : رعب . العيون الضائعة في زحمة الليل خوف من شيء لا يدركه . قرصوه ، مرات عديـــدة ، خشية ان تثقل جفونه فينام . يفتح عينيه على صرخات . حاول ان يتعلـق بصدر أمه فسمع ضربات قلبها الضارية . ثم ، فجأة ، جأر صوت في الليل :

ـ انبطحوا يا ناس !

آنئذ أكل من التراب حتى شبع . منذ تلـك اللحظة لـــم تذهب رائحة ذلك التراب من خياشيمه ، ولا استطاع ان يلثم ترابا طعمه كطعم ذلك التراب الاحمر .

((الخطوط))

قالوا له : لا تدخل ((السرداب)) فهو مسكون بالجن وبالعفاريت !

وقالوا له : أنت غريب ، فكن ، اذن ، أديبا !

وهمسوا في اذنيه : اياك والاقتراب من الاسلاك الشائكة ، ففيهـا يكمـن الموت متخذا اشكالا وصورا متعددة !

استفاق ليلة من نومه على عاصفة . أخرجوه من الخيمة المنهارة . نقلته سيارة مع حشد من الناس الى مكان بعيد . سمحوا لـــه ، هذه المرة ، ان ينام ملء جفونه . ظلت صورة السرداب المعتم تطارده . فـي ((الكمب)) الجديد لعب حتى ملأ ضجيجه الصحراء المحيطة . اجتاز ، مع رفاق له ، الاسلاك الشائكة التـــي كانت تسور ((الكمب)) مـــرات عديدة . ومن البرك القريبة التي خلفتها الامطار سرقوا الملح . كانـــوا يحسون بنشوة غريبة والحراس يطاردونهم قبـــل ان يستطيعوا دخول ((الكمب)) من جديد حاملين معهم الملح .

أستقبله والده غاضبا :

ـ لـم هربت !؟

ـ لكي أجلب الملح !

ـ أنت مجنون أيها الطفل !؟ الكـــلاب ، والاسلاك الشائـــكة ، والحراس والصحراء والماء ! كيف تجتاز كل هذه العقبات ونحن فـــي بلاد الغربة !؟

ـ أنـا جائع !

ـ اطعميه شوربة عدس يا امرأة .

زعق الطفل :

ـ كل يوم شوربة !؟

((الصورة))

الرياح تعصف . قصف الرعد يزرع الهلع في صدره . يحلق فـي السماء فلم تقع عيناه على النجوم . السحاب الاسود اندفع من الغرب اثناء النهار ، حجب الشمس ، وفتح كوة الرياح المجنونة . هرع الناس الى غرفهم المتصقة بعضها ببعض كالتوائـــم . سمع صوت اصطكاك اسنان أمه . غمرته دعوتها له بالقرفصة والابتهال الى الله فرقا . وفي لحظات تكومت في الغرفة اليتيمة اجساد سوداء كالخرق البالية . كان يهتز كيانه وهو يسمع الجميع :

ـ يا لطيف ، اجعل البلى خفيف !

طاردته صاعقة عنيفة من الافكار المبهمة . توقف مـــرات عديدة . نظر الى الخلف . الاسلاك الشائكة تسور ((الكمب)) ، و ((البراكس)) قطعة سوداء تئن تحت ضربات المطر العاصف ، والريـــاح تصفر بعنف جهنمي . ارتعدت فرائصه . ولمن ، فـــي سره ، نفسه . لماذا هـــذا الخوف !؟ حين شق الباب ليتطلع مرة اخرى الـــى السماء داهمته زوبعة ريح بارد ولم ير النجوم ولا القمر .

الاصوات تطن :

ـ يا لطيف ، اجعل البلى خفيف !

وتساءل في سره :

ـ من هو اللطيف ، ثم ما هو البلاء القادم ؟

حين تطلع ثانية الى الكتل السوداء اصطدم بالعيون الشاخصة الى الاعلى . لم يكن ابوه في البيت ـ الغرفة . سأل امه :

ـ أين أبي ؟

ـ في المدينة يا بني ! هيا ابتهل الى الله فهـــو يسمع اصوات الاطفـال !

وعادت تسمر عينيهـا في سمـاء الغرفـة الملطخة بالسخام لتبتهل بصوت متقطع مرتعش :

ـ يا لطيف ، اجعل البلى خفيف !

((الالـوان))

ـ سمكة ، مأكولة مذمومة ، قولي ان شاءالله !

ـ ان شاء الله !

ـ تأتيك رسالة من مكان بعيد فيها أخبـــار سارة ، قولي ان شاء اللـه !

ـ ان شاء الله !

ـ امرأة طويلة بدينة ، ترتدي ثوبا خشنا بلون الليل ، تحسدك عين الحسود فيها عود ، قولي ان شاء الله !

ـ ان شاء الله !

ـ بعد سبعة فصول ، ايام ، إسابيع ، اشهـــر ، اعوام ، لست

ادري بالضبط ، والله هو العلام ، سوف تسافرين الـى بلاد تحبينها حبا جما ، قولي ان شاء الله !

ــ ان شاء الله يا رب ، ان شاء الله !

ــ هناك ارى الآن امامي جمعا محتشدا . حشد خير باذن الله . الجميع يضحكـون فرحين . قريب لك ، قطعة من كبدك ، يتزوج بشابة جميلة بيضاء كالقطن في عين الشمس • خيرا كثيرا قولي ان شاء الله !

ــ ان شاء الله !

ــ أم ــ أم ــ ! لطخة بعيدة ، بعيدة . اللهم خفف المصائب ، وابعد عنا البلاء يا رب العالمين . قولي ان شاء الله !

ــ ان شاء الله !

التفت صوب امه . رمى الكتاب من يده ثم خرج من الغرفة .

الشمس في كبد السماء حادة . الهواء ساخن جاف والرمال بحر من الجمر .

((ضربات الريشة النهائية))

سمع اصواتا في السرداب . الذين سمعوها هربوا . اقتحمـه ودخل : رأى قطعة سوداء تدحرج علبة من التنك على الارضية الصلبة . لما رأته الهرة تملكها الفزع وجرت هاربة من بين قدميه ، ثم اختفت . ضحك من قلبه .

الاسلاك الشائكة والحراس ، الكلاب والماء ، الملـح والصحراء ، كشربة الماء بالنسبة له . لم يكن وحيدا في كل مرة يخترق فيها حاجز اسلاك الفولاذ . دس سما في قطع الخبز للكلاب • اكلتهـا . تدلت ألسنتها الحمراء ، ولم تعد تلهث . كانوا يتوارون في العتمة ، بعيـدا عن أعين الحراس ... يتسللون .

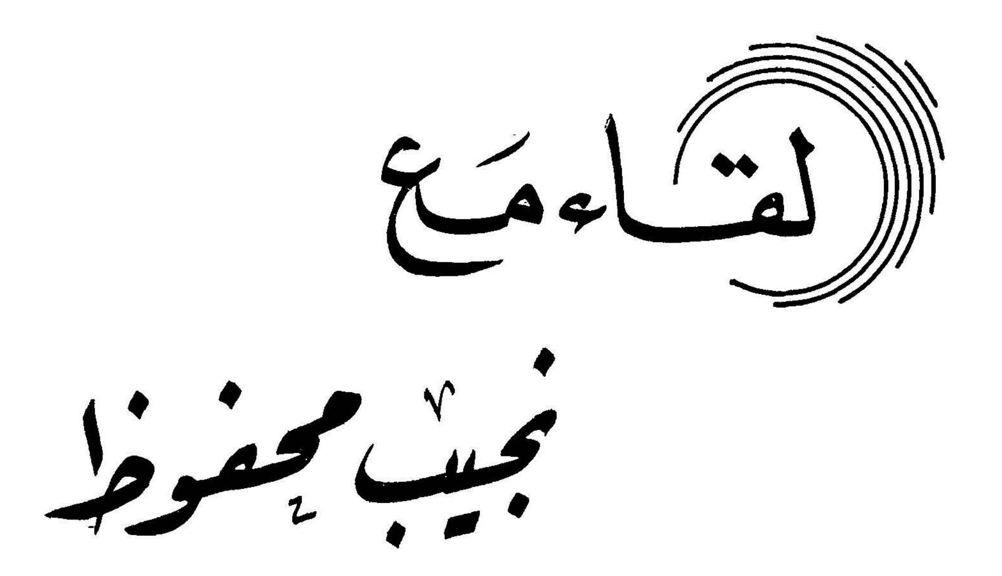
الماء يغمر كاحليه والصحراء تنتهي حدودهـا بغابـات مـن اشجار البلوط والصنوبر والسرو والسنديان . حين يدخل الغابة تداهمـه روائح الصعتر المرمية ، ويدوس على اعواد البـلان . يجلس الآن تحت شجرة صنوبر ضخمة . رائحة الصمغ تملأ عليه كيانه . من حوله تحلق خمسة شبان يرتدون الكاكي . يجلسون بعيدا عن العجوز والرجـل الكبير والاولاد . قبل قليل كان ثمة اصوات رصاص ،انتهت كالحشرجات . جلسوا ينظفون اسلحتهم • لم يكن الظلام ليمنع عينيه من قراءة مـا يعتمل في صدورهم . فكر وهو يمسح السبطانة بهدوء : ترى متى ندخل من أجل العملية التالية !؟ ثم سمع صوت زميل له :

ــ اسمع يا رفيقي ، ينبغي ان نحصل غدا علـى اجازة ليوم او اثنين . لم نر الاهل منذ خمسة اشهر كاملة .

في لحظة كبر وجه متفضن امامه حتى ملأ الغابات كلها . اجتاز ، يقظا ، الصحراء الواسعة ودهش لما لم يجد الاسلاك الشائكة والحراس . هرع ، في فرح ، الى الصدر الضامر الهزيل يدفن رأسه فيـه . احس بنشوة عارمة حين شعر بأنامل امه المتخشبة تدفن في ثنايا شعر رأسه الاسود الطويل . لحظات من الهدوء ، ثم كبر الصدر واندفعت انهـار حليب في النهدين الضامرين . خيل اليه ان الحلمة التي قضمها وهو صغير مئات المرات تخز وجهه وتدفعه بعيدا . الروافد تصب في مكانين توأمين مكونة بحرين واسعين . فتح عينيه وقـد ركبته فرحة مباغتة : رائحة قديمة حلم بها تهب عليه ... رائحة ذلك التراب تطحم خياشيمه مجبولة بروائح الصمغ ممتزجة بعطر الصعتر والمرمية .

دمشق

نواف ابو الهيجاء



بقلم احمد محمد عطيه

تحدث الي نجيب محفوظ في مكتبه الانيق المطل على النيل العظيم حيث دارت احداث روايته « ثرثرة فوق النيل » تحدث الي ببساطة المعهودة التي تراها واضحة في كل ما حوله ، المكتب البسيط والزي البسيط (بلا كرافت) والضحكة المنطلقة ، فكان هذا الحوار :

★ نقلت السينما اعمالك الادبية الى جمهور اوسع . غير انها نقلتها في بعض الاحيان محرفة وحملتها الى الجماهير بمعان بعيدة عن محتواها الحقيقي . وأعرف انك تدافع دائما بأن العمل السينمائي غير العمل الادبي وان هذه هي رؤية رجال السينما ، ولكن الا يعتبر صمتك مسؤولا ازاء تحريف السينما لبعض رواياتك ؟ وهذا يجرنا الى التساؤل : لماذا لا تقوم بعمل السيناريو الخاص بافلامك خاصة وانك تمارس كتابة السيناريو بالفعل لاعمال الآخرين ؟

ـ في حدود تجربتي اقتنعت بأن تدخل المؤلف في عمله عندما يتحول الى اداة تعبيرية أخرى يهدده في كثير من الاحيان . وانا اعتبر ان العمل الادبي بالنسبة للفنان الجديد الذي يتلقاه ، وهو السينما في حديثنا ، عبارة عن مادة قابلة للفهم والتاويل بحسب رؤية هذا الفنان . حتى ان القصة الواحدة احيانا يخرج منها اكثر من فيلم . كل فيلم يحمل رؤياه الخاصة . من تجربتي ايضا انني أجد نفسي شاعرا تماما بالبواعث الواعية لعمل الفن ، ولكن القاريء كثيرا ما يكتشف امورا لم تخطر على بالي الواعي ولكني اقتنع بصدقها .

وعن كتابة السيناريو للغير فهذه حقيقة . اما بالنسبة لي فمن أشق الامور كتابة سيناريو لعملي لانه معالجة جديدة بعد ان اعطيت كل ما عندي ، واذا التزمت في الرواية بمعالجة ما فالخوف ان افرضها على السيناريو دون ان تكون أنسب الاشكال الفنية له .

★ بدأت الدعوة الصهيونية برواية « ثيودور هرتزل » « الارض الجديدة القديمة » وفاز بجائزة نوبل روائي اسرائيلي هو « صامويل عجنون » لان كتاباته « تمثل رسالة اسرائيل الى عصرنا ، وتكافح كفاحا رائعا من أجل تقديم التراث الثقافي للشعب اليهودي عن طريق الكلمة ». وهذا يدلنا على الدور الخطير الذي قامت به الرواية الصهيونية نحو قضيتها العدوانية . الا ترى انك مسؤول كروائي قامت رواياته بمسح اجتماعي وسياسي لحياتنا ، عن عدم انعكاس قضية الصراع العربي الاسرائيلي في رواياتك ، مع انها قضية خطيرة ماسة بوجود الانسان العربي في كل مكان ؟

ـ الحقيقة ان دخول الكاتب العربي على المسالة الصهيونية ممكن ان يكون من اكثر من باب . يوجد باب مباشر، والحقيقة ان هذا لا يتاتى الا لكاتب خاض التجربة واكتوى بنارها عن قرب مثال غسان كنفاني . لكن الصراع بيننا وبين اسرائيل ليس مسالة احتلال اراض او حرب او لاجئين فحسب فهو صراع حضاري مصيري ، وفي هذا المنطلق فكل ما يكتب عن ايجابيات او سلبيات العالم العربي يدخل في القضية من الباب الآخر وهو الباب غير المباشر . فعندما تهاجم أي سلبية فانت تعد العربي للحياة والصراع ضد العدو . وانا ألجا الى معالجة القضية على مستوى تجريدي كما فعلت في « تحت المظلة » . اما المعالجة الواقعية فهي صعبة لاننا لا نعرف الواقع معرفة تامة .

★ أعلم انك كتبت رواية ريفية باسم « احلام القرية » في بدء حياتك الادبية ولم تنشر . فما مصير هذه الرواية ، ولماذا نفتقد الريف والفلاح المصري في كتاباتك مع ما يحتلانه من مكانة كبرى في الحياة المصرية ؟

ـ « أحلام القرية » . كنت في اجازة ، وخطر لي ان أكتب رواية ريفية فكتبتها وانا لم أزر الريف في حياتي ، ولذا اخذت الرواية مصيرها الوحيد . وهذا ينطبق على السؤال الماضي فيجب ان يكون لدى الروائي معرفة كاملة بالواقع الذي يكتب عنه .

★ هل تعتقد ان الرواية العربية قدمت شكلا جديدا على الصعيد العالمي أم انها ما زالت في ذيل التجديدات في الرواية العالمية ؟

ـ لا أعتقد انها قدمت شكلا جديدا . والواقع ان الشكل الجديد لا يأتي اعتباطا وانما هو ملتحم بالموضوع والمضمون التحاما حتميا . ونحن بدأنا الرواية وهي تكاد في رأي البعض على الاقل تستهلك اغراضها في اوربا وتنتهي . وعندما مررنا برؤية رومانسية وجدنا في الشكل الرومانسي ما يكفل التعبير المنشود ، وكذلك عندما انتقلنا الى رؤيا واقعية نقدية او واقعية اشتراكية او ما بعد ذلك ، بل توجد

أشكال للرواية الحديثة في أوربا تعبر عن رؤيا حضارية جديدة لم نصل اليها ولن نصل اليها في القريب العاجل وقد لا نصل اليها أبدا . وأصالة الفنان العربي تتضح في اختياره الشكل المناسب لا الشكل المثير وتحويره بما يتفق مع موضوعه المحلي .

* هنالك رأي هام للمفكر الامريكي هربرت ماركوس في الفن والسياسة هو : « ان الفن في أعمق مستوياته احتجاج على ما هو كائن. ومن هنا بالذات يصبح الفن قضية سياسية » . ما قولك في هذه القضية خاصة وانك في رأيي كاتب سياسي بالدرجة الاولى ، وانك انتقلت من الحياد التقليدي ازاء الصراع السياسي في رواياتك الى اتخاذ موقف من هذا الصراع في روايتك الاخيرة « ميرامار » ؟

ـ أنا أؤمن بهذا القول ، ولعلي رددته من قبل ما أسمعه منك نقلا عن ماركوس لان الفن نقد للمجتمع وللحياة ، وأنا أعتقد انه لو بلغت الحياة الكمال لما كان للفن من معنى او وجود .

* هل تؤيد فكر زوال التراجيديا في الحب في ظل الاشتراكية لانه ليس هناك تناحر طبقي او نعال أسري يحول بين المحبين وبعضهم ، الامر الذي يترتب عليه انعدام الصراع ، وعدم امكانية تكرار « روميو وجولييت » في المجتمع الاشتراكي ؟

ـ لا شك ان المحبين في مجتمع اشتراكي أسعد حظا وأقرب الى التفاهم والالتقاء من المحبين في المجتمعات الطبقية او الرأسمالية . ولكن قد توجد متناقضات أو أسباب للتعاسة غير الاسباب الاجتماعية . وان تعاسات الحب في الرأسمالية يزول ٩٥٪ منها في ظل الاشتراكية.

* ما رأيك في قضية السرقة الادبية ، وفي الادعاءات الاخيرة عن « ميرامار » و « الطريق » وصلتهما برواية طاغور « البيت والعالم » وقصة مورافيا « أمطار مايو » ، وفيما أدلى به توفيق الحكيم من ان الدفاع عنك كالهجوم عليك بلا أساس لانه قبل شكل الاتهام ؟

ـ بصراحة أنا لم اقرأ رواية طاغور حتى اليوم . والمسألة في نظري ليست مسألة اتهام ودفاع ، وانما هي قضية ادبية اولا يجب ان تفهم وتعالج على مستوى الادب والتخصص فمثلا : (١) التشابه بين الاعمال الفنية موجود وقد يرجع الى تماثل الظروف الاجتماعية او توارد الخواطر او .. او .. والمسألة كيف نميز بين الاصيل وغير الاصيل في الاعمال المتشابهة . الجواب نجده عند النقد الواعي ، فهو الذي يدرس العمل في ذاته ويقرر أصالته او عدمها على اسس موضوعية ثابتة ، بحيث يستطيع أن يحكم بأصالة عمل ولو شابه عشرات الاعمال او عدم اصالة عمل ولو لم يجد ما يشابهه . (٢) اننا نتهم الادباء للتشابه في الموضوع ، فما قيمة الموضوع في الفن . الذي يدلك على ان الموضوع ليس من الفن وانما الفن يبدأ بعد اختيار الموضوع ان الموضوع عادة يكون مقتبسا من التاريخ مثلا او من الواقع أو من الادب نفسه . الا ترى ان مسرحية كأوديب يعاد معالجتها على مر العصور وبين عشرات الكتاب ؟ بل يوجد ما هو اكثر من ذلك ان الفن الحديث بصفة عامة يتجه الى الغاء الموضوع الغاء تاما . القصة الحديثة قصة بلا حدوتة. كالصورة التشكيلية . ولذلك فاتهام أديب بتشابه موضوع حتى على فرض وجود هذا التشابه امر من السذاجة بمكان ويدل بالاسف الشديد على تخلف ثقافي هائل . تصور أن واحدا يتهمك بانك اخذت فكرة خيانة زوجية او مؤامرة من كاتب مع انها موجودة في أي صفحة حوادث كل يوم . والواقع ان مثل هذه الاحداث لم يخلقها مورافيا او كين وانما خلقها الواقع . وخطورة هذه الاتهامات هو ما فيها من جهل صريح بفهم عملية الابداع الفني . ومن أخذ الفكرة من الآخر البرتو مورافيا أم كين ؟ ومن هو مخترع الخيانة الزوجية ؟ ولي رأي قلته من حوالي سنة وكانت المناسبة انهم اتهموا شابا بأنه سرق مني قصة فقلت ضمن حديث طويل انه لا جديد في العمل الفني الا صاحبه . الفنان كالطباخ يؤلف بين اشياء موجودة فعلا ولا يخلقها . وهذه الاتهامات تمثل تهديدا حقيقيا للفهم بالنسبة لعامة القراء . وقد شعر توفيق الحكيم بكل ما ذكرته وادركه تماما وهو مشفق من معالجة الموضوع بهذه الصورة لان في معالجته اتهاما ضمنا بعدم فهمه وهو من البديهيات في العالم كله .

* في كتابه « بصراحة غير مطلقة » كتب يوسف ادريس على لسانك كلاما خطيرا عن النقد والنقاد مؤداه ان كبار النقاد قد انصرفوا عن مزاولة النقد وتركوا المجال لبعض الصبية . وهذا الكلام موجه بطبيعة الحال الى النقاد الشبان الذين اعتقد انهم وجهوا اهتماماتهم الجادة لدراسة ادبك ، حتى اسفرت عن صدور كتابين لغالي شكري ونبيل راغب . وثلاثة كتب أخرى في الطريق لابراهيم فتحي وصبري حافظ واحمد محمد عطية ، وذلك بالاضافة الى عشرات الدراسات . فما رأيك ؟

ـ الحقيقة ان كبار النقاد انصرفوا عن النقد ، هذه حقيقة واقعة ليست موضوع منافشة ، وقد تكون لهم اعذارهم . اما أنهم تركوا المجال للصبية فهذا تعبير غريب لم يجر على لساني بطبيعة الحال . فان النشاط النقدي الآن يتركز في هذا الجيل الجديد من النقاد . واعتقد ان رسالتهم الاولى هي تقديم الرؤيا الجديدة للادب العربي المعاصر ، فهم اقدر الناس على فهمها وتقديمها . والحقيقة ان نشاطهم المتواصل من نقاط التفاؤل في الحياة الادبية الراهنة .

* بماذا تفسر النهايات المفجعة لابطال رواياتك ، ابتداء من عباس الحلو الى سرحان البحيري ؟

ـ أرجو أن تلاحظ ان النهايات السيئة نوعان : النهاية السيئة لامثال عباس الحلو ، وهذه تتضمن اتهاما صريحا للمجتمع لان النهاية هنا أصابت شخصا خيرا او نبيلا بخلاف النهايات التي تصيب مثل سرحان البحيري .

* ارجو ان تعرفنا بمهمة مؤتمر الادباء الشبان باعتبارك أمينا عاما للمؤتمر ، ومن هو الاديب الشاب ، وبم تفسر استغراق الكتاب الشبان في كتابة القصة القصيرة دون الرواية وسائر الاعمال الادبية الاخرى ؟

ـ أولا عن المؤتمر هدفه دراسة ميدانية لمشاكل الادب في محاولة جادة لمعالجتها وتوجيه النشاط الادبي من خلال توصيات عادلة نحو النمو والازدهار . واتفق على ان الاديب الشاب هو الذي ينتج أدبا ويكون سنه في حدود (٣٥) سنه . والاشكال الادبية مواهب ولعل اللحظة الحاضرة من حياتنا تناسبها القصة القصيرة اكثر من غيرها من الاشكال، ولكن لا يعني هذا ان الرواية لا تكتب بوفرة ايضا في حدودها النسبية. مثال ذلك الاسماء التي ذكرتها انت في مقالك الاخير عن رواية شوقي عبد الحكيم « دم ابن يعقوب » وارجو أن تذكرها .

(الاسماء هي « الشمندورة » لخليل قاسم ، « تلك الرائحة » « لصنع الله ابراهيم ، « العودة الى المنفى » لابو المعاطي ابو النجا ، « الحب والصمت » لعنايات الزيات ، « أحزان نوح » لشوقي عبد الحكيم ، « حكاية كل يوم » لزينب صادق ، « مائة ساعة في القمة » لمصطفى فوده ، و « المصيدة » لفاروق حسان السيد ، و « عودة الظلال » لعبد الفني سلامة و « المنصورة » لمحمد مصطفى هدارة ، « صراع في الاعماق » لعلية هاشم ، « المرآة والمصباح » لنعيم عطية . وذلك بالاضافة الى روايات محمد جلال وحامد الجمل المتعددة . و « دم ابن يعقوب » لشوقي عبد الحكيم ، « الجرار رقم ٣٥ » لفتحي سلامة ، « البلد » لعباس أحمد ، « الحداد » لمحمد يوسف القعيد ، و « أيام الانسان السبعة » لعبد الحكيم قاسم و « الشفق » لسمير ندا .)

* يعد فوز صمويل بيكيت بجائزة نوبل تكريما للعبث . فما رأيك ، وهل هناك تجارب عبثية أخرى لك في الطريق ؟

ـ أنا ليست لي تجارب عبثية اطلاقا اما « ثرثرة فوق النيل » فهي موجهة ضد العبث ، وأنا لست كاتبا عبثيا اطلاقا ، وانما أنا كاتب ملتزم بقضايا معينة كانت وما زالت تلح عليّ ، وقد بدأت بها وسأنتهي

بها ، تجدها في ((كفاح طيبة)) كما في ((ميرامار)) . الكاتب العبثي لا يؤمن بقيمة ولا حقيقة ، ويكفي ان يسمي أدب اللامعنى لشيء . والحقيقة انا دهشت ان بيكيت نال الجائزة فرؤيته التشاؤمية لا تستحق الجائزة وربما نالها لعبقريته . ولكن يبدو ان هناك مرونة في جائزة نوبل الا اذا اعتبروا كل اعماله مرثيات لفقدان القيم . والا ما معنى فوز تشرشل بجائزة نوبل للادب وعدم فوز مالرو بها ؟

✵ ما رأيك في نقادك ، وفي التفسيرين الميتافيزيقي والثوري لاعمالك ؟

ـ هذا سؤال صعب ويحتاج الى وقت طويل . يندر ان تجد مثلي من قال فيه النقاد خير ما يمكن ان يقال وأسوأ ما يمكن ان يقال . وفي الحالين يدل على اهتمامهم بنا فشكراً لهم . وقد قوبلت بصمت ثم هجوم لمدة ثلاث سنوات ثم مدح وتأييد . والغريب ان الذين هاجموني في السنوات الثلاث هم الذين مدحوني بعد ذلك .

✵ وفي أعمال الروائيين الجدد مثل : الطيب صالح وغسان كنفاني وشوقي عبد الحكيم وصنع الله ابراهيم وأبو المعاطي أبو النجا وعبد الحكيم قاسم ويوسف القعيد وسمير ندا .. وغيرهم ؟

ـ بكل امانة اني معجب شديد الاعجاب بالمجهود الروائي الجديد لهؤلاء الشبان . أنا معجب بهؤلاء جميعا ، وخصوصا الطيب صالح فهو متفوق على الادباء الانجليز المعاصرين له .

✵ بم تفسر انغماسك في كتابة القصيدة وتوقفك عن كتابة الرواية منذ ثلاث سنوات تقريبا عندما نشرت ((ميرامار)) ، وما هي اعمالك الجديدة ومشروعاتك ؟

ـ ان القصة القصيرة أنسب للحظتنا الحاضرة . واحب ان اقول اني كففت عن كتابة الرواية منذ الثلاثية لان كل ما كتبته كاولاد حارتنا ذات منهج ملحمي ، وما جاء بعدها يعتبر من نوع القصة القصيرة الطويلة . فانا لم أكتب رواية بعد الثلاثية • وقد كتبت اخيراً مجموعة من قصص المقاومة ، وارجو ان تنشر قريبا في كتاب .

✵ لماذا اتجهت اخيراً الى كتابة المسرحيات القصيرة ، وهل هو تحول الى المسرح مماثل لتحول كثير من كتاب القصة المصريين الى المسرح ؟

ـ الواقع ان المسالة تطورت . ان قصصي بدأ يغلب عليها الحوار ، ومن ثم بدأ التحول للمسرحية وربما لان هذه الفترة هي فترة مناقضات وانسب شيء لها الحوار . واعده تحولا الى المسرح مع الاحتفاظ بالكتابة القصصية . وقصصي الجديدة كلها في شكل حوار مسرحي . وحجمها اكبر من القصة القصيرة . (اطلعني على قصته الجديدة ((نافذة في الدور الخامس والثلاثين)) وهي في ٢٩ صفحة حجم فولسكاب) .

✵ تقوم اسرائيل بترجمة الاعمال الادبية والفكرية المصرية الى اللغة العبرية كيوميات نائب في الارياف وتاريخ الجبرتي لمعرفة الحياة المصرية . فما الهدف من هذه الترجمات . وما هو الدور المقابل الذي يجب ان نقوم به في بلادنا ؟

ـ هم يريدون بترجمة ادبنا فهمنا من الداخل . ويجب ان نترجم ادبهم بالمثل لنفهمهم من نوع اعرف عدوك .

✵ ما رأيك في قصيدة نزار قباني ((هوامش على دفتر النكسة)) وفي التحول الذي طرأ عليه بعد النكسة ؟

ـ هو تحول خطير ، لكن التقزز من النفس لا يكفي . والاقتصار عليه اخلال بالرؤيا المتكاملة . وانما يغفر للاستاذ نزار انه كتبها في اعقاب النكسة مباشرة .

✵ صرح د . طه حسين في حديثه الاخير للتليفزيون بانه لايتابع كتابات الادباء الشبان وان الادباء الشبان لا يعترفون به . ما رأيك في هذا الموضوع وفي قضية الادباء الشبان عموما ؟

ـ كون طه حسين لا يقرأ للادباء الشبان لا يدل بحال على تجاهل لهم او احتقار لشأنهم ، انما قد يرى الانسان في وقت من الاوقات انه من الافضل ان يعيد قراءة كتابات قديمة على ان يقرأ كتابات جديدة . وهذه هي سنة الحياة . واما عن اعتراف الشبان بطه حسين، فطه او اي اديب من جيله يمثل حقيقتين : حقيقة ادبية تاريخية لا يمكن تجاهلها من اي جيل من الاجيال ولا يحول بين المرء وبين الاعتراف به على هذا الاساس الا الجهل او التعصب الاعمى ، لكن الاديب ايضا قد يمثل المنهج الذي يتخذ منه الناشيء مثالا او يعتبر نفسه له امتداداً حتى ولو كان امتدادا متطوراً . في هذه الحالة يجوز جدا الا يعترف الشبان برجل عظيم كطه حسين من غير ان يكون ذلك شهادة ضده او ضدهم . اما قضية الادباء الشبان كادباء شبان فتتلخص في رأيي في الاتي : مساعدتهم على تحصيل الثقافة بكافة انواعها حيث يكونون . اكتشاف المواهب منهم والعمل على ان تاخذ طريقها المشروع الى الظهور والنجاح • تقرير نصيب لهم او للجيد من انتاجهم في جميع المؤسسات الفنية التي تتبع الدولة . وانا في ذهني اقتراحان : (١) ان تنشأ ادارة في وزارة الثقافة تسمى ادارة المواهب تتلقى الانتاج الشاب وما تقره منه تعمل على نشره واذاعته في مختلف مؤسساتها او في جميع الاجهزة الاخرى بوزارة الارشاد . (٢) المطلوب من لجنة الفكر في الاتحاد الاشتراكي الاتفاق مع الصحف والمجلات التي تتبعها بتخصيص صفحة اسبوعية على الاقل لانتاج الشباب . اما ان اردت بالقضية النواحي الفنية فلا يصح ان نطلق عليها قضية الشباب لان الامر مرجعه الى المناهج والاساليب وهذه قد تجمع شبانا وشيوخا وليس العمر بالفيصل فيها .

✵ هل تقرأ للروائيين المصريين ، وما رايك في أعمال يوسف ادريس وعبدالرحمن الشرقاوي ويوسف السباعي وعبدالحليم عبدالله واحسان عبدالقدوس ؟

ـ انا احبهم حقيقة جميعا ، ولكل منهم ناحية تسرني. وانا بدأت لا اصرح بهذا الاعجاب حتى لا أتهم بالمجاملة .

✵ ماذا تقرأ الان ،وهل تتبع خطة محددة في القراءة وكيف تنظم وقتك بين العمل والقراءة والكتابة والمشاركة في الحياة الاجتماعية ؟

ـ في النصف الاول من النهار في وظيفتي . من ٦ ـ ٩ على مكتبي بين القراءة والكتابة ومن ١٠ لنهاية السهرة امام التليفزيون. واقرأ الان كتب الدكتور فؤاد زكريا في فلسفة الفن .

✵ في حديث سابق ذكرت انك كمال عبدالجواد في الثلاثية فاين انت في رواياتك التالية للثلاثية ؟

ـ أنا لم ادخل في الثلاثية الا بربع شخصية وقد ندمت على ذلك ولن افعلها ثانية لان هذه افظع ((بعزقة)) يعملها مؤلف . وقدندمت على ذلك تماما .

✵ لماذا تستاثر المومس بمكانة كبرى في كتاباتك ؟

ـ المومس تنفع الناقد الاجتماعي جداً لانك تواجه بها شخصيات بارزة ظاهرها الفخامة وباطنها الدعارة ، بينما هذه ظاهرها الدعارة وباطنها يمكن ان يكون البؤس ولذا فهي مثال صالح للنقد القاسي .

✵ هل تتاثر معاصريك في قراءتك لهم ؟

ـ طبعا فلا اعتقد اني قرات لكاتب في الشرق او الغرب ثم لم اتاثر به لان القراءة كالتغذية وكما يظهر اثر التغذية الحسنة في السلوك والتفكير وكذلك نحن نعكس ما نقرأه لكتابنا المفضلين في ما نكتب . وانا اعتقد ان الفن شجرة كبيرة نامية وكلنا ناخذ من اوراق هذه الشجرة .

القاهرة — **احمد محمد عطيه**

محاورات مع الباب العالي

ـ قبل الرحيل ـ

١ ـ أسئلة متفرقة :

وترسم صورة قلبي .. ودقاته بعد كل قصيده
وتقرأ لي فقرة من جريده
وتسألني عن بلادٍ بعيده
وعن شاعرٍ مات في الجاهليه
وعن شاعر لا أقول اسمه الآن ...
عاش فقيرا وما زال يكتب شعرا ...
ويشرب قهوته في الفناء
وعن شاعرٍ في المقاهي .. يحوم
وعن شاعرٍ عشقته النجوم
وعن ـ صوت فيروز ـ ان كان يكفي لصدّ الهجوم

٢ ـ ردود سريعة :

جئتك من أقصى جبل في الشام
لا أملك الا ما يملكه أمثالي : ...
قمرٌ ونخيل وكروم
وحمامات فوق البيت تحوم
لكني لما جئتك كنت طري العود
أزحف كالنملة أخطف حبة قمحي
أتسلل كالحزن الاصفر كالقطّ النمرود
أخضرّ كما تخضرّ شطوط الجزر الاخرى
في العالم
ضحكتُ شفتاك وكنت بشوشا
وجلستُ أحدث نفسي
ـ عن طيبتك العليا ـ كالحالم
لكنك يا مولاي
القيت الحجر على رأسي
وأنا نائم
طرقت بابي أقدام الصبيان وقالوا :
مولانا يهواك
وضحكتُ على نفسي لمّا « شفتك » تهمسُ
في أذني :
أنك تعشق شعري
وتحب المتنبي والاخطل والشعر العذري
والعرجي والملك الضليل
وبنيت قصورا من كذبك .. تسألني عن أشياء
تزعم أنك تجهلها
لكنك تعرفها
منذ أتيتك من أقصى جبل في الشام
منذ أتيتك يا ملك الكذابين ضيوفهم ...
والشام على كفي في عيني .. ماء المغطس
شجر الصفصاف يناديني ... أين الاشعار !
وأنا أحمل في قلبي بردى والعاصي والنيل
يا صاحب مزرعة ، بيت تملك آلاف الامتار
لكنك كنت بخيل
والشاعر مجنون عندك والله عليك دخيل
منذ أتيتك من أقصى جبل في الشام

٣ ـ تحفظات :

ولم أتكلم
عن الخبز والخوف .. ما قلت شيئا سوى
انني آه أعشق وقع المطر
ولم أتكلم
عن الذكريات المجيدة
ولم أتحدث عن المنتظر .

٤ ـ مزمور لسيادته :

وعلى أغصان الصفصاف
علقنا أعواد الذكرى
وبكينا شهرا
ونقشنا فوق صخور بيضاء وسوداء
أسماء القوم وأسماء السادة منهم
(لعنتْ تلك الاسماء)
من جعلوا قدمي في المنفى
رأسي في بحر المنفى
من قلعوا عينك يا زرقاء
وتذكرنا من قالوا :
تنسون الارض وتنسون الاشياء
ان كنت نسيتك يا أمّ المدن ويا ...
سيفا في وجه الهكسوس
ان كنت نسيت حدائقك الخضراء

ان كنت نسيت ضفائرك الشقراء
فلتأكلني حيتان البحر
ولساني يقطع ان كنت نسيتك ...
يا سيدة المدن الخضراء .

٥ ـ بعد الاغنية :

وقف عدوي في وجهي
أخبرني أن زمان الشعر مضى
فسكت

٦ ـ رغبات أخرى :

ويسألني
اذا كنت أعشق « سيدة الشرق » أم ...؟
فقلت له آه يا سيدي ...
انني جئت من « كوكب الشر ...... »
أحب غناء العذارى على نبع ماء
وأهوى خدود البنات
وصوت البراكين ان كان يا سيدي
عربي السمات
أحب فروتـا
أحب الشرائط فوق ضفائرها اللولبيه
أحب أناشيدها المدرسيه
أحب فروتـا
كسوسنة أزهرت في الجرار
كتفاحة في جبال الهوى
كصفصافة نبتت في حواف البحار
كعصفورة تنبش الارض تهتف : أين البذار !
أحب فروتـا
واشتاقها مثلما العيس نشتاق ماء الغدير
واشتاقها مثل جدي الذي ...
كان يرحل في سالفات الدهور
الى طلل أسمر مقفر مثل منفى الابي
الى حجر أسود شاله ذات يوم نبي
واشتاقها مثلما ...

٧ ـ مقاطعة ـ صمت :

وقف عدوي في وجهي
أخبرني أن زمان الشعر مضى
واعتدلت قامته
أطفأ سيجارته في قدح القهوه
لعن الماضي والحاضر والموت
وبكى ثم تسمّر في جلسته
لم ينبس الا بالصمت
قلت علامات الصوفية والقادة والوزراء
ان قالوا : فعلوا
أو صمتوا : قتلوا
أو حنثوا للكأس : اشتعلوا
حوقل مولانا ...
ـ قالت أمي : « ان الانسان اذا ...
حوقل يعني ان الله قريب »

٨ ـ تقاطع آخر :

وقف عدوي في وجهي
أخبرني أن زمان الشعر .. مضى

٩ ـ جلسة ختامية :

فقلت له : وزمان السكوت انقضى
. . . .
أتيتك في داخلي نيّة للرحيل
أتيتك أشكوك للارض يا سيدي
وأشكوك للناس للفقر ... آه
وللفقر يا سيدي ثورة قد تطول
أتيتك لا الحزن في خاطري
انني من عويل الشجر
سآتيك بعد الرحيل
أعرّي النياشين من رجسها
ومن فوق نهديك يا سيدي
وآتيك كابوس رعب .. يدق العنق
وآتيك في الثمر المحترق
وآتيك من جبل الجن من باكيات الطلول
ومن فوق رابيتي
من بطون الحقول
فان كنت تحرمني من زمان قليل
ومن باقة الزهر من عشبة في « بلادي الجديدة»
ومن رفقائي
ومن صحبتي للعيون الفريدة
فاني أتيتك في داخلي نية للرحيل
أتيتك في داخلي نية للرحيل .

القاهـرة

م. عز الدين المناصرة

نداء سلام

في « باكو » (١) أو في « موسكو » أو في أي مكانٍ آخر
تملكُ أن تصبح انسانا
انساناً يحتضن العالم عبر تخوم الاسوار المحدودة
ويرى الاشياء كما لو كانت تولدُ أوّل مرّة
انسانـاً
يقرأ تاريخ العالم في قاع عيونٍ مشدودة
تمتلىء نضالاً ومحبّة
تتلاقى باسم الامل القادم عبر الظلماتْ
تنهار حدود ومسافاتْ ..
وتطلُ الايدي الممدودة
تتعانق من بين الكلماتْ
وجهاً ، وفؤاداً ، ولسانا

***

في قلب الليل الصامت يولدُ حرف يتكلم
ينطق باسم الانسان
القادم عبر مساحات شتّى ، عبر الآفاق المرورة
يحملُ في جنبيه نداء سلامْ
وهنا ، في قلب الهدأة في « باكو »
يتدفق ضوء الفجر على موجات « خزر » (٢)
لكن الفجر الفائر في قلبي لم يشرقْ بعدْ
فجر دام في بور توفيق
يتلمس في وهج الموت طريقا نحو الغدْ
ويغني .. رغم الآلامْ

***

في « طشقند » (٣) بقايا من قلبي وحروف من كلماتي
تلتصق بجدران الزمن الخالي المهجورْ
وتراب يحمل عطر الفجر الاول في تاريخ بلادي
وبقايا أصداء خفتت من قافلة النور

***

« الفاتح » (٤) يعبر ارض « النهرين » يصافح « سور الصين »
يلطم وجه الظلمات ليشرق فجر الانسان
ويخاطب سمع الارض بأجراس الملأ الاعلى
ويهز الاصنام الوسنى في أعماق القلب المذعور
« الفاتح » يفتح باسم الحق طريقاً للانسان
يزرع في درب الايام بذور اخاء ومساواة
تنمو ، فتوحد كل الناس ، تباركهم باسم الايمان
وتشيد باسم الحق قلاعاً ومنابرْ
يرقاها الاسود والاصفر والعابد والزاهد
والعائد من ساحات المجد
أطلالاً بقيت ..
ما زالت تُشرق بالنور
تحمل هذا الوجه الباقي من صفحاتي
تتحدى .. مرّ الايام

***

أوشك أن تمتد يميني لتصافح وجهاً مألوفا
وجهاً عربي السمت نديا بالبسماتْ
أوشك أن يتلاقى الغابرُ والحاضرُ في قلبي
تتداخل في سمعي أصداء صليل وصهيل
وفيالق وبيارق شتى ونداءات
أوشك أن اغرق في هذا الوجه
الزاخرِ ألواناً وطيوفاً
وجهك ، هذا المتلألىء دوما في قلبي
يصل الى هنا ، عبر الآماد ، وعبر الابعاد المجهولة
يجتاز حدودا وسدودا
ويضيء طريقي الموغل في الاشواق وفي التذكار
ويقود خطاي الى واحات الامل الدّوار
يا نجمة أيامي .. يا نور القلب

***

فتعالوا نعبر هذا العالم باسم الحبْ
ما دمنا نملك أن نتلاقى في كلماتْ ✱

القاهـرة

فاروق شوشة

---

١ ــ عاصمة جمهورية اذربيجان .

٢ ــ بحر قزوين الذي تقع عليه مدينة « باكو » .

٣ ــ عاصمة جمهورية اوزبكستان .

٤ ــ « محمد بن القاسم » فاتح السند وبلاد ما وراء النهرين

✱ « قضى الشاعر اسبوعين في الاتحاد السوفييتي خلال مهمة اذاعية الى اذاعات موسكو وباكو وكييف وطشقنـد وسمرقند .. فكانت هذه القصيدة صدى لاهتزاز وجدانه مـع هـذا الوطـن الصديق » .

الزنبقة في ظل السقوط

قصة بقلم لطيفة الديلمي

الطفلة الصغيرة تموء قطة جوعى .. الصوت حاد . ينبعث في رأسي الخوف القديم من الفقر .. الطفلة تموء ايضا .. تزيح بموائها المتقطع انهمار الألم على صدرها ..

ايامي وساعاتها المثقلة بكوابيس المرض وبارتقاب الشقاء وحتى الموت أحيانا تحول عيني عن دروب الامل .. تغطس انفعالاتي المنحرفة في بؤرة الآتي الذي اجهله ..

ـ قد نموت ..

يصرخ صوت مستقبلي عظيم الوقع :

ـ لن تفقدي لهفة عينيها .. أغلقي منافذ رياح الهزيمة .

قال الطبيب المزمجر وهو يرفع سماعته الافعوانية :

ـ ارفعي عينيك عن جبينها البرىء ، اريحي وجهها من تحديقك المجنون .

ثم وهو يشير باصبعه النظيفة ذات الخاتم الى عنقها :

ـ هنا .. داؤها يكمن هنا ..

ـ ...... ؟..

ـ تجلدي .. لم يفت الاوان بعد ..

ـ العملية ؟ ...

استدار ثانية ثم حدق في وجهي المرتاع ، هز رأسه . مدعيا الاسف في محاولة يائسة لاصطياد ثقتي بالكلمات الاخرى التي ضاعت بين مواء الطفلة وخفقات الامومة المحاصرة بالموت .. ماتت الكلمات في رنين ادواته العابقة بروائح الديتول والكحول ..

عاود عمله والقناع يخفي معظم الوجه . والعينان تحدقان ما زالتا في وجهها .. امرني ان امسك الرأس الصغير الناضج بالعرق بين يدي ..دس في فمها ملعقة مطهرة.. شهقت بوهن .. ضغط على فكها الاسفل بجفاف .. ورأسي ينتفخ برياح الرهبة والرعب ..

(سيقتلها .. الوحش) .. وتجرأت :

ـ كفاك تعذيبا ..

ـ اخرجي من هنا ..

ـ دعها فانت تمزق حتى آلامها المستكينة ..

رفع يديه عنها .. تركها تنفث انفاسا بطيئة موقعة ، صوتها المحتضر غاطس في بياض المفارش وروائح الادوية ..

سحبني من يدي نحو غرفة الانتظار .. اقفل باب القفص ..

ـ انتظري هنا والا أفسدت كل شيء .

تهاوت المطارق ثانية وبعنف متوال على رأسي ووجهي .. يحيطني زجاج القفص .. قبرا باردا .. هذا الرجل المنتظر معي ؟.. حضر ليدفن بيديه طفلتي التي يكرهها .. يكره وجوه الاطفال .

ـ احارب طويلا قبل أن استسلم للموت ..

(حبيبتي الصغيرة .. لن استبدل تضرع وجهك النقي المسحوق بكل مباهج العمر) .

ـ اتركها لي نصف ميتة .. حيانها الطرية لي وحدي .

يصفعني صوت الرجل الذي يكره الاطفال :

ـ امرأة مجنونة .. ماذا أقول .. ؟...

ـ اني ادافع بها عن حاضري الذي تغتاله يداك ..

ـ تسقطين كل يوم في هوة جديدة ..

ـ تجيد السباب الى جانب القتل ..

يتسطح رأسه الكبير ، يسيح خط من العرق عبر جبينه المغضن ، ليستقر قطرة كبيرة بين تجعيدتين ..

(قاتل محترف) اتهم الرجل الذي اصبح زوجي ..

ارفض استلاب الطفلة الحبيبة من بين ذراعي .. مهدها صدري

الذي يرفضكم جميعا . كانت في البيت القديم زنبقة حمراء صغيرة..
ــ مـامـا .
ويتدفق عبير الامومة حارا دسما يغيـر حلكه ايـام السقوط . تستقر الرؤى على جدران الزجاج ، ويعلو صوت زنبقتي الصغيرة ..
ــ ماما أحب عينيك الجميلتين ..
تركض ازائي .. تدور حولي وتخفـي رأسها الصغير بين يـدي الباحثتين عن يفاعة الجسم النزق المتقافز ..
يأتي صوت الرجل الجديد :
ــ ابنتك منفرة (تذكره بأبيها) .
وعد بتبنيها في البدء ... ثم تنكر ...
ــ لماذا يرفض الرجل الجديد ابوة ابنتي ؟؟ ...
ــ لماذا يرفضها وعقمه يتأكد كل يوم ؟..
تسقط التساؤلات في صدري رصاصات تميت المستقبل الـذي قـد يكون .
تجتاح وجهي هجمات كل الرجال الذين يدورون حـول الصغيرة بحثا عن فيء البراءة يستظلون به من هجير الاقتتال .
الطفلة تحتضر بين يدي الطبيب .. أنا في قفص زجاجي مقفل .. أبوها يبحث عـن منفاه .. الرجل الآخر يرفض اصراري على امومتها .. خلف زجاج القفص يمتد سلم طويل لا نهاية له درجاته لا تحصى .. المس برودة الزجاج . تثقب عيناي الواحه لترقى السلم .. في لامنتهاه البعيد يتنازع الرجلان الاول المرتحل القديم والآخر الذي يـود امتلاكي بلا ماض دونمـا امومة ، امرأة محنطـة بحبه العقيم ..
الزنبقة الطفلة تبحث عن وجهي فـي منتصف السلم .. يداها تلوحان كحمامتين بيضاوين ..
يغسل ضوء الظهيرة وجه الطفلة ثم يفضح وجهي الرجلين الجديد الشرس والقديم الحالم الذي يقفز جسده المصبوب في بدلته ليتكـوم في عربة منتنة .. الندم يطوق وجهه ينام .. يستسلم لصفعات الحوذي القذر .. يجلد بالسوط ظهر الجواد وبيـده وجـه الاسير الصامت المخدر المتلقي للصفعات المهينة ...
ينسى ارتباطه القديم بي .. ينسى كونه باذر خصب فـي جوف امرأة .. يرحل بعيدا .. أحمل ابنته لينقلني الرجل الآخر ، الى ارض رخوة متحركة الرمال .. اسقط مرارا تغوص القدمان في تحرك الارض الخادعة .. فيصنع لنا بيتا كـل حين .. ليغوص البيت مراراً .. ونبقى في العراء ..

يرن صوت الحوذي من جديد علـى استطالة الطريق المعوسجة وبعدها تتعالى اصداء الصفعات على وجه الرجل النائم فـي العربـة السجن .. يزداد جسده خضوعا في مازوكيـة فريدة .
ــ مرارا قلت له اكره المستسلمين للصفعات ..
وكان يرفع يده محاولا اسكاتي فيفشل .. وكـان يهمس في اذني بوعود كثيرة ..
ــ حبيبتي ، الغد ملكنا لن ينازعنا فيه أحد .. والزنبقة تتضوع عطرا على درب الغد ..
كنت اصمت في انتظار هذا الغد الذي لم يأت أغلق على الالـم صدري ... همس يتواتر على اذني ..
ــ انـه .... ؟
ــ ..... ؟
ــ ويستسلم أيضا ! ..
ــ ... ؟
وكل يوم .. انتهى الرجل ..
ناديته بعدها .. وبهدوء نفيت زمني عـن بيته .. قطفت زنبقتنا الصغيرة ثم غرستها في صدري .. ظل أبوها مخدرا وكان يحلم بالغد .. ينام في العربة ..
ــ مواء الطفلة يتعالى من خلف الباب المغلـق .. بقبضة يـدي اضرب وحشية الباب الموصدة ... اصرخ بجنون :
ــ لا تقتلها ..
يعنفني الرجل الجديد الذي يبتني البيوت فتنهار :
ــ اهدئي يا امرأة .. وانتظري بصمت ..
ــ ابنتي ايها الرجل .. ابنتي ، ألا تفهم ؟..
ــ ستنجبين لي غيرها ..
ــ انت عقيم .
ــ كفي عن الهذر .
ــ اتمسك بامومتي لابنتي البكر .
ــ لكنك رفضت أباها .
ــ لوفف وليس لكونه أبا لها ..
ــ يزيحني عن الباب والدمع يفرق وجهي المختنق ..
هل يقتل الرجال زنبقتي الحلوة ؟.. الكل يتآمر على حياتها .
قال احدهم : المرض وبائي ..
تشمخ الخطورة امامي سدا من القنوط .
الطفلة تختلج والطبيب يقطر الدواء في الفم الملتهب .. اختطف ابنتي .. اضمها بعنف الامومة التي لا ترهب الموت .. يعاود السلـم ظهوره امام الزجاج والرجل القديم المخدر يقاتل الرجل الذي يكـره الاطفـال .
ــ لـماذا ؟..
ــ .... من اجلك يتقاتلان ..
يسقط الرجل الاخير .. ترفرف بسمـة باهتة فوق شفتـي الصغيرة . الثم ثغرها .. اقطف كل هناءة العمر مـن فيها العذب .. ثم اجتاز ممر الزجاج .. يتلاشى السلم . الصغيرة تتنفس بانتظام .. يملأ عيني أمل الغد .. تشدني الى ارضي الصلبة ..ثم يتعالى صوتها الطفلي في غمغمات حلوة ، مبهمة في البداية .. تتضح الغمغمة الواعدة:
ــ ماما .. اني بخير .. وأبي أيضا ..
انحني عليها مرة اخرى اشم الوجه الذي سحقه ، الالم ...
الصق شفتي على الجبين الوضيء فتصيح ثانية بصوتها المنغـم الذي يتخلله وهن الالم ..
ــ ابي طيب نعود اليه ..
ــ نعود اليه يا حبيبة ..

بغـداد

لطفيه الدليمي

ثورة ٢٣ يوليو في محكمة «مواقف»

بقلم مطاع صفدي

في مناخ الانهزام تردّ الجماعة عن نفسها مسؤولية الانهزام بالانطلاق الى محاولات التنصل من مؤسساتها الموضوعية السابقة ، التي تصبح موضع الاتهام والتجريح، ويتحول الاتهام الى صور من الممارسة النقدية تختلف شكلا ومضمونا، ، بحسب المستويات الاجتماعية والفكرية وجبهات الصراع السياسي ، التي تتسابق جميعها الى تبني المواقف النقدية .

الا ان آلية النقد بصورة عامة تقوم على اسس متشابهة ، فهي من ناحية تريد ان تعزل الحاضر او المستقبل النابع من الحاضر الراهن ، عن الماضي الموصوم بالهزيمة . وهي من ناحية ثانية تتصور انها ، في عملية العزل هذه ، تبرىء اصحابها من تبعة العلاقة مع المجتمع المهزوم ، وتنفي عنهم بالتالي مدى المسؤولية عما وقع، وتكل اليهم في الوقت ذاته ، أفضلية الدعوة الى ما يجب ان يحدث ويقع تعويضا عن الهزيمة والمنهزمين .

وفي مناخ الهزيمة العربية توالت موجات النقد من مختلف الاطراف ، وظهرت اصوات عديدة بلهجات متنوعة ، وفي مجال الكلمة ، وهو موضوعنا ، تعرضت المؤسسات الثورية القائمة من حزبية وحكومية ، الى حملات ، شنها ثوريون سابقون ، وكتاب مستجدون وجدوا في لحظة الهزيمة منبرا تاريخيا ، يفيدون من اضوائه، اكثر مما يشعون به هم من اضوائهم على مشكلات الهزيمة وتجاوزها .

ولكن ليس معنى هذا ان صدمة الهزيمة لم تولد نزعة حقيقية للمراجعة الشاملة واعادة التقييم ، غير ان المشكلة هي أن هناك من يستبق عملية النضج، فيهز الشجرة لتساقط الاثمار الفجة ، ويتذوقها المتذوقون ، فاذا ما نضجت الثمار الاخرى ، لم يبق لها الا هامش الذوق والمتذوقين ، وفي كل مرة تقدم لنا ظروفنا الموضوعية مناسبة لتولد مؤسسة حقيقية ، يسبقها المسرح والمتمسرحون ، وتتحول المؤسسة الى شبه مؤسسة . وبذلك تحتفظ آلية المجتمع المتخلف باولويتها في كل المجالات، حتى عندما يكون المجال هو ساحة حرب ضدها .

فلو حاولنا الان ان نصنف اهداف النقد في هذه الساحة الملتبسة ، وجدنا ان من اكثرها اغراء لفئة من الاقلام ، ثورة ٢٣ يوليو . ودون ان نتعرض لهذه الجبهة، التي يتضامن اعضاؤها يوما بعد يوم ، في كل مظاهرها التي تتبدى من خلالها عبر الكتب والمجلات والصحف ، يهمنا ان نقف عند عينة قريبة منها ، اجتمعت في العدد الاخير من مجلة (مواقف) لصاحبها ادونيس (علي احمد سعيد).

واول ما يلفت النظر في هذا العدد – وقد كرسه صاحب المجلة لمحاكمة ثورة ٢٣ يوليو – هو ان مقالا وحيدا حاول ان يتضامن موضوعيا وبطريقة كاتبه الخاصة مع هذه الثورة ، وهو المقال الذي كتبه نديم البيطار ، احد نجوم الموجة الجديدة من مفكري ما بعد الهزيمة ، في حين ان بقية المقالات انصبت على تفنيد آراء البيطار، وصولا الى تفنيد الثورة الناصرية بأساليب مختلفة ، اتفقت جميعها على رفع لواء العملية والموضوعية ، والشعارات النقدية (الثورية) التي جاء بها قاموس هذه الموجة .

ويعترف صاحب « مواقف » انه استكتب البيطار مقاله ، ثم عرضه على عدد من الكتاب قبل ان ينشره، فأبدى كل منهم اعتراضاته في صيغة مقالات ، نشرت هي ومقال البيطار في عدد واحد . ولعل البيطار قد فوجىء ، وهو يرى نفسه محاطا باربعة او خمسة مقالات اخرى ، كتبت كلها ردا عليه ، وعلى ما ابداه من دعوة الى « الارتباط بثورة ٢٣ يوليو) على حد تعبيره .

ان قراءة مقال البيطار ، وملاحظات صادق العظم عليه ، ومقال اخر لالبير منصور وهما ابرز ردين على

البيطار ، توضح معالم الصورة لنوع من القبول «العلمي الموضوعي» للثورة الناصرية ولنوع اخر من المعارضة «العلمية الموضوعية» لها . فالقبول والمعارضة يدعيان الحديث باسم هذه المقاييس الشعارية : العلمية والموضوعية ومع ذلك فالتناقض قائم بينهما ، فهل هو تناقض «علمي موضوعي» ام انه من العلمية والموضوعية الاثبات والنفي لموضوع واحد في وقت واحد ؟

لنكتشف هذا الاحراج الفلسفي – والكتاب الثلاثة اساتذة فلسفة او اثنان منهم على الاقل كما اعلم – لا بد ان نكتشف «المنهج» الذي يستند اليه كل منهم في موضوعه .

ان الدكتور البيطار كعادته في كتبه ، يحب دائما ان يعالج موضوعاته من خلال كثافة معينة من آراء المراجع المختلفة ، وهو بذلك يثبت صفة البحث الجامعي فيما يكتب . ولكنه كان غالبا ما تطغى كثافة المراجع واقوال المفكرين ، من كل حدب وصوب، على جوهر الموضوع الاصلي، فيخرج القارىء معجبا بمعرض افكار الاخرين ، دون ان تظل في ذهنه سوى اصداء التقريرات التي يكررها الكاتب، وهي كلها مشتقة من مصطلحات الثورية والاجتماعية والعلمية والوحدوية والتحررية الخ . .

وفي هذا المقال بالذات يستند الكاتب الى منهج تقريري ، غير قابل للمناقشة ، يعرضه في خمس نقاط، تتلخص في ان كل نظام سياسي ينشأ ويتطور عن طريق القوة والغزو ، فان تطوره ينبغي ان يؤلف له قاعدة تتألف وتتحد حولها الجماعة التي ترتبط به . وان المهم ليس نوع النظام السياسي ولكن المهم هو وجوده الذي يخلق فيما بعد تقاليدا وعادات تؤكد جذوره وتؤلف وحدته النفسية . ثم لا بد اخيرا من وجود نموذج أعلى للانسان السياسي تقلده الجماهير وتتبعه . وهو يعني وجود الزعيم القائد .

وواضح ان هذا التحليل لنشوء النظام السياسي ووحدته وزعيمه ، يستند في الاساس الى موقف الفكر الاجتماعي الانكلو الاميركي العام الذي يعطي الاهمية الاساسية للعوامل الخارجية الطارئة ، ويهمل العوامل الحركية المنبعثة من طبيعة التركيب الاجتماعي، وصراع المصالح الطبقية والنوازع الحضارية . والدكتور البيطار يطبقه على ثورة ٢٣ يوليو بصورة حاسمة نهائية ، ليبرهن على ان هذه الثورة هي قاعدة الثورية الوحدوية ، وان زعيمها هو النموذج الاعلى الذي (تتشخصن) فيه آمالها – والتعبير للكاتب – وبعد ذلك ينافح الدكتور البيطار عن هذا النموذج النظري التطبيقي بأسلوبه القطعي الحاد ، ويتحدى الاخرين – وهم الشيوعيون غالبا – بان يقدموا له قاعدة وحدوية افضل من ثورة ٢٣ يوليو، وزعيما تتشخص فيه آمال الامة افضل من جمال عبدالناصر .

والحقيقة ان نديم البيطار قد شحن مقاله بجملة ملاحظات صائبة ، الا انها مبعثرة لا ينتظمها بناء متكامل من المقدمات والنتائج، وهو خوفا من ان يرمى بالغيبية والمثالية وسواها ، تحاشى بقدر الامكان الخوض في طبيعة البنية الذاتية للامة التي تؤلف وحدتها المعنوية كما انه اخرج بحثه عن السياق الديناميـ للظروف التي تحيط بالثورية العربية وتدفعها الى الوحدة . وجعل من ثورة ٢٣ يوليو ثورة وحدوية كمسلمة نهائية . كما جعل ثورية الامة العربية بالضرورة وحدوية . وهو صادر على الموضوعيتين ، كما يقول المناطقة ، بدون برهان ، وبنى عليهما فكرة افضلية ثورة ٢٣ يوليو وافضلية زعيمها بصورة اطلاقية .

وعلى الرغم من انني لا اناقض الدكتور البيطار فيما يثبت ، فانني اشعر ان منطلقاته الفكرية ، وتسلسل المقدمات ، واساليب البرهان التي اتى بها ، ليدلل على صحة تلك الحقائق ، لا تتطابق مع موضوعها ، او انها تظل غالبا في مرتبة النظر ، ولا تتفاعل مع معطيات التجربة العربية من داخلها . وهي تلك الخاصة التي طبعت كتابات الدكتور البيطار فيما يتعلق بالايدلوجية العربية دائما .

ولو اخذنا بمسلمات الكاتب لوجب اولا البرهان ان ثورة ٢٣ يوليو كانت منذ بدايتها ثورة وحدوية ، وهذا ما يخالف سياقها التطوري الذي سارت فيه من ثورة وطنية الى ثورة قومية الى ثورة قومية تقدمية .

وكذلك يجب البرهان ثانيا ان ثورة ٢٣ يوليو هي والثورة العربية مرادفان لشيء واحد ، في حين ان التحليل العلمي يشير الى ان الثورة المصرية حاولت ان تعطي افضل تعبير في ذاتها عن الثورة العربية ، اوانها كانت تسعى الى قيادة الثورة العربية . وينبغي ثالثا البرهان على ان الثورة المصرية هي وزعيمها حقيقة واحدة ، في حين ان ظروف الهزيمة قد برهنت على ان شخصية جمال عبدالناصر لم تكن هي كلها شخصية الثورة المصرية ، وان رئيسها كان في احسن الاحوال رمزا لتيار فيها ، تصارعه تيارات اخرى الى حد شرخ الثورة واجهاضها .

والدكتور البيطار بعد ذلك دمج التقييم الايجابي لثورة ٢٣ يوليو بضرورة (الارتباط المرحلي التكتيكي بثورة ٢٣ يوليو كقاعدة للعمل الوحدوي الثوري) على حد تعبيره ، ولكنه لم يوضح هذا الارتباط ، مضمونه وطريقته ، وتركه شعارا ، انتقده الذين ردوا على البيطار ورفضوا قبوله لثورة ٢٣ يوليو ، بهذا الاعتبار وسواه .

وتبقى مسألة (الشخصنة) التي حاول فيها البيطار ان يفلسف هو الاخر زعامة عبدالناصر فبررها بذلك المبدأ الاصطلاحي ، اي جاءها من مستوى المثل، ولم يأتها من مستوى السياق الواقعي الاجتماعي التي نمت

فيهـا زعامة عبدالناصر ، واخذت دورهـا مـن خلاله .
فالدكتور البيطار ، على الرغم من شدة احتفائه بالعلمية ، فانه يبدو غالبـا مفكرا ارسطاليسيا ، يبهره البرهان على الجزئي بالكلي ، فيذهب دائمـا من العام الـى الخاص . وهذا العام ليس قانونـا استقرائيـا ، بقدر مـا هو تعميم نظري مجرد يصادر على نـوع من المسلمـات الاولية . والمسلمة التي يستند عليهـا في تبرير شخصنة عبدالناصر هي المبدأ الذي نص عليه في مطلع مقاله ، والقائل بان كل نظـام لا بـد لـه من (نموذج عام يتمثل في قائد كبيـر او اكثر) على حد تعبيره . ففضلا عـن ان هذا (المبدأ) ليس مسلمة ، لانه قابل للنقاش والرد عليه من وجهـات نظريـة متعددة ، فانه لا ينطبق تمامـا على طبيعةالزعامة الناصرية ، الى جانب انه يهمـل اهمالا فادحـا تاريخية هذه الزعامة ، ويجردهـا مـن ظروفهـا وزمانها ومكانها ، وهي الشروط الموضوعيـة التي ينبغي ان تفسر بها زعامة عبدالناصر اولا ، ليكشف عن دورهـا الواقعي وقيمتـه الحقيقيـة .

نخلص الى القول ، ان الطريقـة التجريدية التـي عالج بهـا الدكتور البيطار حقيقة الثورة الناصرية وزعامتها ودورهـا التاريخي ، قد جعلتهـا اشبـه بالاسطورة ، بالرغم من مختلف التحفظات التي كـان يبديها الكاتب هنا وهناك . وهذا ما أعطى لنـاقديه سلاحـا مباشرا ضـده وضد المبادىء التي يريـد الدفاع عنها .

وبذلك بدت الثورة الناصرية فقيرة من مقومـاتهـا الخاصة ، فارغة مـن تجربتهـا التاريخية ،، بحاجة الـى ان تعلل بالمبادىء الاستنتاجية ليتم قبولهـا عقليا .

وبالمقابل فقـد سمح موقف البيطار بتوليد الموقف المناقض عند ناقديه ، فاعتمدوا على الواقع التجريبـي ليبرهنوا على امكانيـة تجاوز الثورة الناصريـة وزعيمها معـا .

وهذا مـا سمح لصادق العظم ان يأخذ علـى مقال البيطـار اهماله لمنهج التحليل الطبقي، وفراره من تقرير طبيعـة الدولة الوحدوية التي ستنشأ حول قاعدة الثورة الناصرية . وهذا ما اعطى لصادق العظم بالتالي حجة الرد على البيطـار كذلك ،بفكرة هامشية استخدمها هو عرضا، فاذا بالعظم يصطادها ويرميهـا الى مصدرهـا ، وهي ان الثورة الناصريـة ستتحول عنهـا جماهيرها ،ان هـي اصيبت بنكسـة اخرى او قبلت بالحل السلمي . ولكـن الدكتور العظم يسارع ليحكم على ان الثورة الناصرية قد بدأت تسير في هذا الطريق ! ولذلك فهـو يرفض الارتباط بهـذه الثـورة . ويقدم بديـلا لها الثورة الفلسطينية .

* * *

ان الدكتور البيطار استاذ اجتمـاعي قدير ، وهو قد اطل على قضايا الثورة العربيـة باسلوب البـاحث العلمي ، المعتمـد اولا على رصيد من القراءات ، والمنطلق من افق نظري خالص . وهذا ما اخذه عليه المفكـرون الثوريـون المعانـون للتجارب العربيـة من داخلها . ولكن جهـد هذا المثقف الرزين، كـان دائمـا هو الجهد المفقود مـن الدراسـات الثورية العربيـة ، ولعل من اهم مزايا موقفه العلمي انه لم يحاول ان يتجاهل الدوافع الموضوعية المحركـة للثوريـة العربية ، ولم يتعال عليهـا ، ويرفضها كما فعل آخرون . واذا كان في مقاله الاخير ، الذي عرضنا لبعض زوايـاه ، قـد سعى الـى البرهنـة علـى بعض القيم الايجابيـة للثـورة الناصريـة بطريقته النظريـة الخاصة ، فليس معنى هذا انه عاجز عن التدليل علـى قيمهـا تلـك من خلال سياقها الجدلـي، وحركيتهـا الواقعية . والدكتور البيطـار نفسه يعرض في مفاصل كثيرة من مقاله الى ان افكاره تلـك محتاجة الى دراسات تفصيليـة اكثـر .

واذا كان ثمة اختلافات عديدة بيننا في المنطلـق

النظري واسلوب العرض وسواه ، فان ذلك لا يمنع اي مفكر من الترحيب بالاراء الاخرى ، خاصة اذا استطاعت ان تغني رؤيتنا لموضوعاتنا المصيرية الاولى المشتركة.

ولعل اهم ما يخرج به القارىء لمقال البيطار الاخير هو قناعته بان حقائق الثورة العربية ليست بضاعة للسياسيين والمتأدلجين وحكرا لهم يبرزونها او يخفونها يعظمون منها او يضعفون من شأنها حسب رياح المصالح . فان هي انتصرت كانوا من اكبر دعاتها ، وان هي هزمت موقتا ، كانوا من اوائل الناعين لحياتها ، والمنذرين بدفنها .

وانها على العكس يمكن ان تصبح موضوعا لدراسة علمية تعطيها قيمتها الواقعية بدون مبالغة في السلب والايجاب .

* * *

ان صادق العظم في رده على البيطار ، وفي مجمل موقفه (الفكري ــ السياسي) يفترض موضوعة خطيرة ذات ثلاث نقاط . اولها ان الثورة المصرية لانها تتحمل مسؤولية الهزيمة في حربين متواليتين فهي ثورة عاجزة، والنقطة الثانية وهي انه لعجز هذه الثورة ينبغي على الثوريين ، والناصريين واعتن من فيهم ، على حد تعبير الكاتب ، ان يغيروا موقفهم منها ، اي ان يفكوا ارتباطهم بها . ولا ندري ان كان الكاتب يريد من هؤلاء الثوريين ان يقاوموها كذلك . والنقطة الثالثة هي ان هناك تعارضا نهائيا بينها وبين الثورة الفلسطينية . والثورة الفلسطينية هي البديل ، والثورة الناصرية هي المعيق للطريق الجديد .

ان هذه الموضوعة بنقاطها الثلاث ، وما يتفرع عنها من نتائج ، تعبر في الحقيقة عن رفض واضح للثورة الناصرية ، وتجعلها في موضع المتهم والمسؤول، بدون شرح للمبررات والبراهين ، سوى بعض الملاحظات الجزئية التي ينثرها الكاتب بروح المقال السريع العابر .

نحن لا نود ان نناقش مفاهيم العظم التي دأب على نشرها في مقالاته وكتبه ، اذ ان ذلك له مجال اخر أرحب . غير اننا نحدد البحث الان ببعض الملاحظات على ملاحظات العظم الواردة في مناقشته للدكتور البيطار .

اولا ــ فان هناك كثيرا من الاراء الواردة في عرض البيطار تصلح ردا مسبقا على ملاحظات العظم ، لو أعمل العظم نظره بها قليلا لشعر بانها جديرة بالانتباه والاهتمام ، فان البيطار قد ردد القول المعروف بان كل ثورة تحمل اخطاء ، وتتعرض لازمات داخلية ، بل قد ترتكب ما يناقض اهدافها ، وقد تسبب لذاتها ولامتها ما يقرب من حجم النكبات التاريخية العظمى ، ولكن ذلك كله قد لا يعني مثلا تقويض الثورة السوفيتية بجرم الستالينية ، ولا تهديم الثورة الصينية لمجرد انحراف البيروقراطية قبل الثورة الثقافية ، ما دام ان الثورة الكلية اصبحت مؤسسة اجتماعية تاريخية اتحدت بواقع شعبها ، واصبحت لها جدليتها الموضوعية التي تتولد فيها العوامل السلبية والايجابية معا ، وتسير حسب منطق الحركة التاريخية لواقع امتها وظروفها الدولية المحيطة بها . بحيث تصبح الاحداث والاشخاص رموزا في حركة اشمل منها .

ثانيا : ومن هنا فان المنطق الذي يريد ان يحمل شخصا معينا او حدثا محددا مسؤولية الكلية التاريخية، هو المنطق الانفعالي ذو النظرة التجزئية التي لا ترى من الكلية التاريخية الا وجهها المادي المباشر . ولعل خطأ الثوريين قبل النكسة انهم لم يكونوا يرون من الثورة المصرية الا رمزها الاول وهو شخصية زعيمها . واستمر خطأ الثوريين بعد النكسة فلم يروا مسؤولا عنها غير جمال عبدالناصر . وفي السابق كان التمجيد المطلق للزعيم وفي اللاحق اصبح التجريح المطلق واللوم الكامل للزعيم .

والانتقال من الضد الى الضد هو من أمراض الفكر العربي ، ومن انفعالياته المزمنة ، وهو ما كان حريا بالاخ صادق ان يتحاشاه ما دام قد آلى على نفسه نقد الامراض التخلفية في المجتمع العربي .

ثالثا ــ والمشكلة الثالثة التي يريدنا العظم ومن يقف موقفه ان ننجرّ لها ، هي ان نؤمن بالتناقض والتضاد ما بين الثورة الناصرية والثورة الفلسطينية ، والانطلاق الثانية الا على حطام الاولى . وهذا ما يرفضه سياق الواقع الثوري نفسه ، كما يرفضه المنطق العلمي الهادىء ففضلا عن أن الواقع الثوري يثبت لنا يوميا وعلى مستوى الاحداث السياسية والحقائق الاجتماعية ان الثورة الناصرية لم تعصف بها الهزيمة ، ولم تلق بها خلف التاريخ لاسباب كثيرة ، ليس هنا مجال عرضها ، فان الثورة الفلسطينية ، ومن داخل معاناتها ، وبدم شهدائها، لا تحس انها مضطرة الى الانفصال عن الثورة الناصرية، ومضطرة لمعارضتها لتحيا وتبقى ، بل ان حالات من التفاعل الايجابي والتكامل الطبيعي على مستوى الصراع اليومي مع اسرائيل ، تتابع يوميا بين القاهرة ومراكز القيادة الاساسية في الثورة الفلسطينية .

رابعا ــ ان الحل السلمي الذي يتصور العظم انه هو مقياس التفارق ما بين الثورتين ــ هذا ان كانتا ثورتين مختلفتين حقا ــ فان هذا المقياس في الواقع هو سياسي ومرحلي ، ولا يتناول التعارض ما بين بنية الثورة الناصرية والثورة الفلسطينية . فلا يمكن منذ الان ان نحكم بواسطة هذا المقياس المتغير المتبادل ، على مستقبل اللقاء ، اوالتناقض مابين هاتين الثورتين . وبالتالي لا يحق لنا ان نبشر منذ الان بحتمية هذا التعارض ، خاصة وان مشكلة الصراع العربي الاسرائيلي لا تؤذن بحل قريب . بل انها تتطور وتتفاعل لتصبح من المشكلات

الدولية المفتوحة التي لا يؤمل لها حل سلبي كله او ايجابي كله . وحتى لو فرض على العرب حل فان هذا الفرض ستتعرض له كلا الثورتين معا . وعند ذلك لا بد ان تنشأ ظروف اخرى ستمتحن اصالة الثورة العربية كلها ، بصرف النظر عن اشكالها المحلية وعناوينها .

خامسا ـ واذن ، فمن الخطأ البالغ اعتبار محنة الحل السلمي وما يشبهه تحديا للثورة الناصرية وحدها بدون الثورة الفلسطينية . ولو تعمقنا في دراسة المشاريع المتوالية التي تقدم باسم هذا الحل ، لوجدنا ان مواد هذه المشاريع تقترح تنظيمات شاملة للاوضاع العربية كلها على حدود الصراع مع اسرائيل سيكون لها اعمق الاثر على مشكلة التقدم العربي كله في مختلف اقطاره ، والمقاومة الفلسطينية بقدر ما تصبح مقاومة عربية ، فانها ستفجر في الجبهات الامامية والخلفية ظروفا ثورية جديدة ، لا يمكن التنبوء بحدودها منذ الان .

ولكنها ستكون حلقة جديدة لتصاعد فعالية الثورية العربية بكامل طاقتها ، وضمن صور اخرى من الممارسة ، التي ستفيد حتما من كافة التجارب الثورية السابقة ، ومن ضمنها ولا شك تجربة الثورة الناصرية ، التي لم تعد ملكا لظرف معين او شخص بالذات ، بالرغم من الدور الاساسي الذي ما زال لزعيمها في حركيتها واشكال ممارساتها .

سادسا ـ فهل من المنطق الواقعي او النظري فصل الثورة الفلسطينية عن سياق الثورة العربية وعن محورها الاساسي الذي ما زال قاما حتى الان ، وهو تجربة الناصرية في عاصمتها ولدى اصدائها في مختلف اصقاع العالم العربي ؟ وبدلا من المناداة بفرض التناقض بينهما ، والدعوة الى استبدال ثورة باخرى ، الا يصح ان نصب جهودنا الفكرية والنضالية لتعميق الصلة بين الثورتين بممارسة واعية لامكانيات كل منهما ، ووضعها في سياق من التأثير والتفاعل المتنامي بينهما ؟

ولا حاجة الان الى تعداد طاقات الجمهورية العربية المتحدة ، وتحليل دورها الحربي وسواه ، ولكن احدا من الواعين لا يتمنى عزل هذه الدولة عن حركة الثورة الفلسطينية ، وابعادها عن حلبة الصراع مع العدو ، او حلبة النمو الثوري العربي في جميع اقطاره . واذا كانت النكسة لم تبطل دور هذه الثورة نظريا وعمليا ، فهل علينا نحن ان نكمل عمل النكسة ، وان نبطل فعاليتها من اجل ولادة الثورة الجديدة ؟!

وهل ان الثورة الجديدة التي نأمل بها جميعا ، وليس العظم وحده ، مطالبة بان تنبت من الخواء والحطام لتكون جديدة ، ام ان ذلك مجرد نزق غضبي ، واثر من اثار رد الفعل على النكسة وآلامها ، التي خان الوقت للتفكير في مناخ آخر يتجاوز منطقة ردود فعلها الانفعالية ؟.

بقي ان مسألة الارتباط بثورة ٢٣ يوليو التي دعا اليها البيطار واثارت العظم وبقية المعارضين في مجلة (مواقف) ، والتي بقيت بدون تحديد لدى البيطار ، هي التي تحتاج الى شيء من الايضاح لا يمكن استكماله هنا ولكن يمكن ان نحدد لها مبدأ اوليا فنقول ان ما يحتاجه الوعي الثوري في مرحلتنا الحاضرة هو تقييم قوى الواقع العربي بحسب حجومها الحقيقية ، وايجاد صيغ التفاعل والتضامن بينها بحسب معطياتها الخاصة . فلدى الثورة الناصرية من تجاربها الكثيفة المتعددة ما يمنعها من محاولة فرض وصايتها على كل ولادة ثورية . كما ان لدى الطلائع الثورية الجديدة في المقاومة ، وسواها ، من الحس السليم ما يجعلها تبتعد عن طلب الابوة ممن يكبرها ويسبقها .

والمطلوب اليوم بدلا من صراع الالغاء المتبادل بين مختلف القوى الثورية ، الذي انهك المراحل السابقة واجهض امكانياتها ، وبدلا من فرض وصاية ابوة من كبير على صغير ، او ارتماء صغير على كبير لاستجداء وصاية وحماية ، بدلا من كل ذلك يجب اطلاق حرية التجربة والممارسة لكافة هذه القوى امام الاهداف المشتركة ، ابتداء من معركة المصير مع اسرائيل ، الى معركة التغيير التقدمي والوحدوي في العالم العربي كله .

غير ان حرية التجربة ينبغي الا تتنافى مع امكانية التنسيق والتعامل من خلال الجبهات فذلك وحده هو الذي ينقل مناخ التقدم الثوري الى مجال الحركية الموضوعية ، ويجعل لكل قوة ثورية مكانها ودورها بحسب تأثيرها الحقيقي في مجال التغيير المطلوب .

واذا ما ابتعد بعض المثقفين والثوريين الجدد عن منطق الصراعات الفئوية والجانبية ، وكافحوا في انفسهم اغراء الاثارة ومنطقها الطفولي ، وركنوا الى تواضع العمل الصامت المنتج ، ومارسوا موضوعية النقد والنقد الذاتي ، اذن لتكاملت ممارستنا الثورية ولاخذ الثوري القديم من حماس الثوري الجديد ونظراته الجدية ، ولاستند الثوري الجديد الى ما يناسبه من حصيلة التجارب السابقة ، ولكان لنا جميعا سياق حركي متكامل لا يلغي بعضه بعضا ، ولا يضيع في متاهات الفعل ورد الفعل الآنيين .

مطاع صفدي

قصيدتان .. للشيء المفقود

١ ـ جاسوس .. خلف كواليس السماء .

في احدى ساعات الليل المجهوله ..
(والشمسُ المقرورةُ .. تبحث عن شمسٍ أخرى في برد القيلوله ..!)
انهضُ فجأه ..
أتصببُ عرقا شوكيا .
اتحسس راسي ..
راسي يتدلى من موضع قدمي ..!
اصرخ من المي ..
اتسلقُ قلمي ..
اصعدُ اصعد .. حتى يرتطم الرأسُ بقاع السموات .!
(أتجسسُ في الليلِ .. على الله ..!)
افتحُ ثقبا في القاع
.. بشعاعات « اللرز » السوداء ..
ثقبا تتلصص منه العينان ..
ـ أوليست من كشف الانسان .. ؟! ـ

***

من هذا الثقب الفائر .. أشهدُ وجهين ..
أحدهما .. يحملُ قسمات الشيطان ..
والآخر .. لم أتبينْ ـ رغم النور ـ ملامحه القدسيه ..!
خلفهما قفص ذهبي .. تتصاعدُ منه صرخاتُ طينيه ..!
وعلى المائدةِ المكتظةِ بالاوراق .. خريطه ..
وحوار جدليٌ مهموس ..
تتخلله رناتُ كئوس ..
لم تفنمْ أذناي كلمات :
« في نخب المسجون .. »
« اعدام مع ايقاف التنفيذ .. »
« فلنطلقْ ـ كالمألوفِ ـ كلابَ الصيدِ وراءه .. »
لحظتها لم تقو يداي على الامساك .. سقطتْ
من قمة قلمي .. بقعة حبر سوداء ..
تتمددُ .. تتدفقُ .. تعلو كالطوفان ..
أغرق حتى عرصات القاع .. !!

٢ ـ وجهان للصمت .

الصمت الاول : هذا التمثالُ الناهضُ في الميدان ..
ليس بتمثال ..!
الصمت الثاني : صمتا يا أحمقْ ..
ما هذا ..؟ أفصح عما قلت ..؟
الصمت الاول : هي جثته المقتولة في الميدان ..
حنطها القاتلُ .. غطاها بالجصِ الابيضِ والاملاح ..
كي تخدعَ كلَّ الابصار ..!
وتحولت الآن .. الى تمثال .. !!
الصمت الثاني : اخفضْ من صوتكْ ..
قل لي : من صاحب هذي الجثة ..؟ من قاتلها ..؟
الصمت الاول : عفوا .. يا أبله .
امتنع عن الرد ..!
الصمت الثاني : من تتهمهْ ..؟
الصمت الاول : (...)
الصمت الثاني : هل يدري الناسُ حقيقة هذا التمثال .؟
الصمت الاول : لا أدري .. !!
الصمت الثاني : هل تخفي دوما هذا السر .. ؟
الصمت الاول : أعتذر عن الرد الآن ..
الصمت الثاني : (...)

الاسكندرية
دكتور وصفي صادق



عن أبعاد البطولة والمقاومة في الشعر العربي

بقلم محمد الجزائري

— ١ —

حين يكـون الشعر تجسيدا مكثفا ومرهفا للانسان ولطبيعتـه ، فهو يتحد بكل ارهاصات الحياة ، والكون .. الشعر يتحول . هنا ،الى ملقط انساني يتناول ابرز مشاكل الانسان وتطلعاته .. ويحيلها الـى جمرة متقدة ، تنيـر وتوقد العديد من ظلمـات الارض ، وتطهرهـا .. اذ ان الشعر في هذه الحالة ، يكـوّن فعـاليـة انسانيـة مؤثـرة، ومتفاعلـة مـع الوجـود الانساني عمومـا ..

« ان الشعر يجسد الانسان وطبيعـة الانسان الذي بيننا ،والذي اخذ على عاتقـه هدايـة نفسه والاخرين الى حيث تتفتح بأوسـع آفاقها ، ملكاته العميقة .(١)وهذا الفهم المكثف الذي يطرحه تريستان تزارا (٢) لوظيفـة الشعـر الانسانية ، هي تجسيد حي لارتباط الشعر، كعالم ، بملكات الانسان الشاعر ، وانفتاح آفاقه ..

واذا اخذنا شعر المقاومة ، وفق هذه المقولات ، نرى ان قضية شعر المقاومـة تكتسب بعدا انسانيا وفنيـا في ذات الوقت ، اذا لم تعـزل الشعـر ولا الشاعر . عن الظروف المادية والذاتية المحيطة بهماوالمتأثرة والمؤثـرة فيهمـا ..

وسيكون « ــ من الشطط الاعتقاد » ــ كمـا تحدث تزارا عن تجربته الشعريـة ابان المقاومـة الفرنسية ــ :« بأني اعطي لشعـر المقاومة قيمة تزيد على القيمـة التي اثبتت جدارتهـا تاريخيـا ضمـن لحظـة شامخـة بشكـل خاص ..»

لـماذا ؟

يقول تزارا :« ان التزاوج بيـن الشعر والنضال ــ وهذا مايفعله شعـراء الارض المحتلة عمليا ــ ليس بذي قيمة الا بالنسبة لاولئك الذين يتنكبون مهمـة هاتين الصبوتين وفقا لامكانياتهم الحيانيـة المتفاوتـة حتى الحد الذي يختفي فيه « التعليق ليفسح المجال للحقيقة بكـل سؤددهـا ..»

وكما تؤكـد الحياة ، عندنا ، وعلى الارض المحتلة ، يبقى لشعـر المقاومـة اهميـة خاصة .. اذ « ان أهمية هذا الشعر تنبع من البرهنة على ان شرعيته وصحته تستطيعـان الاستجابة في بعض الحالات الـى ضرورات جماعية مثلمـا تستجيب التجربة الشعريـة بصورة عامـة لضرورات الفرد .. ان مثل هـذا الشعـر لا يلتصق بالحدث فقط ، انما يندفـع كليـا معه . انه بالنسبة للحدث ــ دعم فعال في الوقت نفسه الذي يعاني فيه ، منه .. ومن شروطه المعطاة من قبل مكوناته .

وفي لحظات التمرد الجماعيـة يستطيع هذا الشعـر ــ الى حد ما ــ استنفـار مجموعـة النشاطات الطبيعيـة الدفينة ، والتي تبـدو متناقضة ظاهريا ، كمـا ينبغي صيانـة تراث القيم التي كرس التيـار الثوري الشعري نفسه لهـا وليس لمجرد انهـا تشكل اثراء لميدانالمعرفة، وانمـا لان التيار الايديولوجي الثوري ــ الذي يبرز خارج الشعر ــ يصبح ــ من اجل الالتحام بالشعر ــ قاعدة استناد فوق صيرورة هذين التيارين متخذا بنظـر الاعتبار منجزات نظريـة تستطيـع ان تمـارس عملهـا بحد وسطي من الضرورة ، وبعبارة أخرى بحد وسطي منالشرعية، وفي مثل هـذا الشرط يستطيع الشعر ان يكـون عنصرا فعـالا فـي واقـع الحيـاة ..» (٣)

ولكي نؤكـد ضرورة ان يكـون الشعر عنصرا فعـالا في الواقـع، يمكننا الاستشهاد ــ في التعميم مثلا ــ بشعر المقاومة في فلسطيـن المحتلة ــ بالذات ــ وتأثيره الفعال على واقعنا العربـي ، وانساننـا العربي خاصة بعد الخامس من حزيران ١٩٦٧ .. وبالضرورة فـان انتشار وترجمـة هذا الشعر يستهدف ــ اذا استثنينا الروح التجارية لدى بعض الناشرين ــ الاسهام في تغيير بنيـة العلاقات ليس علىالارض المحتلة ، وحسب ،بل في البلدان العربية والعالم .. اذا استمر يحمل رؤاه الثورية الاصيلة ذاتها ، النابعة من ارض نضالية ــ هي فلسطين المحتلة ــ ومن الايديولوجية العلمية ــ هي الماركسية اللينينيـة فـي الغالب ــ لذا فـان هذا الشعر ــ وعلى الصعيد الواقعي ــ يلتحـم « كواسطـة للتعبير وكنشاط روحي » وانساني ــ ضمن ديالكتيك معقد يجعل من الشعر ذلك الالتحام الواعي بيـن ما ضمر منه وما ظهر .. « بالاضافة الى الصفـة التـي تمنحـه صوته المميز ولغته المختارة » كشعر نضالي يجسد « ابعاد البطولة » الحقيقية ، ليس على الارض المحتلة ، وحسب ، بل على كل الارض التييناضل فيها الانسانمن اجل تغيير بنيـة العلاقات الانتاجية والاجتماعيـة ، ومن ثم تغيير العالم ..

ان تغيير الانسان ، وتغيير العالم ، هما سمتان من سمـات الرؤية الثورية في الشعر العربي في فلسطين المحتلة ، وفي النضال .. لذا فلكي نضع نصب اعيننا ،هذه المسالة ، نحتاج ــ بالضرورة ــ الى فهم علمي سليم لكل جوانب ومعطيات وبدايات واهداف الحركة الشعرية ، ليس محليـا او عربيـا ، وحسب ،بل وعالميـا ، التي تتمثل فيهـا روح المقاومـة ..

لان لغـة الشاعر هي « عنصر حي وغالبا ما تكون في حالـة تغيـر وخلق لانهـا حقيقـة اجتماعية ..

— ٢ —

لذا ففي تناول مسائل الشعر والمقاومة ، في الارض المحتلة .. من الضروري الاتصاف بالموضوعية والوعي الكامل لابعاد القضية الفلسطينية ، بل وقضية الثورة في الوطن العربي — عموما — ..

والمبدأ الاساسي الذي يمكن الركون اليه في خلق الاستنتاجات لابعاد المقاومة ، او ابعاد البطولة في شعر المقاومة ، هو دراسة الارضية الفكرية التي انطلقت منها الكلمة — البندقية .. وعلى الصعيد العربي . فالاشكال الجديدة التي فرضتها مرحلة ما بعد الخامس من حزيران ٦٧ .. في تطوير اساليب النضال من اجل تحرير الارض المحتلة ، وخلق البديل الثوري : دولة فلسطين الديمقراطية الحرة .. ليست ((اشكالا لمضمون الصراع اليومي بين دولة عنصرية غاصبة وشعب مغلوب على امره ..)) (٤) .. بل هي انعكاس مرحلة التحرر الوطني الفلسطيني في ارتباطها العضوي مع حركة التحرر العربية وحركة التحرر في العالم اجمع .. هذا الانعكاس والتفاعل ، حمل ((ارادة التغيير)) في الوسائل والاساليب ، ووضع لبنات فكر ثوري — لبعض اجنحة العمل الفدائي — ومشاريع ثورية ، حتى لمرحلة ما بعد التحرر .. وبذلك اكتسب العمل الفدائي طابع الثورية الاصيلة ، أيضا ..

لذا فان تقسيم وتصنيف الثورة وقواها ، والمقاومة وابعادها في الارض المحتلة ، على اساس اجتهادات فردية قلقة ، ومتضادة ، لا تدلل على فهم واع لابعاد الواقع النفسي وواقع التجزئة ، ولا للبديل الثوري الذي طرحته الرؤية الجديدة للعمل الفدائي ، في الارض المحتلة . .

بل ان اعتماد فكر المقاومة ك . شكل)) نضالي ((للمعارضة)) او ((الاحتجاج)) منطق فيه الكثير من التجني لتاريخ وجذور وفكر العمل الفدائي والمقاومة ، ابتداء من منظمة جبهة الارض ومثل ذلك ، منذ الثلاثينات ، وحتى يومنا هذا ...

وان ((تعدد ابعاد البطولة في شعر المقاومة العربية المعاصرة))(٥) هو ناتج طبيعي — باعتقادي — لوجود انظمة حكم متباينة ، وبنيات اجتماعية متباينة ، أيضا .. واستقبالات وردود فعل نفسية ومصلحية للعمل الفدائي ، متباينة .. كذلك .. في كل بقعة من ارضنا العربية ... وبالمقابل لوجود حركات ثورية وجماهيرية متباينة ومتشعبة وذات منطلقات ورؤى تاكتيكية وستراتيجية مختلفة ومتصارعة ..

ومن هنا ، لا يمكن اعتبار شعر المقاومة شعرا ((معارضا)) او ((احتجاجيا)) — حتى على الارض غير المحتلة — بل انه شعر مقاوم يمتد نظريا في تاريخ النضال العربي ، منذ الاربعينات ، بل انه ليمتد منذ العشرينات على وجه التخصيص — في تاريخنا الحديث — (في العراق منذ ثورة ١٩٢٠ وفي مصر منذ ثورة ١٩١٩ وفي الجزائر منذ حركة عبدالقادر الجزائري . الخ) وقبل ذلك في تاريخ الادب العربي القديم ، على مر الدهور ..

وان شعر المقاومة لا يقف عند حدود — الشعر الفلسطيني — قطعا .. بل ان الشعر الفلسطيني اكتسب أهمية خاصة ، عبر تعميقه لرؤاه الثورية ، قبل وبعد ٥ حزيران ، حين تبلور اتجاه درويش — زياد — القاسم .. كشعر ثوري ، وليس شعرا بكائيا كشعر فدوى طوقان — قبل ٥ حزيران — وبالذات قبل ديوانها ((الليل والفرسان)) ...

بل ان شعر المقاومة الفلسطينية ، يتصل حضاريا ، ونضاليا بالشعر العربي الثوري ، وشعر حركة الشعوب المحبة للحرية والسلام في العالم اجمع .. انه شعر عربي ، واممي ، في الوقت نفسه ..

ولو كان التطبيق الفردي لقيم الشعر الذي يسعى لتطبيقه كاتب كفالي شكري ، يحقق اللقاء السليم في الهدف والنوايا والمنطلقات ، لما وجدنا ضرورة لهذه المقالة .. ولكن لكون الكاتب يضع سبب وجود ((ابعاد البطولة)) — خارج ميدانها السليم — و ((تعدد الجبهات التي يناضل عليها الانسان العربي)) — وهذا صحيح — ثم ليعود يناقض نفسه في اعتبار ((شكل)) الصراع بين الشرق العربي والاستعمار الغربي ، انما هو ((مضمون)) ((الصراع اليومي بين دولة عنصرية غاصبة وشعب مغلوب على امره ..)) هو عنصر ((تفهم)) شعر ((المعارضة)) كما يسميه ، في الارض المحتلة ، وشعر ((الاحتجاج)) كما يسميه آخرون .. فذلك ما نختلف واياه به ..

— ٣ —

اولا : ان افق الصراع العربي — الصهيوني ، هو افق اوسع من الرقعة الفلسطينية .. اذ هو الصراع بين الشعوب العربية المحبة للحرية والتقدم والاشتراكية ، وبين قوى الامبريالية والاحتكارات في العالم اجمع ..

وبهذا يخرج طابع الصراع من ((شكل)) المعارضة للدولة — اية دولة كانت اسرائيل او السعودية او غيرها — الى ((مضمون)) العمل الثوري المنظم ضد الاستعمار والصهيونية والرجعية وركائزها .

ثانيا : ان اساليب الكفاح — المقاومة — تعددت بتعدد طبيعة الملاكات الثورية ، والمناطق الثورية ، والامكانات الجماهيرية .. بدءا من الكتابة على الحائط وحتى الكفاح المسلح .. ثم وبالمقابل تتنوع وازدياد وتيرة التحشيد العسكري والمساعدات الامبريالية للجيش الاسرائيلي ثم لاقتصاديات الحرب لدى اسرائيل ، وعموم تصنيعها ، وتخطيطها ، بل وعلمية اساليبها في المواجهة والتوسع والاستيطان والعدوان ، سياسيا وفكريا ، وعسكريا واعلاميا .. واقتصاديا ..

ومن هنا فالشعراء ، والشعر المقاوم ، ظلا يلازمان الثورة — كطريق اوحد — بدءا باساليب الكفاح التمهيدية ، وانتهاء بمرحلة التحرر الناجز .. ليس في فلسطين المحتلة ، وحسب ، بل في كل شبر من الوطن العربي ، فالشعر الفدائي الثوري ، هو الشعر الذي جابه ويجابه الاحتلال والعسف والاضطهاد والحكم الدكتاتوري ، بل وكل اشكال التسلط والبيروقراطية ، والاجهزة التي تعيق وتعرقل مسيرة الثورة العربية الظافرة ، في هذا البلد العربي ، او الجهاز التنظيمي او الفئة السياسية .. او ذاك ..

وثالثا : ان العمل الفدائي هو جزء من العملية الثورية ، في الوطن العربي ، والعالم .. ويكتسب الفدائي صفة الثوري حين يمتلك نظرية ورؤية ثوريتين .((فالعمل اعمى بدون نظرية مرشدة)) لكيما يستطيع العمل الفدائي تخطي المرحلية ، واكتساب صفة الشمولية والنظرية المستقبلية في البناء ، بعد الهدم ، وفي التحرر بعد الاحتلال ..

ورابعا : أن الادب المقاوم هو ناتج طبيعي للشعب المقاوم . مهما تعددت جبهات الارض ، واختلفت — نوعيا — فثمة ادب مقاوم في العراق منذ ثورة ١٩٢٠ (٦) .. وثمة ادب مقاوم للحكومات والعقليات الديكتاتورية والفاشية ، وغيرها حتى بعد ثورة تموز ١٩٥٨ ، عندنا .. وفي ج.ع.م ثمة ادب مقاوم حتى بعد ١٩٥٢ ، وللان .. لكل سلبيات الواقع المجتمعي الذي تركته سنوات الاحتلال والاستعمار والملكية والبيروقراطية والتسلط ...

ان المقاومة والفداء . عمليتان حضاريتان .. بمعنى ان العمل الفدائي ، او المقاوم يسعى من أجل ازالة واقع سلبي ، وبهذا يحقق بالمقابل — كبديل — واقعا ايجابيا ، او يسعى لذلك .. ليس عبر الحلم الثوري — وحده — بل عبر الواقع الثوري ، عبر عملية التغيير .. وبهذا فهو يضيف حضاريا ، اضافة انسانية لمجموع التراث البشري ..

لذا فان الصيحة ـ النشاز ـ التي تطلق هنا وهناك ، لرفض شعر المقاومة في الارض المحتلة ، والتقليل من أهمية شعراء الارض المحتلة ، واعتبار هذا الشعر ، وهؤلاء الشعراء « معارضين » فقط .. بل ان الجانب المتهم ـ كغالي شكري وبعض الادباء في العراق ـ يعتبرون انفسهم ـ ماركسيين وثوريين .. وهم في الموقع العلمي ، بصف الرجعية الفكرية ، حتى مع كل صيحات التجديد التي يطلقونها تقليدا ، وليس أصالة ولا وعيا ، ولا تخطيا .. وبذلك يضعون ـ المسطرة ـ « التجديدية » التي يقيسون كل شيء وفقها، ان يكون الشعر « ادونيسيا » ـ مثلا ـ فهو تجديدي ، والا .. فهو مرفوض لانه « لا ينثني على العالم » .. وما شابه !

هؤلاء رجعيون ، بسبب كونهم يطلبون ـ بوصاية ما ـ من كل الشعراء ان يكونوا شعراء « هواء العالم » و« المخلوقات الجميلة » وغير ذلك .. والا فهم « منعزلون » عن حركة « التجديد » التي يفتح ابوابها ، بعد ان اوصدتها رياح العالم ، بعض الفتية عندنا ـ رغم كل تطلعات الشباب المشروعة في التجديد والتجريب والمعاناة الشعرية ـ بعد سنوات من تخلي روادها الاوائل الذين طلق أغلبهم السريالية والدادية وكل هوس الشكل المحض ..

— ٤ —

لذا فالادب المقاوم هو الذي يرفض كل الركام السلبي من موروثات العهود الماضية ، أو كل الاساليب التي تقف ضد ارادة الشعوب في تغيير العالم .. وهذا الادب ما دام يحمل ارادة التغيير والثورة ، فهو لا يفلسف العالم ببؤس ، وهكذا يكتسب الشعر الفلسطيني في الارض المحتلة ، صفة المقاومة ، كذلك الشعر العراقي والمصري و ... على كل الجبهات العربية ـ مع تعددها ..

اذن ، ليس المهم ان نعيش كما نعيش ، بل المهم ان نفكر كيف يجب ان نعيش كما يجب » كما قال عمر فاخوري يوما .. وأضيف وان نعمل لكي نحقق العيش كما يجب ، بهذه السعة التي تتحملها « ابعاد » كلمة « مقاومة » من مضامين ..

فالمقاومة لا تعني ولا تتمدد بافق الكفاح ضد المحتلين الاجانب، وحسب ، بل تتسع لتشمل كل سلبيات الحياة والانظمة والحكومات .. الخ .. من اجل بناء المجتمع الفلسطيني السعيد في دولة حرة متحررة .. لذا فان اقرار بقاء « دولة اسرائيل » هو موقف رجعي .. اذ انه ينفي اي تطلع لايجاد دولة فلسطين الديمقراطية الحرة، لان اسرائيل وجود احتلالي ، توسعي ،عدواني .. وهو يرتبط ـ ككيان ـ بالامبريالية العالمية ..

لذا فان اقرار وجود « شكل » دولة اسرائيل ـ كأمر واقع ـ يكون من الطبيعي على فهم غالي شكري : ان يكون « شكل » النضال العربي ، شعرا او سلوكا ، وحتى كفاحا مسلحا ، هو « شكل المعارضة » !!..

ومع ادراك ان الفدائي المعاصر لم يعتبر وجوده ، يوما ، داخل فلسطين المحتلة « أمرا طبيعيا » فهو لم « يتعايش » ايديولوجيا . او نفسيا ، او اجتماعيا مع نظام الحكم الصهيوني الاستعماري .. بل ولم يقر يوما اية مشروعية لهذا النظام في اي عمل يتخذه .. فكيف يمكن ان يتحول شعر الفصائل الثورية من المقاومين ـ داخل الارض المحتلة ـ الى « شكل معارضة » ؟!..

وحتى لو أخذنا كلمة « معارضة » بحدها الاستقطابي الادبي، فهي تجمع محورها جبهة عريضة من الناس داخل فلسطين المحتلة: عربا وغيرهم (مسلمين ومسيحيين ويهودا يقطنون فلسطين قبل الاحتلال ولم يغادروها) ويهودا ، يعارضون طبيعة الحكم وتركيبه وسياسية ممن جاءوا بدوافع غير استيطانية الى فلسطين .. وهم الفصيل الاول من سكنة الارض العربية المحتلة ..

اما اليهود الذين نزحوا بشكل او بآخر الى فلسطين ، من منطلق الدعوة الصهيونية لخلق فلسطين كأرض للميعاد .. فهم استعماريون شاءوا ام أبوا .. وهم الفصيل الثاني ـ المستعمر ـ ..

لكن الفصيل الاول ، لا يمكن شطبهم وشطب وجودهم في حالة اعتبار قضيتنا الاساسية ليست قضية محو شعب او قوميات، بل محو كيان احتلالي (صهيوني ـ امبريالي) ، وتحرير الارض والانسان في فلسطين والارض المحتلة كلها ..

لذا فان الخلط بين الصهيونية ـ كمذهب عنصري استعماري ـ وبين اليهودية ـ كدين ـ من جهة وبين العرب سكان الارض الاصليين ، وبين النازحين اليهود ـ بدافع استيطاني او ديني عنصري ـ نجد ان ـ ديالكتيك ـ الكاتب « شكري » لم ينقذه .. اذ ـ حتم ـ ان « شكل نضال شعراء الارض المحتلة » هو « شكل المعارضة .. » لا غير ! .. وايده بعض الاخوة في العراق !

اما اذا رفض شعراء الارض المحتلة « شكل » و« مضمون » الوجود الاسرائيلي ، وارادوا خلق البديل الثوري وهو : دولة فلسطين الحرة الديمقراطية ، التي يتعايش فيها العرب المسلمون واليهود والمسيحيون ، بشكل متكافيء ... فان حالة الرفض هذه التي تجد شكلها الواضح ليس في اشعارهم فقط ، بل في نضالهم اليومي وصمودهم أيضا ، لا تتخطى حالة« المعارضة » ـ كما يبشر الكاتب ـ فالوقائع تفند هذا التخريج والتكييف السياسي ..

— ٥ —

كيف ؟

في مقابل عدائنا ـ كماركسيين ـ للصهيونية . وتمييزنا بين اليهودي الذي لا نعادي يهوديته المحضة . الا اذا تحول الى صهيوني ـ اقول ، مقابل ذلك « لا ينبغي لهذا الحرص الحق على النظر الى الاشخاص كل على حدة ، وعلى احترام كل انسان وقيمته اللامتناهية، ان يعطل الكفاح من اجل تنظيم اكثر انسانية للعلاقات الاجتماعية»(٧).

لذا فان المناضل الثوري في فلسطين والارض المحتلة يلجأ الى اساليب عديدة في الكفاح . « فمشكلة الوسائل » في الكفاح الضروري من اجل تغيير بنية وتركيب شكل » و« مضمون » الدولة في فلسطين و« شكل ومضمون العلاقات القائمة ، لايجاد البديل الثوري، تطرح نفسها على اليهود ، تماما ، كما تطرح نفسها على الماركسيين العرب .. ولا يملك اليهود « الا ان يتجنبوها لانه لا خيار لنا ـ ولا للمقاومين العرب ـ (٨) ابدا بين العنف واللاعنف .. فنحن في قلب المعركة ، واستنكافنا او التزامنا ، يلعب دوره في ميزان القوى ، ولان نستنكر عنف العبد الذي يتمرد ، موقف يجعلنا شركاء في العنف المستمر الذي يمارسه السيد الذي يضع الاغلال في قدميه .. فاذا كان اليهود « يرتضون ان يكونوا جنودا » ضد العرب « فلم لا يكونون مقاتلين في صف « المقاومة » او مناضلين ثوريين ضد اسرائيل ! ؟.. « انهم اذا رفضوا ذلك فليس « الوسائل » ما يرفضون ، ما داموا كجنود قد ارتضوا العنف . بل « الهدف الثوري ذاته » .. وبذلك فهم يخرجون ـ في هذه الحالة ـ من موقف اليهود ، المحض ، الى اليهود الصهاينة .. وبذلك لا يمكن التساهل ـ هنا ـ معهم من منطلق النظرة الدينية و« التسامح الديني » : «(فان التاريخ قد علم الماركسيين الا ينخدعوا بالموقف الديني المحض ، موقف العداء » تجاه العرب ، وتجاه المسلمين عموما ، وتجاه الشيوعية ، مثلا : «(لانه حصيلة الخلط بين الاخلاق والمنطق وزعم قدرة الايمان على ان يوفر مباشرة ، اشكالا ذات طبيعة سياسية واجتماعية ،دون الاعتراف باستقلال ذاتي للحياة الدنيا .وبانه لا بد من استخدام مكتسبات المعرفة العلمية الخالصة ليستطاع الى اصدار حكم على « شكل » من اشكال العلاقات الاجتماعية او على نظام سياسي ..

وما يكرهه الشيوعي - وهذا ما يحدث لشعراء المقاومة . في فلسطين المحتلة (٩) في المؤسسة الدينية ، هو ذلك الرباط الذي يجعلها في تحالف » مع مضاد الثورة .. (١٠) مع اعداء الانسانية واعداء العروبة واعداء حرية فلسطين كوطن اصيل للعرب ..

- ٦ -

شعراء الارض المحتلة غرباء في وطنهم .. كيف ؟ .. انهم ليسوا « منفصلين عن الطبيعة عن طريق العمل والانتاج .. »(١١) وحسب ، بل وان غربتهم من نوع احد واعمق .. اذ مع ان الارض كانت أرضهم ، كذلك الطبيعة .. لكنهم لا يحققون الالتحام مع المجتمع عبر علاقات العمل والانتاج .. انهم يلتحمون مع الشعب الفلسطيني ، بل مع الشعب العربي بخاصة . وشعوب العالم المتحررة والمناهضة للاحتلال والامبريالية والعسف ، عموما .. لذا فهم يكتسبون الغربة داخل ارضهم . بمعاناة جديدة ، انهم يحسون ان « هذه الغربة ضرورية - كما يقول آرنست فيشر - لتطور الانسان ، ولكن لا بد من التغلب عليها باستمرار .. وذلك حتى يعي الناس كيانهم اثناء عملية العمل ، وحتى يجدوا انفسهم مرة اخرى ، في نتاج عملهم ، وحتى يوجدوا - وهذا هو المهم في شعر شعراء الارض المحتلة - اوضاعا اجتماعية جديدة لا يكونون فيها عبيدا لانتاجهم بل سادة له .. »

ومن اجل هذا ، فأن محمود درويش وسميح القاسم وتوفيق زياد وغيرهم .. حملوا جوازات سفر اسرائيلية ، وهم فلسطينيون عرب للاعماق .. وذهبوا ليمثلوا « غربتهم » ويعكسوا تغربهم - في ارض الميعاد !! - عبر مهرجان صوفيا العالمي للشباب ...

ان هذا الرفض للتغريب ، هو انعكاس وضعية الاضطهاد على الارض المحتلة . وان الحصول على جواز سفر اسرائيلي هو دلالة جديدة تضاف الى دلالات الاضطهاد ، وتعمق قناعة الرأي العام العالمي بأحقية الشعب الفلسطيني لاستعادة حقوقه وهويته وشخصيته الكاملة على أرضه ووطنه .. اذ ان الصهاينة ينفون ان يكون هناك شعب فلسطيني ، وهم يحاولون طمس كل معالم هذا الشعب العربي .. لذا فهم يعطون لدرويش والقاسم وزياد .. جوازات سفر (غير فلسطينية) امعانا في اضطهادهم وتشويه هويتهم الفلسطينية ..

والشاعر يعاني هذه الغربة القسرية ، اضافة الى صنوف الاضطهاد الاخرى .. ومع ذلك .. يأتي البعض فيسهمون - مع الصهيونية - شاءوا أم أبوا .. لتعميق هذه الغربة القسرية ، حين يضعون اسلاكا شائكة جديدة على عناوين واسماء وشعر وسلوك هؤلاء المناضلين الفلسطينيين الذين يواجهون ظرفا اسوأ من الموت .. اذ يلتقي الذين « انتفضوا بهستيرية » يشتمون ويشنعون ضد شعراء الارض المحتلة مع الصهاينة في محاولة سحق الشخصية العربية الفلسطينية المقاومة ، بالذات ..

بل ان غرض اجهزة الاعلام الصهيونية ، خلق عناصر التشكيك بجدوى وجود شعر المقاومة ، بل بجدوى وجود المقاومة ، والعمل الفدائي ، ككل .. وان هذه المسألة من الخطورة بحيث مرت - كلعبة دقيقة التخطيط والصنع - على العديد من الادباء ، بل ومن الدول العربية !.. دون ان تثير تساؤلا كبيرا من الناحية الايجابية الا بعد ازمة لبنان مع منظمات العمل الفدائي ..

ان اعلامية الصهاينة ، تركز - في الجانب النفسي - ضمن ما تتركز ، على ابقاء حالة التشكك وغياب الثقة ، وخلق عنصر الريبة . في كل قلب عربي ، ولكل فئة ، وجهاز ونظام حكم .. لكي تظل قوانا الاعلامية والعسكرية (الشعبية والرسمية) تتضارب وتكيل التهم الى بعضها البعض .. وبالتالي ، لكيما يظل العرب غرباء عن بعضهم .. ويمكن - بعد فرقتهم نهائيا - ضربهم بسهولة .. ولقد تحقق تطبيق جزء من خطة العدو بشكل او باخر في الخامس من حزيران وبعده ، ولوقت قصير ، عبر « الجسور العفوية » و« الواعية ! » لتمرير هذه المسائل .. ومنها الموقف من شعراء الارض المحتلة في مهرجان صوفيا .. وفي الرأي العام العالمي ..

ولم يأخذ هؤلاء بعين الاعتبار ان الغاية التي من اجلها سافر شعراء الارض المحتلة هي جزء مما يسعون اليه لصنع تاريخ فلسطين الجديدة .. ومع ذلك ، فهم لم يتحدثوا عن فدوى طوقان ولم يشككوا في جواز الصهاينة معها ، لانها فدوى .. بل ولان الهوية الفكرية هي « بعض » ما يثير حفيظة « البعض » في الوطن العربي ..

- ٧ -

ان المهمة الاساسية التي تواجه شعراء الارض المحتلة ، بل كل الكتاب التقدميين هي مسألة العمل للاسهام بصنع التاريخ الجديد لوطننا العربي ، « فالانسان ، الانسان الواقعي ، الانسان الحي ، انما هو الذي يعمل ويمتلك ، ويناضل كما يقول ماركس في « العائلة المقدسة » اذ ليس « التاريخ هو الذي يستخدم الانسان ليبدع » بل « ان التاريخ ليس الا نشاط الانسان متابعا غاياته .. »

وأظن ان الذين يسيئون لشعراء الارض المحتلة ، يدركون جيدا قولة انجلز التي استقاها من هيجل :« الحرية هي معرفة الضرورة » والتي اغناها ماركس بقوله :« الحرية هي الوعي الذي يجتازه الانسان عن ذاته في عنصر الممارسة ، اي هي المعرفة التي يمتلكها انسان عن اخر بوصفه مساويا له .. » (١٢) .. وان - هذا الوعي - قد تحقق لدى شعراء الارض المحتلة - كمناضلين - استطاعوا عبر « عنصر الممارسة » ان يحققوا لانفسهم « الحرية » .. فهم « احرار » مع انهم سجناء الاحتلال الصهيوني ..

لذا فازاء موضوع الحرية ، نجد « ان - وحدة الاخرين - الحية المحسوسة ، اولئك الاخرين الذين يؤلف كل منهم تجاه غيره مركزا لا ينضب من الثراء والتساؤل هي الواقع الاساس ، حقا ، فما يملك فرد او شخص - في منظور الانسية الماركسية - ان يكتمل تفتحا الا اذا هو انغمر فيها وتلقى منها الحرارة والحياة ، ولكننا لا نستطيع في اية لحظة ان ننسى علاقات الاستقلال والاضطهاد ، مع كل ما تولده من صور « الالينة في كل نظام طبقي • هي التي تحول دون هذا التواصل الانساني والكفاح ضد هذه العوائق هو هدفنا الاول كمناضلين » - كما يقول روجيه غارودي - فان « علاقة الانسان الفاعلة مع ذاته - يقول ماركس - ليست قابلة للتحقيق الا اذا هو استخدم فعلا ، كل قواه النوعية ، وهذا بدوره لا يستطاع الا بعمل البشر الجماعي ، الا كنتيجة للتاريخ .. » (١٣)

فمسألة حرية الشاعر ، كفنان ، لا تنفصل عن نضاله ، وان « علاقة الانسان مع ذاته » ومع « الاخرين » هي بمقدار فاعليته النوعية ، بالاخرين وبالمسار التاريخي ضمن عملية البشر الجماعية لصنع التاريخ ..

وما فعله شعراء الارض المحتلة ، كان تفهما عميقا لشروط حريتهم الذاتية ، حريتهم الداخلية ، وكرفض واضح ، لسجنهم الخارجي ، والعسف الذي يلاقون ..

فالحرية ، هنا تكتسب بعدا اعمق ، من الفهم « التحرري » ... ولقد كانت فدوى طوقان ، حرة حتى النخاع . حين اجابت بموضوعية ووضوح ، على اسئلة الصهاينة ابان محاورتهم لها ..

كذلك كانت حرية درويش وصحبه ، عميقة وذات دلالة ، رغم كل « اشكال » العسف والاضطهاد الموجه ضدهم في « شكل » تغربهم بمنحهم جواز السفر الاسرائيلي !

اذن « فمعرفة الضرورة » ، ما فعله شعراء الارض المحتلة ، بوعي خاص • تعميقا لانسانيتهم ولخطهم النضالي الواضح ..

— ٨ —

اما الكلام عن « المعجزة » الشعرية :« معجزة المقاومة العربية » كتعويض عن غياب « المعجزة الحقيقية » « معجزة المقاومة المسلحة » — سابقا — فهي تسقط أيضا ، في نفس التخبط الخاطىء في فهم طبيعة النضال على الارض العربية المحتلة « مع تعدد جبهاتها » اذ يبدو من كلام الاستاذ غالي .. انه لا يريد ان يوجد — مقاومة مسلحة — قبل الخامس من حزيران ١٩٦٧ . وكأن احداث بور سعيد عام ٥٦ وبطولات الجزائر عبر المليون شهيد ، واليمن والعراق وسوريا (ولبنان ٥٨) .. وهي احداث قريبة للذهن .. لا تدرج ضمن — معجزة المقاومة المسلحة — ..

ولكون معجزة المقاومة لم تدرس — كما يجب — من قبل نقاد الادب والسياسة ، في العهود الماضية كلها .. فلا يعني انها لم تتغير نوعا نحو الافضل ، اما من حيث المضمون فالكاتب الفاضل قد يتجاهل ان هذا الادب الذي « لم يتغير نوعيا ، بعد الهزيمة » مع ان الاسماع قد عرفته قبل الهزيمة الاخيرة بسنوات » — على حد تعبيره — قد تغير بعمق .. فلو راجعنا الدواوين والقصائد المنشورة لمحمود درويش والقاسم وزياد والاخرين .. في جريدة « الاتحاد » ومطبوعات جبهة « الارض » ثم في مجلة « الجديد » وغيرها .. ثم بعد ذلك فيما وصلنا من دواوينهم .. بشكل متواز مع سعة العمل الفدائي وتبلور فكر ومنهج أغلب اتجاهاته .. والتغير النوعي الذي طرأ على قيادات العمل الفدائي .. لوجدنا اكثر من دليل يؤكد صحة ما ذهبنا اليه ..

ومع ان قصائد شعراء الارض المحتلة اعتمدت النظرة الماركسية للحياة . فهي لم تخل من نقاط ضعف وهنات في التقنية ، والوحدة الموضوعية ، وبناء القصيدة عموما ، لكن توفيق زياد في شفافية صوره ، وكثافة قصائده ، وخاصة ديوانه الاخير « — ادفنوا أمواتكم.. وانهضوا » الذي يعتمد دراسة الظواهر الحياتية ، في بساطة وتلقائية وتناغم متشاوق مع المعنى دون افتعال .. اوجد توازنا في التطور النوعي لقصيدة الفعل الثوري ... الى جانب قصيدة « الحبيبة والوطن » و« الامة » لدى درويش و لدى سميح القاسم ..

ويمكن أن نطرح فدوى طوقان كمثال آخر — كما قلنا — في بعض قصائد « امام الباب المغلق » و« الليل والفرسان » فهي رغم كونها غير ماركسية التفكير والمنهج ، فقد تحولت من موقع النواح والحزن المغلق على الذات الى مواقع التحدي وتصوير البطولات عبر شخوص فدائية ، ثورية كما في قصيدة « حمزه .. » وغيرها ..

لكن « المعجزة » لن تتحقق الا بالافعال الثورية ، لا بالالفاظ الثورية ، وان « المعجزة » هي من صنع الجماهير العربية المناضلة والمنظمة تنظيما وأعيا ومتماسكا ، والتي تتسلح بالنظرية الثورية ، وتتخطى مواقع الماضي وسلبياته ، والاطر الرسمية والفوقية للعمل النضالي .

ان الجماهير ، في كل قطاعاتها الفكرية والعسكرية ، هي صانعة المعجزات .. وان التاريخ لن يغفر لمن يجزىء المسألة ويفصلها عن ظواهر الحياة والمجتمع والتاريخ ..

— ٩ —

ان تجاهل صيغة الابداع في شعر المقاومة ، ثم تجاهل صيغة الثورة في مضمونه ، يدفعنا الى القول بأن الناقد غالي شكري لايعتبر الادب المقاوم ثوريا ، الا من خلال ما تقع عليه عيناه .. انه يمجد معين بسيسو — رغم احترامنا لشعره وتحفظنا من بعض تصريحاته — شاعرا ثوريا ، لانه عاش في مصر .. ويعتبر فدوى شاعرة مقاومة منذ البدء لانها عاشت — كما عاشت المرحومة سميرة عزام — قريبة الى الذهن المصري — في النقد والحياة ..

وهذه الاقليمية في الرؤية الى الادب والادباء العرب — من غير مصر — اصبحت موضوع الساعة ، لان اكثر من تأكيد يؤيد ما يذهب اليه بعض الاخوة الادباء — في مصر — حول هذه المسألة ..

انهم يتذرعون بعدم وصول نتاجات الادباء العرب في البلدان العربية الاخرى لهم .. والى غير ذلك مما كتب وقيل ..

اننا في الواقع لسنا ضد الروح المصرية ، لكننا ضد ان تتحول الى روح اقليمية ضيقة ، بمعنى أن ما لا ترضى عليه مصر — في السياسة والادب — ليس عربيا ، او ليس ثوريا .. ولا مقاوما ! .. لذا ليس غريبا ، قطعا ، ان نجد السخرية والتشكيك بالعمل الفدائي تحت غطاء كلمات المديح المتناثرة هنا وهناك في حديث الكاتب شكري حيث قال : ان « الذين ساروا تحت العلم الاسرائيلي في مهرجان صوفيا .. » ..« لا تتحدد نقطة انطلاقهم من المقاومة التحريرية الشاملة للوجود اليهودي ، وانما من المعارضة التامة للدولة الصهيونية » وقد نتساءل :

اولا : لماذا من « الوجود اليهودي » وليس من « الوجود الصهيوني »؟

ونجيب : بان العقلية التي اساءت للمعركة واضعفتها وسببت النكسة هي عقلية الخلط اللاعلمي والتعصبي بين اليهودية والصهيونية وهي عقلية اجهزة الاعلام — الانفعالية — التي خدمت توفتها لفة « نرميهم في البحر » — اسرائيل والصهيونية العالمية ، كثيرا ، خاصة على مستوى الرأي العام العالمي .

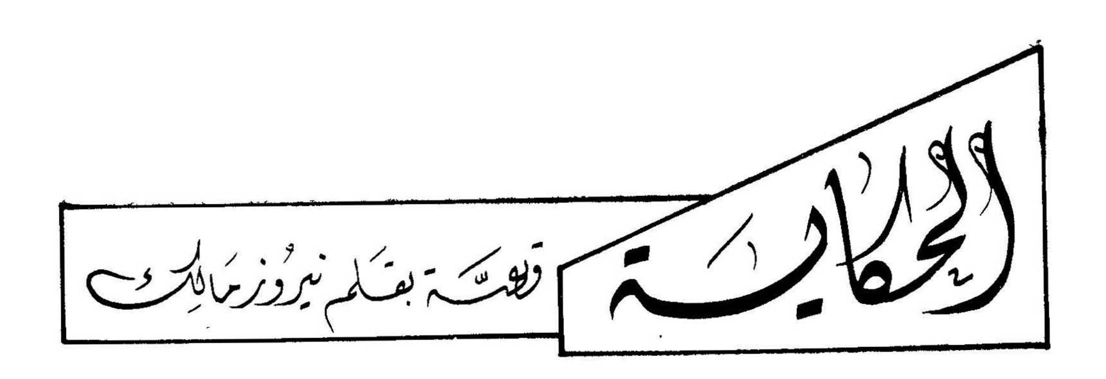
ثم .. ثانيا : ان كل قوى المقاومة — رغم تعدد جبهاتها — لا تنفي — الان — ان نقطة الانطلاق هي ليست في محو اليهودية بل في ازالة خطر وهيمنة الصهيونية ووجودها ، كوجود استعماري في الارض المحتلة .. وأظن ان مناقشات مؤتمر نصرة الشعوب العربية الثاني، المنعقد في القاهرة ، ليست بعيدة عن الذهن ..

ثم .. ثالثا : اننا نعتقد — كما اكدنا مرارا —(١٤) :« انه عبر فهم أبعاد القضية الفلسطينية تنمو أبعاد القضايا الوطنية الملحة للطبيعة الديناميكية التي تمتاز بها المرحلة الراهنة في الوطن العربي، وللمناخ الثوري المساعد والدافع لكل صعود جماهيري تحرري ،يدفع المسيرة التحررية العربية الظافرة نحو الافضل .. اذ ان من الحقائق الواقع العربي نوعية الانظمة الاجتماعية ، وقضية الوطنية الوحدة النضالية التقدمية والاتحادات العسكرية ، الثنائية . .الخ — وتنظيم قوى الثورة لتكوين موقف عربي موحد ومواجه ومتماسك ، للاسهام في انتزاع الارض المغتصبة وتحرير فلسطين المحتلة ، وازالة اسرائيل كوجود استعماري صهيوني ، استيطاني وتوسعي وعدواني .. وازالة كافة نوابعه في بنية المجتمع الحالي . على الارض المحتلة .. وهذا كله لن يتم دون تطهير أرضنا العربية من بقايا انظمة الاقطاع والاستعمار والقواعد الاجنبية والبيروقراطيات ، والديكتاتورية والتنظيمات والعقليات التي تمنح ثقتها لكل الحكومات ، دون تمييز، ودون ان تتحول نوعيا عن مواقفها السابقة !

ورابعا : — ان « الاتفاق الجديدة لثورة فلسطين » والتي شخصت اهتمامات الرأي العام العالمي الذي راح يتابع — ابعاد الثورة — بعد الخامس من حزيران ، بما نشهده الارض المحتلة وجبهة العمل الفدائي بكل اجنحتها ، من بدايات مكثفة لنضال تحرري عنيد .. هو الذي فتح عيون الرأي العام العالمي ، وكذلك ايضا الكتاب العرب !.. اما قبل « العدوان الاخير ! » فقد كانت « الاشكال » الرسمية للعمل الدبلوماسي وغوغائية الاعلام العربي ، والاقليمية وضيق افق المتحدثين عن فلسطين رسميا — كالشقيري — ورجعية العقول الكثيرة المتحكمة بهذا القطاع الوطني او ذاك .. دفعت باسرائيل لتعجل بعدوانها — ليس الاخير — في ٥ حزيران ! لتحقق بدعم من قيادة الامبريالية العالمية، المعادلة السياسية الجديدة للوضع العربي — الاسرائيلي :

ازالة آثار العدوان — فقط — كمقابل للاعتراف باسرائيل كوجود صهيوني استعماري قائم لاحلال السلم في منطقة الشرق الاوسط .

— التتمة — على الصفحة — ٨٢ —



ــ عن الرحيل ــ

الوقت مساء .. والسحب السود تنعقد في الافق .. ثم تزحف الى سماء المدينة ..

وآخر سيارة في « كاراج فلسطين » راحت تتحرك .. عندما جلس ثلاثة رجال على مقعدها الخلفي الطويل .. فاغلق المعاون بابها ... ثم صفر بلسانه للسائق . وصاح :

ــ امش يا ابا عبده .

انطلقت السيارة الى مخيمات اللاجئين .. فكانت تسرع حينا .. وتبطىء حينا آخر في سيرها .. تاركة وراءها مصابيح المدينة المضاءة مصلوبة على الاعمدة في شوارعها ، وعلى جدران بيوتها .. وما أن قطعت بضع مئات من الامتار خارج المدينة .. حتى بدت الاخيرة كبساط اسود تلمع على صفحته نجوم شاحبة .

ــ عن القهر ــ

اشاح الرجل الاول الجالس قرب النافذة بوجهه عن رؤوس الركاب ، وحدق من خلال زجاجها بالليل الذي انتشر بسرعة ... والقهر يمزق في عينيه صور ارض كان يملكها .

حرك لسانه في فمه ، ومضغ ذكريات مرة :

« لقد طردنا من الارض ، وكفى ..! لماذا ؟ كيف ؟ هذا بحث ثان ... لا وقت لدي للاجابة عليه ..! يكفي ان اعرف اننا عبرنا الحدود لا نحمل سوى جلودنا .. فحط البعض في ارض اشقائه .. وضرب البعض الاخر في الارض هائما على وجهه في عالم الغربة والضياع » واخرج سيجارة من جيبه .. وراح يعب منها انفاسا متقطعة ، وينفث دخانها من انفه وفمه .

« ومرت الايام ، وضاعت وجوهنا في لياليها .. فكنا لا نراها الا في اليوم الاول من كل شهر .. عندما تضمنا في صفوف طويلة امام مبنى الاعاشة .. وما تلبث ان تختفي ثانية في اكياس الرز والطحين .. فكنا نعود لنجلس امام خيمنا السود لطرد الذباب عن رؤوسنا ، وللبحث في المذياع عن حكاية عودتها الينا » .

وانتابه شعور بدوار حاد في رأسه .. فمد يدا مرتعشة الى زجاج النافذة .. وازاحه الى اليسار ــ فسرى داخل السيارة تيار بارد ــ

صاح المعاون :

المخيم .. المخيم .

حمل الرجل جسمه على قدميه ، ونزل من السيارة .

ــ عن حياة ــ

ازاح الرجل الثاني نفسه الى جانب النافذة .. ومد يده الى جيبه مخرجا علبة تبغه .. فلف منها سيجارة رفيعة جدا .. ثم قدم العلبة الى الرجل الجالس قربه قائلا : « تفضل يا اخ » .

ابتسم الرجل له . وقال :

ــ شكرا لا ادخن ..!

رفع سيجارته الى فمه يسحب منها انفاسا قصيرة ... فكان وجهه النحيل الطويل يتسربل بالدخان المنطلق من فمه ، وانفه بين تارة واخرى .

« مرة اخرى نسيت ان ابتاع ثوبا لام علي »

هذا ما حدث به نفسه « لا .. لم انسها .. ولكن ــ العين بصيرة واليد قصيرة ــ لقد اشتريت قميصا لعلي ، وسروالين لاحمد ومحمود ، وثوبا لسميرة ..وبعض اللوازم الاخر للبيت و .. مددت يدي الى جيبي .. فلم ار فيه الا بضع ليرات لا تكفي لعودتي الى المخيم ... بعد ان حرمت نفسي على مدى شهرين من كل شيء حتى من جلسة في المقهى مع فنجان قهوة ، وسيجارة غليظة مملوءة بالتبغ الاصفر » .

وندت عنه آهة متحسرة .. فرفع يده الى فمه ، وسعل ... فامتلأ فمه باللعاب الممزوج بالمخاط .. وسعل ثانية مكورا اللعاب في

فمه .. ما لبث ان بلعه .. وأسند رأسه الى مؤخرة الكرسي . وقال في ذاته .. وهو يطبق اجفانه :

« عليّ ان استيقظ غدا باكرا لكي اذهب الى مركز الاعاشة لآخذ منها نصيب الاولاد من السكر والطحين ».

صاح معاون السيارة :

المخيم .. المخيم .

رفع الرجل رأسه .. وتحرك من مكانه حاملا بيده اليمنى صرة متوسطة الحجم .. وباليسرى سلة صغيرة .. ثم نزل من السيارة .. واختفى في ظلمة الليل . .

ـ عن الرفض ـ

تحرك الرجل الاخير الى النافذة .. ونظر خارجا في الليل . . حيث المطر يسقط رذاذا على زجاج نافذة السيارة ، والبرق يومض في اعماق الفيوم .. فتلمع اطراف كتلها السود على داره المؤلف من اربع غرف في بيسان .. واشجار الزيتون والبرتقال في الحقل القريب .. وقطعة الارض الصغيرة التي كثيرا ما زرعها ابوه قمحا ..

وقطعت الدموع شريط الذكريات في عينيه .. فاغمضهما .... وضغط عليهما بشدة .. وتذكر « عندما كان لائذا بحضن امه يجهش بالبكاء ـ تذكر كلام والده العجوز يوم استشهاد اخيه الاكبر في غزة .

« عيب يا ولد ، البكاء للنساء »

فتح عينيه .. والتفت امامه . وقال لنفسه :

« اعرف صباح الغد قبل شروق الشمس .. ستقف امي قرب رأسي لتقول : ـ بني هل نسيت اليوم ـ انه الاول من الشهر ـ قم الى مركز الاعاشة .. ولكنني سأقول لها :

« لا .. ؟! »

والتفت صوب السائق . عندما سقطت كلمات الشتم ، واللعن في اذنيه :

« يا لهذا المطر اللعين لقد جعل الطريق قطعة صابون »

واهتز الركاب ... وتدافعت رؤوسهم الى الامام .. ثم تراجعت الى الخلف .. وامتدت الايدي الى مقابض المقاعد تتشبث بها ... عندما تزحلقت السيارة منحرفة عن الطريق .

قام الرجل من مكانه . واعماقه تهتز بعنف .. وهو يلتقط انفاسه ..

واشار الى المعاون المتشبث بذعر بكلتا يديه بمقبض باب السيارة الحديدي ـ اشار اليه ان يتنحى له عن الباب .. ثم نزل من السيارة.

ـ عن الرعد ـ

وقف الرجل يحدق في الليل الحالك مستبينا طريقه .. وكان الجو ينذر بعاصفة رعدية .. والارض يفوح منها رائحة المطر الذي توقف عن الهطول لتوه .. وكان الصمت مطبقا تماما ... واللحظات تمر ثقيلة لا تحتمل .

وجاءه صوت الرعد من بعيد .. من اعماق اعماق السماء ... ثم انتشر حتى فوق رأسه .. وومض البرق في بطن الفيوم .. واشعل مساحات واسعة منها .. ولمعت الطريق امام عينيه .

حلب ـ **نيروز مالك**

عذابات

ما بين البدء والختام

الملهاه

أن أرسم في العاده

بالفحم وجوه السادة

كي أمحوها بالممحاه !

***

المأساه

أن أنزع عني وجهي .. أن أنساه

ملتصقا في ألبوم السادة والاشباه

حينئذ .. يا ويلي لن يعرفني أحدٌ .. ،

حينئذ .. لن يعرفني الله !

***

حين انشطر الدرب انشطرت قدماي .. ،

تباعدتا .. وتباعدتا

تتعذّب من أجل الاشلاءِ الاشلاءُ ،

فآهٍ لو كانت قدماي تواعدتا

***

المأساة أم الملهاه

أن أرسم أوّل ما أرسم بالفرشاه ...

وجهي ...

فلعليّ يوما قد أنساه فألقاه

المأساة ام الملهاه ؟

فأنا بين الواحد والواحد علّقني الله

القاهرة **نصار محمد عبد الله**

● من ديوان « الهجرة من الجهات الاربع » يصدر هذا الشهر

قصيدة لعام ١٩٧٠

عن الحب والشعر والكفاح

أتصفح بعض عصوري
واعيد قراءة نفسي
واناقش .. حتى ابصر في مرآة الشاطىء لحناً أزرقْ
نسرا او طائر ماءٍ او خطافاً مرهقْ ..
وتئن منائر نفسي تحت حروفٍ صعبه
ويشطط طفل الزورق قبل وصول الزورقْ
وتصير قراءة ذاتي مثل اللعبه ...
افتح في ليل كتابي صفحتنا السبعينْ
سبعون وريقة صمتٍ مرّتْ تحت صرير الحرفِ
سقطت اوراق التين وأزّ خريف التين
في كل روابي الصيفِ ،
هبطت ليلى قبل أوانٍ من أوج الرقصه
حملت بين يديها سراً ـ كنت أظن السر
يحفر في اعصاب الكف حروف الكف
رحلت ليلى بعد رحيل الصيف
بعد رحيل طيور البحر .. وغيم البحر المرهقْ ...
اقفز في الطرقات وطفلٌ يقفز في قلبي ويقول :
مزّقني ارباً او مزّقْ اوراق كتابكْ ..
أنّ خريف الليل وانّت اصداء ثيابي
وهفا صوت صفير الريح وهمس الورد الازرق
سقطت ليلى عبر جنون الصمتِ
ومشى قيسٌ من صحراء البيتِ
هتفت ليلى في عينيه آخر مرّة :
« ليلي .. ليلي .. يا ليلي يا عيني »
ودنا قيس من ازهار الصمت
كان يصوّت في كفّيه شهيقُ النار
انكر قيس ليلى عشراً قبل صياح الديكْ !
ومشى يضحك في الطرقات ويصفع وجه الحرف
ثم ينقي كفّ الحرف من الشوك المسحور
ـ اكتب في صفحاتي الاولى
من صفحات كتابي الابيض
بعض سطور ..
اقرأ ثم اعيد قراءة نفسي
مثل صبيٍ راح يتمتم درساً سهلا ..
ليلى كانت عبر فؤادي ليلى
قبل ازيز رياح اليقظة ! قبلا
انوار الشطآن الزرق .. وقبلا
اشواق الواحات على اعتاب الصيف !
جائعة قد كانت ليلى
خائفة قد كانت ليلى
ـ دُفنت ليلى ..!
ومضى قيس يسأل عن ليلاه الاخرى ...

بئس عصوري كانت تصنع كل حروفي
اقزاما خصيان

بئس عصوري
لست بعيداً عنها لكن .. ابصر فيها اليأس
ابصر صوتي الآن
ابصر نفسي الآن
اتبعني يا قيس الليلة في شوك الأغوار
اسمع صوت حذائي يسحق عظم اليأس
علمني يـا قيس
بعض حروف سكرى ..
وانا سوف اريك الحبّ اللاهب في الاشعار
سوف ترى ما يقتل فيك الذكرى
.. أن حروف الشاعر تنبت كالاشجار
تزحف .. تسكت .. تبكي وتغني وتسير
قبل الشاعر ، في شوك الديجور

الياس لحود

رجل على الأكتاف

قصة بقلم عبد الرحمن مجيد الربيعي

الى ذكرى (ق)

١ ـ النداء :

(تدعو قيادة الكفاح الفلسطيني المسلح جماهيرنا العربية في العراق للتجمع في ساحة عنتر في الاعظمية في تمام الساعة الرابعة من مساء غد الخميس الموافق ..... لتشييع جنازة الشهيد المقاتل ..... الذي استشهد في معركة .... بتاريخ ....

التوقيع قيادة الكفاح الفلسطيني ـ بغداد)

وكنت اخفض رأسي قليلا كراقص متعب ادى رقصته واستمع الى تصفيق المتفرجين ثم انفضوا عنه وتركوه مستلقيا على خشبة المسرح يسترد انفاسه اللاهثة .

وامامي في الشارع العريض انتشر السكان هائمين طافين كالاشرعة المبحرة فوق سطح المدينة الرمادي دون ان يمنحوا الزمن في حضورهم حرارة الاغاني والاناشيد . لقد مات اذن ، ولم اعد اراه يقعي امامي كالفارس المترجل وهو يراقب فرسه الصهباء التي اخذت تنهش العشب والماء بلهفة صيفية .

وهذه النداءات التي تترى ، في الصحف والاذاعة والتليفزيون، وصوره الملصقة على الحيطان واعمدة الشوارع ، كلها ترفع نبأ موته يافطة عالية لتقرأها كل العيون .

وعندما انفض عن صور الماضي ترابها سأراه ، وسأجد الكلمات مجبرة على ان تنقذف بوجه هذا الخمول المريع الذي تنام تحته الاشياء متلذذة بخدرها بينما تنام الجثة الخالدة في صندوق خشبي منتظرة ان تؤدي طقوسها الاخيرة لتوارى بعد ذلك تحت التراب كحكاية حب عتيقة .

٢ ـ الصورة :

في موته وجدت صحف المدينة مادة اخرى لها ، هذه صورته وهو يرفع رأسه الى اعلى باسما . رجل انيق ومهيب ، في صدره تتدلى ربطة عنق مخططة ، وفي بسمته ادانة ماردة لكل الاخطاء التي اقترفت وكل الدماء التي هدرت ومضت هباء .

وأحس الان بارتجافة داعرة تريد ان تذل عظامي ، وتقذف بدمعة مقلوبة الى عيني اللتين لم تعرفا الدمع حتى في لحظات الخيبة والاندحار .

صورته امامي ، تعلو الصفحة الاولى من الجريدة مرفقة بكلمة طويلة سطرها صحفي لا يعرفه ، ولو رأى وضعي الان لقال :

ـ كف عن هذا ايها الحالم !

ولربت على كتفي ، واطلق واحدة من نكاته ، ولربما ردد ماكان يقوله دوما :

ـ ما الذي قدمناه غير التثاؤب ؟ لماذا لا نختر السنوات ونركزها بمعانقة الثورة ؟

وكنت آنذاك احاذر ان اطلق تساؤلا واهنا واحاول ان الم بابعاد موقفه الحاد ، واخفيت صوتي حتى لا يتمطى وسط هذا الاصرار . وظلت الحيرة تنوس في اضلعي معفرة بمواويل باهتة قديمة .

وحرنت عن الاتيان بشيء ، وأخذت اراقبه كلبا تنتصب اذناه وهو يتطلع نحو قطة تمخر في كومة من القمامة .

٣ ـ القرار :

رفع رأسه الى اعلى قليلا ، وبدا وجهه هادئا وشاحبا كوجوه القديسين في لوحات عصر النهضة ، ووددت لو اتحسس هذا الجبين عله ينتشلني من آبار الثرثرة والعار التي اغط فيها .

رفعت كمي قميصي ، وأخذت أمرر اصابعي على شعر ساعدي ، واكز على اسناني، وأقول له ـ حسنا ، وماذا بعد ؟

قال : ـ قد تبدو مرحلة الاختبار صعبة ولكن لا بد منها :

ولاح لي حضوره امامي حادا مفروضا بصلابة على التاريخ والجدران والمقاهي والشمس دون ان يستسلم للخيبات التي تحني ظهور الرجال . واعدت كمي قميصي الى مكانيهما وأطبقت زريهما ، وأسندت ظهري للجدار ، عندها اردف :

ـ لقد امسكت برأس الخيط الذي سيدلني على مبتغاي دون ان تتساقط ايامي هباء .

وأخذت اتمتم ببعض ابيات من الشعر التي احفظها واستكين لسماعها ، وبصقت فجأة ، واحسست بعزلتي الباردة عنه، ورفعت الرجل الجراد عن جبيني . وأردت ان انتشل تساؤلاته من شحوبها المكتوم .

وركزت نظراتي في وجهه منتظرا ان يضيف شيئا اخر .

حرك يده في الهواء . وكأنه يزدري الخمول الذي يستقطب وجهي وكتبي وسكائري الملونة الاعقاب . وقال :

ـ سأسافر غدا ، بطاقتي في جيبي ، وبها استطيع اجتياز الحدود انسانا اخر يحمل اسما جديدا مخلفا الرجل الذي كنته هنا. ومنحني اصراره ولادة فائقة . وكانت الصرامة القليلة على وجهه قد ازدادت وتجسدت ومنحت وجهه العربي رجولة وقوة ودفعت بسنه عشرة اعوام الى الامام. وطرفت عيناه وهو يطلب من النادل ان يحضر له شايا جديدا .

ولم يكن قراره مفاجئا لي ، فهذا الرجل الذي عشت زميلا له سنوات طويلة جعلني احس مرات عديدة بانه لن يمنح الاشياء عريه التام ، وانه كان دائما يخفي شيئا اخر ، وانني لم افهمه تماما وليس بامكاني حصر ابعاده في مواصفات جاهزة . كان غريبا ومتناثرا بقدر ما كان ثائرا ومتحفزا ، كان التناقضات كلها ، وكنت اكتشف فيه كل يوم شيئا جديدا يعلمني الابحار والتوغل لا التردد والمراوحة عند الاسوار ، واوصلني الى قلوب مدن وحكايات كنت اجهل حتى خارطتها في اطلسي الفارغ .

وعندما دخل المقهى صبي يبيع السكائر المفردة ناداه ، ومد يده الى العلبة وانتزع منها اثنتين ، قدم لي واحدة وغرس الاخرى في فمه ، واتسعت حدقتا عينيه وهو يملأ صدره بنفس قوي من الدخان وهنا اجتاحته موجة من السعال اوقفها بجرعة من الماء رماها في جوفه مسرعا ، ثم عاد ليدخن بهدوء وانتشاء . وكأنه يمارس طقوسا وثنية خاصة ويقدم نذورا لآلهة لن نطولها .

وسألته : ـ اتريد ان تحملني كلمة ما ؟

قال :

ـ اية كلمة اتركها : لا اريد ان اصدع رؤوس الاخرين بتسجيل وصية حافلة تجلب الدمع للعيون ، ان كلمتي الوحيدة هي انني رجل امتلأ فحفه بالخطب والنظريات ، والان اراد ان يقرأ سطور الاختبار الذي تقدمه الاشياء وهي تعانق رصاصاته الاولى بطهرها وعفريتها . أليس هذا كافيا ؟

وبدا لي منعتقا من كل ساعاتنا النخرة القديمة ، سائرا في مجرى اخر ، متدفقا عذبا كمياه الينابيع ، عارما كالشلالات ،وتاملت هذا الهيكل الادمي الذي طاردته عيون الجواسيس والمخبرين ، وتساءلت في سري : أيريد ان يسجل برحيله ادانة ما : أيريد ان يرفض كل الانتهاكات الواطئة التي كانت تطارد حياتنا وتقصفها وتزلزل اركانها الراكدة ؟

وحركت كلماته وجه المستنقع الآثم . وخففت مباغتتها لي عندما ادركت انه لم يقع تحت مغالطات عاطفية طارئة ، وحاولت ان ابعد عن وجهي اي تعبير من الاندهاش افرشه امامه ، وانا ارد عليه :

ـ اهذا كل شيء ؟

وهز رأسه بالايجاب ، ثم اضاف :

ـ في الاوقات الحاسمة نحن مطالبون بان نكبح جماح عواطفنا. واحسسته يطير من امامي ويحلق طائرا اسطوريا يقبل الاعالي والريح . صارخا وسط عهر الاشياء . مرعبا التاريخ والرؤوس المطاطئة ، مدينا القضاة والجلادين ، وأنا امامه ضئيل اتربص صيدا لم اشخصه لاطلق عيارات بندقيتي التي تتمدد على ركبتي كخشبة عتيقة، وتذكرت كلمات حماسية تقول :

ايها الجاثمون هيا ارفعوا رؤوسكم
احملوا للجيل الثأر والاحتجاج
واحتجزوا النور في دروبكم
ولا تتركوه يمكث طويلا
نهبا للافاقين واللصوص ونسل المواخير .

ودفنت وجهي بين يدي ، تهزني نوبات المقرور الباحث عن الدفء من هذه الكلمات الثائرة علها تعيد الي يقيني وتمنحني حماية خاصة من قرون الفوضى والجليد ، وأحسست ان غيابه سيكسر ضلعي ولكن كل توسلاتي لن تفلح في أن تكون راية امان ينضوي تحت لوائها هذا الثائر الذي يتوهج امامي الان فكيف القي عليه بصفائح الماء ؟

واخذ يمسح بكفه على صدغه ، ثم هز رأسه ، وبعد ذلك كور قبضته وغرسها على المنضدة امامه وأراح رأسه عليها محاولا ان يتماسك أكثر حتى لا يطلق كلمة قد تفتت اصراره الخارق .

٤ ـ الميلاد :

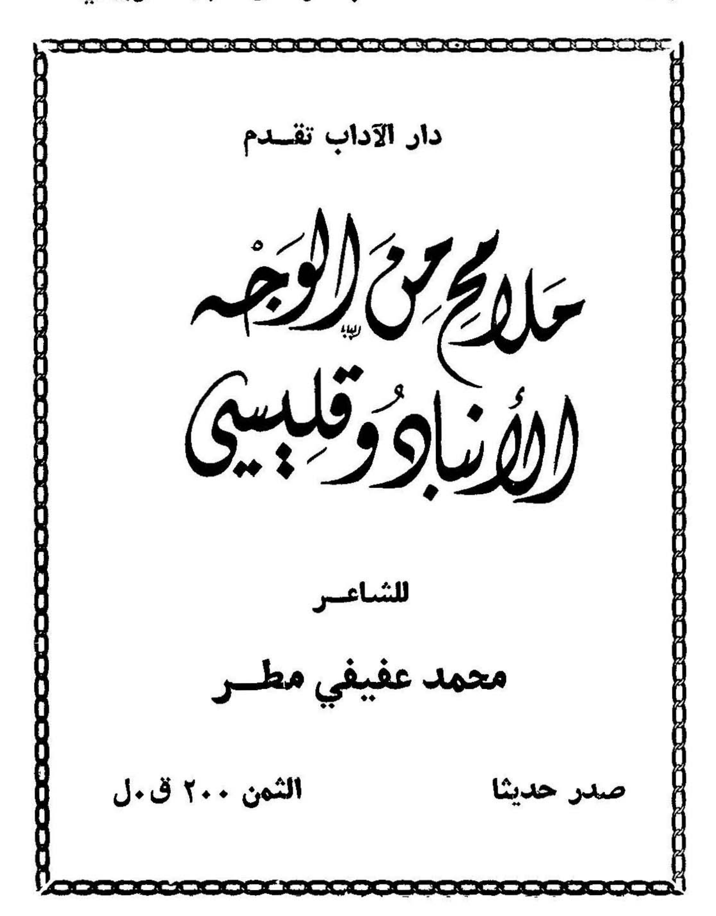
يده ما زالت على كتفي . تقتل الذعر في داخلي وتطوي من ايامي كل حكايات التأرجح والابتذال .

وعلى تخوم المدينة الرمادية تتلوى الاباطيل . وتفتح الاشياء افخاذها بعهر ليضاجعها الزور ثم تستسلم بعد ذلك لقيلولة ملوثة. وتبدو الرؤوس الصفراء في دورانها كعشرات اللقطاء الفارين الباحثين عن مرتع وهوية . ووجهه الباسم الذي يعلو الصفحة الاولى من الصحيفة وحده الوريث الجاد لكل التطلعات المزروعة في رحم ارضنا المستلبة التي ستتمخض عن الشروق الاكبر الذي ينسف الكذب والجسور والاحلاف ويئد حتى الاخير فجيعة الاستلاب الثقيل التي تسحق الرؤوس العذراء .

وطويت الصحيفة ثم دستها في جيبي ونهضت ، كلماته وحكاياته معي في مهرجان حافل يبهجني كملايين الصباحات الخضراء التي ولدت صاحية متوهجة طاردة اليباس والعتمة والنضوب .

وامتلأت برائحة المطر والاشجار والشطآن ، وأخذت أمشي .

بغداد — عبدالرحمن مجيد الربيعي



يوميات مدرس غاضب

« تقديم »

مطلوبٌ مني .. ان أسكتْ
أن أغدو .. لوحة اعلانٍ
ورقا مصقولا .. للرسمِ
بضعة ألوان .. جاهزةٍ
تعنو لاصابع فنانٍ ..!
طينا .. قد يبدو تمثالا
أو يمضي .. طي الكتمانِ ..!
مطلوب مني .. أن أحيا
مشروع وجود .. للغير
أن يغدو العالم في رأسي
رقما ثلجيا .. أحفظه
في ثلاجات التكرار ..!
ممنوع .. أن أسمع قلبي
أن تهمس نفسي .. في نفسي

***

يصرخ اطفالي في المنزلْ ..!
يصرخ طلابي في الفصلِ ..!
في الشارع .. في المقهى
في كل مكان من حولي
حتى .. جدران عمارتنا
تصرخ في وجه السكانِ ..!
! ..... !
لكني وحدي ممنوع ...
وحدي .. ممنوع أن أصرخ
هأنذا .. أعلن عن نفسي
أتعرى .. اثناء الدرس ..!
وأمارس حقي
في يومياتي
أصرخ ... لا أهمسْ
مسئول أنا عن أجيالٍ
غرقت في بحر « حزيران » ..!

عن نكسةِ « يونيو » يسألني
طلابـي
فدعوني .. اني متّهمُ
أحكي .. مأساة الانسانِ ..!

***

لكني في يومياتي
لن أغدو .. لوحة اعلانِ
سأمارس في نفسي حقا
أغرب من غزو الاقمار ...!

***

سأمارس حقي في الصدقِ
وأعرّي نفسي في الفصلِ ..!

— ١ —

« تفسير عصري لاشعار عنترة »

أن يصبح الفنان صادقا
في عالم تفتالهُ
حرب الشعارات العقيمة المدمرة
فذاك يعني : الرفض والمغامرةْ
فذاك يعني : زورقا مشاغبا
يريد أن يصير الموج خادما في رحلة الحقيقةْ
لا أن يصير كل شيء .. طائعاموجها
في خدمة التيار .. والامواجِ
آمنا طريقهْ ..!

***

حدثتكم بالامس ..
عن أشعار عنترةْ
صمتا .. أيا طلابُ .. ماذا قلتُ ؟
قلت : ان عنترةْ
لما رأى صمت العبيد يقتل العبيدْ

وأن أغلال العبيد .. لم تجيءْ
من خارج الحدود ...!!!
ألقى .. بلا .. في وجه سيدهْ
وصاحَ :
لن أخوض الحرب
والاغلال في يدي ..!
فليس أعدائي هناكَ
أقسى من بني عبسٍ هنا ..!
هناك .. أو هنا
مضمون قيدٍ واحدٍ
تعددتْ أشكالهُ .. والموت واحد
وأعان المواجهةْ ...

***

وحار جلادوهُ في حكايتهْ
وحكّ شيخهم قفاهُ ...!
ثمّ صاح باسما :
يا عنترة .. يا فارس الفرسانِ
يا فخر الحمى
اليوم صرت سيدا
اليوم .. كرّ .. وأنت حرّ
ماذا هناك .. أيها الطلاّبُ
هل فهمتمُ ؟
— أستاذنا
ألا ترى الجنس المثير في « أفلامنا » ؟
— أما سمعت أجمل الالحان « هذي ليلتي » ؟
— يا أيها المجنون .. لا تسمع مدرسا يقول ما لا يفعلُ ..!
واسحبْ جريدة « الاستاذِ »
واقرأ صفحة « الكرةْ » ..

***

نسيتُ أن أقول ..
يا طلاب عصرنا المبجّل
لما تركتُ الفصل عائدا لمنزلي
رأيتُ عنترةْ
مُعلّقا في الشارعِ
يضاء بالنيون في المساء ..!
وقبل اعلانٍ هناكعن «رابْسو (١)»
تذاعُ صورتُهْ
مقرونةً بأغنيةْ
تقول : يا بطلْ
يا صانع التاريخ من عدم ..!
يا قاهر الزمنْ
وتنتهي برقصةٍ شعبية .. وهادفةْ

***

لأن من قالوا : نعمْ .. في عصرنا
قد أمسكوا بعنترة
وألبسوهُ الوشيَ والديباج والقلائدا
وعلقوهُ فـــوق جـدران البيــوت
والمدارس
وألفوا في كلّ يوم أغنيةْ
وقرروه في « النصوص » هذا العام
وصار أغنيةْ
تدغدغُ الغرائزا
يلهو بها المراهق المدللْ
وجاء ناقد معاصر ..
وفسر الرفض القديمَ
عند عنترةْ
وقال : ان عنترةْ
ما كان يعني :
حين قال : « لا »
الاّ « نعمْ » !

— ٢ —

« جنة .. للمحرومين
من الصراخ »

احبتي ...
بالرغم مما تفعلون بي
أحبتي
ضحيتي انتمْ .. أنا جلادكمْ
لا تعشقون الفصلَ
الا عند غيبتي ...!
لانكم لا تعرفون أنكمْ
ضحية الضحيةْ
وأن جلاد العصا في الفصلِ
مثلكمْ .. يعيش عمرهْ
يفلسف الركوع والسجودْ
يبرّز انحناءهْ
يقنن القيودْ ..!
لكلّ شيء عنده « قواعدُ »
ولا يشد الطفل لحظة الميلادِ
من بطن الرحمْ
الا اذا ألقى لايدي القابلةْ
بنسخة من « القواعدِ » ..!

***

لــم تشهدوا اغترابي حين يزحف
المساءْ
وعودتي للبيت خاوي الوفاضِ
حاملا
بقية من جثتي
وما ترون من حقيبة ..
كئيبة جرداءْ ..
لم تشهدوا انكسارا خائرا
في وجه أطفالي وزوجتي ..
وهم يرون عالم التزييفِ
متخما .. وراقصا
ويبحثون في حقيبتي
عن كسوة الاعيادِ .. والشتاءْ
فلا يرون الا قصةً
حزينة خرساءْ ..!

***

أحكي لكم .. حكايتي هذا الصباح
فلم أعد الدرس
ماذا لو تركتم حصة « النصوصْ »
لتدرسوا أعماق انسانٍ حزينٍ
قد يكون مثلكمْ
لكنه في كل يوم يرتدي القناعَ
حتى تروه مدرّسا ؟؟
ضايقني بالامس ان تصرخوا
وقلت : صمتا .. أيها الطلابُ
فالصياح ثورة مدمرة ..!
والصمت فـــي بعض العصور مــن
خشبْ
لكنه في عصرنا الثوري هذا
من ذهبْ ..

***

أحكي لكم حلما رأيتهْ
لما أويت للفراش متعبا
رأيت اني في السموات العلى
وحولي المروجُ والحدائقُ
وأذرع كثيرةٌ ..
تشير من حولي .. مرحبةْ
وخضرة الاشجار من حولي
تغني .. صارخةْ ..!
والموج في الانهار يسري بي
معانقا .. مرحبا .. وصارخا ..:
تقول لي الاطيار والاشجار والانهارْ
غدوت منذ الآن في جنةٍ
عذراء .. لم يحلم بها شاعرُ
ومتعة الناس بها .. أنهمْ
يمارسون لذة الصراخِ
حين ينبغي الصراخْ ..!
ليغسلوا وجودهم من رؤيةٍ سوداء
يمارسون الصمت عندما
تخضرّ فيه رؤية للوجودْ ..!

***

ـ أستاذنا .. دق الجرسْ
ـ وفجاة .. صحوت من حلمي
ـ وعدت للصياحِ والمشاغبةْ ..
فلتصرخوا .. ما شئتمْ .. !!!
لعلكم مثلي .. ترون ما أرى

***

« تنبيه » :
حذار أن تقولوا :
لم أعد الدرسَ
للمفتّش
حذار .. ان تصيروا أعينا
للناظر ...!
فمنذ ان صرنا عيون الآخرين
صرنا .. بلا ضوءٍ
وصرنـا ..
رغم أنا نفتح العيون .. جيدا
بـلا عيونْ ..!

سعد دعبيس

---

١ ـ مسحوق للغسيل

المقاومة من وجهة نظر قومية

– تتمة – المنشور على الصفحة ١٠ –

جواب (٣)

ان الوجود القومي (الامة) كمعطى موضوعي يمكن معرفته عن طريق المناهج العملية . فالبحث العلمي هو المدخل الصحيح لمعرفة الوجود القومي . وقد عرف كثير من الناس حقيقة انتمائهم القومي وتعرفوا على امتهم قبل ان يعرفوا شيئا عن الاشتراكية . ولكنا في حديثنا لا نستهدف التدليل على الوجود القومي . انما نستهدف الوصول الى اقناع بعض الاشتراكيين في حوار موجه اليهم بان القومية رابطة تقدمية اولا تقوم عقبة في سبيل الاشتراكية . وفي مراحل سابقة وضع القوميون تحت نظر هؤلاء الاشتراكيين دراسات علمية عن القومية وتركوا لهم ان يتعرفوا على تلك العلاقة بانفسهم. ولكن في هذه المرحلة حيث اصبحت وحدة القوى التقدمية ملحة بحكم المعركة ، نرى ان ندير الحوار معهم انطلاقا من مواقفهم ذاتها ليتبينوا انهم كاشتراكيين مطالبون بالالتزام القومي . وعلى هذا فالاشتراكية ليست مدخلا لمعرفة الوجود القومي ، ولكنه المدخل الذي قد يكون مناسبا لاخراج بعض الاشتراكيين من عزلتهم وتحطيم جمودهم العقائدي وانفتاحهم على جماهير امتهم .

سؤال (٤)

اذا كان صحيحا ان البدء من منطلق اشتراكي يؤدي بنا الى ان نكون قوميين فكيف يمكن التوفيق بين هذا وبين الخبرة التاريخية التي اثبتت ان الاشتراكية نجحت في كثير من انحاء العالم كنظرية وكثورة وفي التطبيق بدون اعتداد بالقومية بل نستطيع ان نقول من موقف معاد للقومية .

جواب (٤)

اولا ان الخبرة التاريخية للاشتراكية كنظرية وفي التطبيق لم تكتمل بعد حتى نستطيع ان نحتكم الى محصلتها النهائية . ولكن ما تحقق حتى اليوم من خبرة يدل على اتجاه ثابت لاكتشاف العلاقة بين القومية والاشتراكية . فكلنا يعرف أن الاشتراكية التقليدية بدأت بموقف عدائي صريح للقومية على زعم انها من خلق البورجوازية المستغلة التي تسعى الى السيطرة على السوق القومي . ولكنا نعرف الآن وبعد اكثر من نصف قرن من التطبيق الاشتراكي ان اكثر الدول الاشتراكية قد اعترفت – من خلال خبرتها في التطبيق – بتأثير الخصائص الخاصة بكل مجتمع على البناء الاشتراكي فيه . وعندما تجاهلت بعض الدول هذه الخصائص ثار ، وما زال يثور ، نوع من الصراع بين الدول الاشتراكية . وهكذا تفرض ((الخصائص)) الخاصة بكل مجتمع ذاتها على الاشتراكيين ويقبلونها بالتدريج ، خفية او صراحة . من اين جاءت هذه ((الخصائص)) ؟ ليس من المنطلقات الاشتراكية فقد بدأت واحدة . وليس من المعالم الجغرافية فهي لا تختلف في يوغوسلافيا مثلا عنها في البانيا ، او في المجر عنها في رومانيا ، او في جبال الصين عنها في جبال الاورال . ولكن جاءت نتيجة تراث تاريخي كسب به كل مجتمع خصائصه . فأصبحت تلك الخصائص مميزاً قوميا له . ولسنا نشك في انه لن يمضي وقت طويل حتى يصبح مسلما بان لكل امة اشتراكيتها الخاصة بها ، كنظرية وكثورة وكنظام اجتماعي . حينئذ تكون الخبرة التاريخية في هذه الخصوصية قد اكتملت بالاعتراف بالعلاقة التقدمية بين القومية الاشتراكية بعد ان كانت قد بدأت بافكار الاشتراكيين للقومية .

سؤال (٥)

ان أتخاذ السؤال ((كيف احقق لنفسي حياة افضل ماديا ومعنويا)) كمدخل للوصول الى الحل الوحدوي الاشتراكي يكشف عن منطق فردي لا يستقيم مع القول بأن الوجود القومي ((الامة)) معطى موضوعي غير متوقف على معرفتنا ، لان هذا الوجود الاجتماعي يعني انه لا وجود للفرد منعزلا عن مجتمعه بحيث يبدأ مسيرته النضالية من ذاته كما لو كان وحيدا .

جواب (٥)

اعتراض صحيح فيما يتعلق بان لا وجود للفرد منعزلا عن مجتمعه بحيث يبدأ مسيرته النضالية من ذاته كما لو كان وحيدا . ولكن من ناحية اخرى لا يوجد مجتمع غير متكون من افراد . فالفرد جزء متفرد وان كان جزءاً من كل يحتويه . وبين الفرد والمجتمع علاقة جدلية فالفرد يؤثر في مجتمعه ويتاثر به ليعود فيؤثر فيه . وعند الحديث عن هذا التأثير المتبادل لا بد من اختيار نقطة بداية . فاما ان نبدأ بالحديث عن المجتمع وتأثيره في الفرد واما أن نبدأ بالفرد وكيف يؤثر في المجتمع . وقد اخترنا أن نبدأ بالفرد اعتقادا منا بأن الانتقال من البسيط الى المركب اسهل ادراكا من الانتقال من المركب الى البسيط. فاذا كنا قد قلنا ان البداية هي سؤال كل منا ((كيف احقق لنفسي حياة أفضل ماديا ومعنويا)) فان هذا لا ينفي أن مضمون الحياة التي يريد ان يغيرها ومضمون الحياة الافضل ماديا او معنويا التي يريد ان يحققها متاثران بمجتمعه قبل ان يطرح على نفسه السؤال .

سؤال (٦)

اليس قبول تحديد المجتمع على اساس الدولة اكثر واقعية من البحث عما يقال أنه ((الحقيقة الموضوعية للمجتمع)) مع ملاحظة ان اكثر واقعية لا يعني قبول الامر الواقع . أو بمعنى اوضح اليس اكثر واقعية ان يناضل الاشتراكيون في كل بلد عربي حتى اذا ما استولوا على السلطة واقاموا الاشتراكية استطاعوا الالتحام في دولة واحدة لانعدام التناقض بينهم . اليس هذا اكثر واقعية من الوحدة بين دول مختلفة النظم الاجتماعية ؟

جواب (٦)

لنبدأ الاجابة من آخر السؤال لنستبعد على الفور تصور ان تقوم الوحدة بين دول مختلفة النظم الاجتماعية . ان هذه الصورة قد تتحقق في النظام الكونفدرالي وهو نظام لا يتفق مع الاسس القومية للوحدة. اما في دولة الوحدة فلا يمكن ان يتواجد نظامان اجتماعيان او اكثر ، مثلها في هذا مثل اية دولة واحدة في العالم . والواقع ان الحديث عن وحدة عربية بين نظم مختلفة حديث فارغ وغير قابل للتحقق ، فالوحدة لا تعني الجمع بين دولتين ونظامين او اكثر في اطار دستوري واحد ، ولكن تعني الغاء الكيان الدستوري لكل من الدولتين لاقامة كيان دستوري جديد يضم الاقليمين أو الشعبين . وطبيعي ان هذا لا يتم تلقائيا ولكن بالنشاط الثوري الايجابي الذي اقام دولة الوحدة في مواجهة الدولتين الاقليميتين . هذا النشاط الثوري الايجابي له حتما مضمون اجتماعي (وهو عندنا اشتراكي) هو الذي سيكون نظام الدولة الجديدة عندما تنتصر القوى الوحدوية التي تجسده وتفيم دولتها الواحدة . لهذا قلنا دائما ان الوحدة العربية لا تتم من خلال اتفاق بين الدول ولكن تتم من خلال كفاح القوى التقدمية المنظمة قوميا ، اي التي تعمل داخل كل الدول العربية بقصد الغاء الوجود المستقل لكل منها لمصلحة دولة الوحدة العربية . ذلك لان اقامة دولة الوحدة يقتضي الغاء الوجود المستقل لدولتين (او اكثر) في وقت واحد لاقامة دولة الوحدة بديلا عنها : فكيف يمكن تحضير الاقليمين (او اكثر) للوحدة في وقت واحد ومحدد ؟ لا يمكن ان يتم هذا الا

بعمل موحد طبقا لاستراتيجية واحـــدة تحت قيادة واحدة تحـرك الجماهير في دولتين (او اكثر) لتقيم على انقاضهما دولة الوحدة . ذلك هو الاسلوب الواقعي والصحيح . وعلـــى ضوئه لا يكون أسلوب نضال الاشتراكيين في كل قطر الى ان يستولوا على السلطة ثم يلتحمون في دولة الوحدة اسلوبا واقعيا الا اذا كان نضال الاشتراكيين في كـل قطر يتم في اطار وحدة تنظيمية تجمعهم وفـي نطاق الالتزام بمخطط استراتيجي واحد يستهدف ان تكون غاية النضال الاشتراكي ، ليـس الاستيلاء على السلطة في كل قطر على حدة وتطبيق الاشتراكية فيـه ، ولكن الغاء الوجود المستقل لكل قطر واقامة دولة الوحدة الاشتراكية . وطبيعي ان الالتزام الاشتراكي بتحقيق الوحدة سيكون ذا اثـر ايجابي على تخطيط البناء الاشتراكي المقبل ، لان مصادر الانتـــاج وادواتـه وعلاقاته ومشكلات البناء الاشتراكي في دولة الوحدة لن تكون جمعـا حسابيا لمصادر الانتاج وادواته وعلاقاته ومشكلات البناء الاشتراكي في الاقاليم ، بل ستكون متميزة نوعيا عنها ، بحيث ان التخطيط الاشتراكي في دولة الوحدة سيكون مغايرا نوعيا لمجموع الخطط الاشتراكية فـي الاقاليم منفصلة .

على ضوء هذا نستطيع أن نرى أن تصور الوحدة بعد نمو البنـاء الاشتراكي في كل قطر على حدة تصور غير واقعي لاسباب كثيرة منهـا ما يتصل بضرورة الوحدة ذاتها ، اذ عندما يستقر في اذهان الاشتراكيين والجماهير في كل قطر ان الحياة الاشتراكية الافضل قابلة للتحقق في ظل التجزئة ، فان الوحدة العربية ستفقد المبرر الحياتي لهـا وتكون الدعوة اليها غير واقعية . ومنها ان نمو البناء الاشتراكي علـى اساس التجزئة سيقيم مجتمعين منفصلين حتى لو كانا اشتراكيين . ولما كـان البناء الاشتراكي صياغة اجتماعية ايجابيـة لامكانيات المجتمع وعلاقاته، فان تنمية هذه الصياغة على اساس التجزئة سيجعل التحامها اكثـر صعوبة لما يقتضيه الالتحام من اعـادة الصياغة الاجتماعية الشاملـة لامكانيات المجتمع الموحد وعلاقاته . بحيث تصبح الدعوة لاعادة النظـر او تعديل او الغاء ما تم بناؤه في كل من القطرين تمهيدا للوحدة بينهما دعوة صعبة القبول . أن كل ما يستطيعه الاشتراكيون الوحدويون هـو اسقاط الاستغلال في الاقطار العربية ووضعها علـى طريق التحـول الاشتراكي وتحقيق ما يمكن تحقيقه من المنجزات الاشتراكية ، كل هـذا مع مراعاة التزامهم القومي بالا يكون البناء الاشتراكي عقبة فـي سبيل الوحدة . وهذا يقتضي الوعي ، وبوعية الجماهير على أن حياة الرخاء والحرية المتكافئة مع امكانيات امتهم العربية لـن تتحقق الا في ظـل الوحدة . ثم ان يخططوا للبناء الاشتراكي في اي قطر على اساس انـه سيكون جزءا من دولة الوحدة الاشتراكية ، واخيرا أن يسرعوا باقامـة دولة الوحدة الاشتراكية ليتم البناء الاشتراكي منذ البداية على أساسه الصحيح . أن جمهورية المانيا الديموقراطية تفعل هـذا فـي تخطيطها الاشتراكي فتدخل في حساباتها دائما احتمالات عودة الوحدة الالمانية. ذلك هو الاسلوب الواقعي ، وبدونه سيرى الاشتراكيون الاقليميون مـا بنوه منفصلا وقد عدله الاشتراكيون الوحدويون او القوه لحساب اقامة الاشتراكية على اسس قومية ، ذلـك لانـه اذا كنا لا نقبل الوحـدة الرجعية فانا لا نقبل ان نبيع دولة الوحدة بالاشتراكية الاقليمية . ثـم ان الواقع دليل الواقعية ، وقد بدا التحول الاشتراكي في أكثر من قطر عربي فهل قربت الوحدة بينها او اخرت ؟

سؤال (٧)

لماذا كانت الدراسات القومية في الوطن العربي التي تدور حـول فكرة الوجود القومي وعلاقته بالتقدم الاشتراكي غير كافية لاقناع باقي الاشتراكيين ؟ هل لعجز هـذه الدراسات عـن الاقناع ام لان باقـي الاشتراكيين لا يريدون ان يقتنعوا ربما لان لهم ارتباطات غير قومية ؟

جواب (٧)

الواقع اننا نرى ان موقف الاشتراكيين غير مبرر علميا . غيـر مبرر علميا ان نلتزم بالنضال الاشتراكي في « الاقاليم » او « في العالم اجمع » ، ونقفز فوق الوجود القومي مع التسليم بأنـه موجود ، اذ لا احد مـن الاشتراكيين ينكر الوجود القومي (الامم) .وقد ذكرنا اسبابا عدة لهذا الوقف منها الجمود العقائدي ، ومنها الرجعية العربية التي ترفع شعارات القومية . ولسنا نريد أن نقـول ان الارتباطات غيـر القومية سبب يضاف لاننا لا نريد ان نتهم احـــدا بالخيانة بدون ان تكون الادلة الحاسمة على هذه التهمة متاحة . وانما نضيف مـا قـد يكون سببا مؤثرا وهو ان اغلب القيادات الاشتراكية في الوطن العربي من المثقفين الذين يجزعون من متاعب النضال القومي فيهربون منه اما الى الاقليمية ومتاعب النضال فيها محدودة ، او الـى الاممية ومتاعب النضال فيها صورية . ولكنا نعتقد ان الفشل الاقليمي سيكون المدرسة التي تعلمهم ـ بعد ان يدفعوا ثمن الفشل ـ انهم لا يستطيعون الافلات من انتمائهم القومي ، وانهم لا يختارون المتاعب على هواهم، فـلا بد لهم من ان يقبلوا مواجهة متاعب النضال التقدمي كمـــا تطرحها الظروف الموضوعية . والظروف الموضوعية في الوطن العربي تطرح متاعب ذات سمات وابعاد وعلاقات قومية أمام كل الاشتراكيين سواء ارادوا هذا ام لم يريدوه . ان هذا هو حكم التاريخ الذي صاغنا امة عربية واحدة .

لماذا تكونت الامم :

سؤال (٨)

ان سؤالي ذو شقين :

الشق الاول : لقد كانت المجتمعات القبلية في صراع دائم فيمـا بينها وكانت لكل قبيلة اهداف مختلفة ومتنافضة وربما كان تكوين الامم نتيجة سيطرة مجموعة من القبائل على مجموعة اخرى او غزو احـد لشعوب اخرى فكيف يمكن القول اطلاقا بان الوجود القومي كان حـلا تقدميا بالنسبة الى جميع المجتمعات التي تكون منها بدون تفرقة بين المجتمعات المسيطرة والمجتمعات المقهورة ؟

الشق الثاني : ان الحديث عن الوجود القومي او الامـة ككـل ، وتقدمها ككل ، فيه تجاهل لدور الصراع الطبقي كحقيقة محركة للتقدم. والصراع الطبقي يفترض انقساما طبقيا يستحيل معـه الحديث عـن المجتمع ككل .

جواب (٨)

عن الشق الاول : ان الوقائع صحيحة او غيـر مستبعدة . ففـي المجتمعات السابقة على الطور القومي كان الصراع على اشده ، وكان كل مجتمع يحاول ان يفرض سيطرته على المجتمعات الاخـرى . ويمكن ان نستنتج ان المجتمعات الاخرى كانت في اغلب الحالات تقاوم السيطـرة المفروضة عليها . ونقول اختصارا للجواب ان كل ذلك هو مـا نسميه الاحداث التاريخية التي تكونت الامم خلالها . ثم نضيف هـذه النقاط المتتابعة . بصرف النظر عن تقديرنا نحن للاهداف التـي كانت تحرك الصراع القبلي لا بد ان كل قبيلة كانت تستهدف ، من الصراع هجوما او دفاعا ، حياة افضل لها اي انه كان صراعا اجتماعيا غايته تقدمية من وجهة نظر كل اطرافه . انتهى بسيطرة مجموعة من القبائل او شعب من الشعوب على باقي المجموعات او الشعوب الاخرى ، وكـان ذلك حـلا تقدميا بالنسبة للقوى المسيطرة ، وهو ما لا يمكن زعمه بالنسبة للقوى المغلوبة التي لا شك انها كانت ترفض القهر ولو خفية وتحاول الثـورة عليه واستئناف الصراع متى استطاعت . وقـد استطاع كثير مـن

المجتمعات القبلية ان يثور ويصبح غالبا بعد ان كان مغلوبا . واستغرق ذاك الصراع حقبة تاريخية طويلة سبقت التكوين القومي واسهمت فيه. خلال تلك الحقبة التاريخية الطويلة كان يوجد دائما طرف ثالث يظهر من حين الى حين ويفرض الهدنة والتحالف بين المتصارعين . ذلك هو العدو المشترك في شكل قبائل اخرى او شعب آخر . المهم ان ندرك انه خلال الصراع كان التفاعل الاجتماعي بين المجتمعات المتصارعة لا يتوقف وكانت تنمو بين المجموعات المتصارعة في رقعة جغرافية تتسع وتتقلص وتتحدد رويدا خصائص ومصالح مشتركة تميزهاعن مجموعات اخرى . كل هذا والصراع الذي اصبح داخليا يبرز الى الامام كلما غاب الخطر الخارجي . ويصل الامر بعد تراكم الخصائص والمصالح المشتركة الى ان يصبح الصراع داخل الوحدة هو الحل التقدمي الذي يتفق مع اهداف جميع المتصارعين . اي يصبح هدف الصراع دائرا حول كيفية التعايش في اطار وجود مشترك بدلا من كيفية الخروج من هذا الوجود المشترك . وبينما يستمر الصراع على وجه لا يخفي ميراثه القبلي تكون الامة قد بدأت في التكوين ، ويدل على هذا اعادة ارجاء الصراع الداخلي في مواجهة العدو الخارجي الذي يعتبر عندئذ عدوا قوميا ، تواجهه الامة التي في طور التكوين بقوى موحدة وقيادة موحدة . وتتعلم من النصر الذي تحققه ان وحدتها القومية كانت حلا لمشكلة الامن التي يعجز عنها كل جزء منفردا • وفي ظل هذا الامن يقدم لها الوجود القومي افضل الامكانيات لتحقيق الحياة الافضل اجتماعيا ، وتقدم لها الارض المشتركة المادة الموحدة التي تشكل منها حياتها . كل هذا مع استمرار الصراع الاجتماعي ، ليس بين القبائل في هذا الطور ، ولكن بين القوى ذات الاهداف الاجتماعية المختلفة والمتناقضة ، وان كانت كل منها تعتبر ان اهدافها تمثل الحياة الافضل بالنسبة الى الامة ككل ..

من هذا ندرك الحقيقة الكامنة وراء التكوين القومي وهي عجز المجتمعات السابقة عليه عن حل مشكلاتها منفردة بصرف النظر عن اسباب هذا العجز التي لا بد أن تختلف من جماعة الى جماعة . ان مجرد كون التكوين القومي يتضمن مقدرة فرضت ذاتها كبديل عن هذا العجز يعني انها طور اكثر تقدمية من الطور السابق عليها .

الشق الثاني : لعل الاجابة عن الشق الاول ان تكون قد اوضحت ان الوجود القومي لا ينفي الصراع الاجتماعي داخل الامة . هذا الصراع الاجتماعي حقيقة غير منكورة وهو ما يسمى ايضا بالصراع الطبقي . ولسنا نرى ان في الحديث عن الامة ككل ، وتقدم الامة ككل تجاهلا للصراع الطبقي . لاننا ننطلق في موضوع الصراع الاجتماعي او الصراع الطبقي من مسلمة اولى نستطيع ان نصوغها كما يلي : ان الوحدة الموضوعية والتأثير المتبادل للمشكلات في اي مجتمع تعني أن الحل التقدمي لهذه المشكلات جميعا ، في زمان محدد ، في مجتمع محدد ، حل واحد محدد موضوعيا بصرف النظر عن مدى صحة معرفة الناس به . وينقسم الناس عادة قسمين كبيرين فيموقفهم من هذا الحل الموضوعي. قسم يتبنى ويناضل من اجل تحقيق هذا الحل التقدمي الذي يكون قد عرفه من خلال ادراكه الصحيح للمشكلات الاجتماعية وتأثيرها المتبادل وحلولها العلمية .. اولئك هم التقدميون ، الذي وان كانوا قسما من المجتمع الا انهم يمثلون مصلحة المجتمع ككل . اما كيف ادركوا ادراكا صحيحا المشكلات الاجتماعية وتأثيرها المتبادل وحلولها العلمية فذلك امر قد تختلف الطرق اليه من اول البحث العلمي الى آخر تجربة الحياة وممارستها • وان كانت تجربة الحياة وممارستها تكون المدخل العريض لهذه المعرفة حيث يعي الذين يعانون مشكلات الحياة ضرورة التغيير الاجتماعي حتى تحل مشكلاتهم ، ويكون ذلك حافزا لهم على البحث عن حلول تقدمية لمشكلاتهم ، ذلك البحث الذي يكتمل لهم من خلاله عنصر المعرفة بمصالحهم المشتركة في التقدم وضرورة النضال الاجتماعي من اجل تحقيقه . في مواجهة هذه القوى التقدمية التي تتحول بالتحامها في نضال منظم الى طبقة تقوم القوى الرجعية التي تلتحم لحماية مواقعها لتكون طبقة ايضا . والرجعية قسم من المجتمع ينتمي اليه الرجعيون تحت تأثير عوامل عدة . منها الرغبة في الاستغلال ، اي استغلال قوى المجتمع الذي ينتمون اليه لمصلحتهم الخاصة . ومن هنا لا يمكن ان يقال عن هذه الشريحة المستغلة من الرجعيين انها تمثل المجتمع ككل لانها لا تستهدف تقدم المجتمع ككل ، بل أنها مع معرفتها بان مصالحها الخاصة مناقضة للحل التقدمي الذي يجسد مصلحة المجتمع ككل ، تختار مصالحها الخاصة وتقف موقفا عدائيا من المجتمع . غير ان هناك شريحة اخرى تقف موقفا رجعيا ، ضد الحل التقدمي لانها تجهل حقيقة المشكلات الاجتماعية او تأثيرها المتبادل او حلولها العلمية ، فلا تتبنى الحل التقدمي ولا تناضل من اجله وقد تعوقه او تقف ضده استجابة لتصوراتها الخاطئة . موضوعيا هي رجعية بصرف النظر عن حقيقة مصالحها التي تجهل علاقتها بالتطور التقدمي وموقفها لا يمثل مصلحة المجتمع ككل بل يمثل مصلحتها هي ذاتها كما تتصورها تصورا خاطئا .

وبين التقدميين والرجعيين ، يستمر الصراع الاجتماعي في شكل قوى منظمة تحاول كل منها ان تحقق اهدافها ، اي يستمر الصراع الطبقي . ومهما تكن اسباب الرجعية فانه لا يمكن الا ان تكون الاهداف التقدمية مجسدة لمصلحة المجتمع ككل في المجتمع المعين والمرحلة التاريخية المحددة التي يدور فيها الصراع . وهي اهداف كسبت سمتها التقدمية من استجابتها للواقع الاجتماعي ككل وليس من هوى اصحابها . وهذا هو الذي يؤمن النصر للتقدميين في نهاية المطاف بالرغم من ضراوة الرجعية ، ومن هنا ثقة التقدميين بالنصر . لكل هذا فانا اذا كنا نستطيع بحق الحديث عن نشاط الرجعية من اجل مصالحها الطبقية ، فانا لا نستطيع ان نقول نفس الشيء عن نضال التقدميين الذين يمثلون – من حيث هم تقدميون – مصلحة المجتمع ككل ، حتى المصلحة الحقيقية للقوى السلبية ، او لتلك القوى التي لا تعرف كيف تحدد موقفها من الصراع الطبقي تحديدا سليما فتنحاز الى الرجعية جريا وراء مكاسب مؤقتة ، او تحت تأثيرات ميتافيزيقية بالرغم من ان مصلحتها الحقيقية في الحل التقدمي الذي تجهله او تعوقه او تعاديه.

سؤال (٩)

ان تفسير « الاممية » بانها انتماء الى مجتمع انساني واحد متوقع بعد آلاف السنين تفسير غير صحيح ومخالف لمفهوم الاممية التي تعني وحدة الطبقة العاملة في الوقت الحالي وفي المستقبل في مواجهة الامبريالية العالمية . فالى اي حد تكون « الاممية » بهذا المفهوم الصحيح متفقة او مناقضة للدعوة القومية ؟

جواب (٩)

صحيح ان « الاممية » تعني وحدة الطبقة العاملة في الوقت الحاضر وفي المستقبل في مواجهة الامبريالية العالمية • ولكن هذه مواجهة ذات غاية تتجاوز القضاء على الامبريالية الى اقامة مجتمع انساني موحد . وعلى هذا فان تحليل الموقف الاممي يسفر عن معطيات ثلاثة : الاول انه تحالف بين الطبقات العاملة ضد الامبريالية العالمية المتحالفة . وهذا الموقف مبرر بالدفاع عن النفس لان محركه الخطر المشترك الذي يجسده العدوان الامبريالي ، وهو مقبول بدون حاجة الى مبررات فكرية او فلسفية اخرى . والمعطى الثاني انه تطلع الى بناء مجتمع انساني موحد ، وهذه غاية تبعد عن عصرنا آلاف السنين ، ومع انها امنية انسانية جميلة الا انها لا تصلح محورا للالتقاء او الالتزام النضالي الذي يستهدف تغيير الواقع الى ما هو افضل منه واكثر تقدما بما يعنيه ذلك من التحام بالواقع ذاته حتى يمكن تغييره . المعطى الثالث الذي لم يشر اليه السؤال مع انه موضوع الحديث ان الاممية مطروحة كموقف مناقض للقومية ، مع ان الوجود القومي واقع

معترف به ، والرابطة القومية حقيقة تشد الناس ولا يمكن تجاهلها . والأممية هنا « مثالية » من حيث انها تتجاهل الواقع الموضوعي وتحاول ان تصوغ علاقات نضالية تقفز من فوقه ، ولا شك في ان الزعم بان مصالح الطبقة العاملة في العالم كله واحدة زعم غير صحيح . انه يفترض المساواة بين الامم من حيث التحرر والتقدم الاقتصادي . وهذه فرضية غير صحيحة . ان العاملين في كل الامم يكافحون ضد الطبقات المستغلة بقصد استرداد مصادر الانتاج وادواته من ايديهم وتحويلها الى ملكية اجتماعية يكون لكل عامل فيها نصيب متكافيء مع ما يعمل . ولكن وراء هذا حقيقة تاريخية لا يمكن تجاهلها ، هي ان مصادر الانتاج وادواته وكل الثروات التي يراد اعادة توزيعها توزيعا عادلا في بعض الامم المتقدمة هي في الاصل ثروة مغتصبة بالاستعمار من امم اخرى . ان هذا هو المبرر الرئيسي لما نلاحظه من ان المستوى المعيشي الذي يثور العمال في احدى الدول لانه اقل مما يستحقون ، هو ذاته يتجاوز بمراحل احلام العاملين في امم اخرى . تلك هي الحقيقة التي افزعت « جيفارا » فثار ثورته العميقة ضد استغلال « المجتمعات المتقدمة » للمجتمعات المتخلفة بدون تفرقة بين اشتراكيين وغير اشتراكيين . ان هذا يعني فيما يهمنا ان التراث التاريخي الذي جعل مصلحة العاملين في كل امة محددة بمشكلات التقدم كما تطرحها ظروف الامة التي ينتمون اليها وليس بالمستوى العالي لمعيشة العاملين ، يحول دون الادعاء بوحدة المصلحة بين العمال في جميع انحاء الارض الى درجة تجعل من الانتماء الى « العمل » بديلا عن الانتماء الى الامة . غير ان هذا ذاته لا يعني ان ليس بين العاملين في كل الامم مصلحة مشتركة كتلك التي اشرنا اليها وهي اسقاط الامبريالية العالمية المتحالفة . ان تلك مصلحة تفرض عليهم ان يتحالفوا ضد عدوهم المشترك . كما ان للعاملين في بعض الامم مصالح مشتركة قد لا تكون عالمية ، كمصلحة العاملين في المجتمعات المستعمرة في ان تتحرر مجتمعاتهم . وهكذا نرى انه انطلاقا من ان القومية هي الرابطة الاصل ، يخوض العاملون التقدميون في كل امة معاركهم الداخلية ضد الاستغلال ، ويشاركون مع العاملين في امم اخرى معاركهم ضد العدو الامبريالي المشترك دون ان يفقد اي منهم هويته القومية .

النظرة القومية :

سؤال (١٠)

أ ـ اذا كانت الاقليمية رجعية فاشلة كما سمعنا فكيف يمكن تفسير الانجازات التحررية التي حققتها الدول العربية المتحررة بالرغم من انها اقليمية ؟

ب ـ وما الراي في فشل دولة الوحدة التي قامت في سنة ١٩٥٨ حتى في المحافظة على وجودها ؟

جواب (١٠)

أ ـ عن التحرر :

ان القاعدة التى ذكرناها هي ان فشل الاقليمية لا يعنى ان كل دولة اقليمية عاجزة تماما عن ان تحقق نجاحات محدودة بما تستطيع ولكن يعنى تماما ان ما تحققه اقل بكثير مما كان يتحقق للشعب فيها في ظل دولة الوحدة الاشتراكية والديموقراطية حيث يكون مدى التقدم ومعدله متكافئين لا مع مقدرتها الذاتية ولكن مع الامكانيات العربية المتاحة وهي بالغة الوفرة .

ومع ذلك فلننظر الى المنجزات التى حققتها بعض الدول العربية وعلى المستوى الذي يختاره الاقليميون عادة للجعجعة ، وهو مستوى التحرر ، الذي يظنون ان قد وصلوا اليه في ظل الاقليمية بجلاء الجيوش المحتلة . انا نخطيء خطأ ساذجا اذا اعتقدنا ان جلاء الجيوش الاجنبية او اجلاءها يعني التحرر تلقائيا . ان عصر الاستعمار بالبطش الظاهر ينحسر عالميا ، وتسحب الدول الاستعمارية قواتها من مناطق عديدة لمجرد توفير نفقاتها . وهي لا تفعل هذا متخلية عن مصالحها ولكن حافظة لتلك المصالح باساليب اخرى اقل تكلفة واستفزازا من الجيوش المقاتلة . ولا شك في ان بعض الدول العربية قد استفادت من ذلك التحول التاريخي فجلت عنها الجيوش ، واتاحت لها الفرصة لرفع اعلام الاستقلال ودق طبوله والحصول على مقعد مريح في هيئة الامم المتحدة . غير ان التجربة لم تلبث ان اثبتت لنا ان الاستعمار الجديد ، الخفي ، الاقتصادي والثقافي ، ليس اقل ضراوة وتخريبا من الاستعمار المسلح السافر . ذلك لان التحرر من الاستعمار ليس منتهى غايات الشعوب بل هو بدايتها . فبرفع السيطرة الاجنبية عن الوطن وامكانياته المادية والبشرية ، يبدأ المستقلون في تحمل مسؤولية بناء الحياة التقدمية الافضل التي هي المعادل الحقيقي لتضحيات معارك التحرير . ولن يتحقق لهم هذا الا بامور ثلاثة : اولها ـ الامن ، اي حشد كل الامكانيات والجهود والقوى وتخطيط استخدامها من اجل بناء حياة افضل للجماهير التي قاست طويلا في ظل الاحتلال الاجنبي ، بدون خوف من عودة السيطرة الاجنبية ، او بدون حاجة الى اقتطاع نسبة عالية من الامكانيات المحدودة لرد ، او ردع ، محاولات احتلال اخرى . ولا نريد ان نشير الى امثلة متعددة بل يكفي ان نقول ان اكثر الدول العربية جدية في رغبة التقدم الاقتصادي لم تترك سنة واحدة متصلة بدون تهديدات ، او اغارات ، او حصار ، او حرب ، وان قدرا متفوقا من طاقاتها كان وما يزال مسخرا من اجل دفع او رد محاولات الاعتداء على استقلالها بالرغم من انها كسبت معركة الجلاء . معركة التحرر اذن لم تنته لان الامن الكافي للتفرغ لبناء الحياة الحرة لم يتحقق . وانها لمأساة حقا ان تكون حياة الجماهير تضحيات متصلة بلا نهاية معروفة ، تضحي من اجل الاستقلال ثم تستمر فى التضحية في معارك الحفاظ على الاستقلال بدون انقطاع يسمح لها بان تجنى ثمار هذا الاستقلال . ان هذا الامن اللازم لبناء الحياة غير قابل للتحقق الا فى داخل الوحدة العربية القادرة على تصفية العدوان مرة واحدة والى الابد ، وفرض احترام حريتها على كل مغامر ، وتجنيب احتياطي للدفاع يكفي للردع ولا يؤثر على المقدرة على الانتاج ، ثم التفرغ بالقدر الاكبر من امكانياتها لعملية بناء الحياة الافضل . اي ان الاقليمية التى قد تستطيع ان تكسب معركة جلاء الجيوش الاجنبية عن ارضها تجد نفسها فاشلة فى وضع حد نهائى لمحاولات العدوان وتوفير الامن اللازم لتفرغها لبناء الحياة . فهي ـ فى جملة قصيرة ـ عاجزة عن النصر النهائى فى معركة التحرر . الامر الثانى ـ الذى لا يتم النصر فى معركة التحرر بدونه هو هزيمة وتصفية الاستعمار الجديد . وجوهر الاستعمار الجديد هو التبعية الاقتصادية للدولة المسيطرة . ان الدول العربية تنتمى الى العالم الثالث . فهي دول متخلفة اقتصاديا او نامية . وهى فى حاجة ملحة الى ان تضاعف مقدرتها الانتاجية بمعدل من السرعة يعوض سنوات التخلف . وفى هذا تحتاج ـ بالاضافة الى الجدية فى العمل ـ الى اكبر قدر من معدات وخبرات الدول المتقدمة . وهى اما ان تكون قادرة على دفع ثمنها الاحتكاري الفادح لكى تحصل عليها بدون شروط او تبعية ، واما ان تدفع من ثمنها ما تستطيع ثم توفى باقى الثمن قبولا لشروط صريحة او ضمنية ، معلنة او خفية ، تضعها موضع التابع للدولة البائعة المعدات الشارية الحرية . وتلك هى النافذة التى يعود منها الاستعمار الجديد بعد ان كانت جيوش الاستعمار القديم قد غادرت من ابواب الموانيء . ولقد وقعت بعض البلاد العربية ـ الخالية من الجيوش الاجنبية ـ فى براثن الاستعمار الجديد ، وباعت الاستقلال الذي دفعت ثمنه من دماء الشهداء بالارتباطات المالية والاقتصادية التى فرضتها عليها الدول الاستعمارية . فهل تحررت ام خانت الحرية ؟ لم تتحرر ولم تخن بل فشلت فى تحقيق النصر النهائى فى معركة التحرر. ولن تستطيع ان تحققه الا فى ظل دولة الوحدة ، القادرة بمواردها الوفيرة على ان تشتري من المعدات والخبرات ما تحتاجه للتقدم

الاقتصادي ، بثمنه الفادح ، بدون ان نبيع حريتها . وعندما نرى مستوى الحياة في كثير من البلاد العربية التي جلت عنهـا الجيوش الاجنبية متردياً ، أو متوقفاً ، او يحبو مثقـلا بالديون والالتزامات الخارجية ، فيجب ان ندرك أن الاقليمية التي قد تتقدم حبوا ، فاشلة في التقدم وثبا ، لان التقدم وثبا لا يتحقق لها الا بالامكانيات العربية التي ترفع عنها اغلالها ، ثم تكفي ، واكثر ، للتنمية الاقتصادية في الوطن العربي كله ، بعيداً عن شرك الاستعمار الجديد الـذي يختفي وراء الاموال ، والمعدات ، والخبرات ، والمعونات . الامر الثالث – الذي لا يكتمـل النصر في معركة التحرر الا به هو أن تشعر الجماهير التـي اذلهـا الاستعمار سنين طويلة بـان قيودهـا قد تحطمت يـوم ان استقلت، وانها تعيش في بلادها المتحررة حياة حرة لا ذل فيها ولا خوف ولا قهـر ولا استبداد . فهل تحطمت قيود الجماهير العربية بعد الجلاء ورفـع اعلام الاستقلال ودق طبوله ؟ – ان الرجعية لا تزال تفرض عليها القهر الاقتصادي وتذلها قبل ان تسمح لها بالحصول على لقمة العيش التي تحفظ الحياة من الموت . وتقبض على الناس من امعائهم حتى يركعوا لها او يسجدوا أو يموتوا جوعاً . والجماهير العربية تتفرج عـلى نظـم العبودية والاقطاع في القرن العشرين ، ويحتمي الظالمون مـن غضبها ، وثورتها ، وراء حق الدول المستقلة فـي الا يتدخل احد في شؤونها الداخلية ، والتزام الدول ((المستقلة)) بالا تتدخل في شؤون غيرها . ثم ما بين وعود الحرية والرخاء والتقدم تبذل للجماهير بدعوى غيـر معقولة ، وبين عجز الدول الاقليمية فعليا عـن تقديم امكانيات تحقيق الوعود المبذولة ، انزلقت بعض الحكومات العربية الـى الدكتاتوريـه المستبدة تفرض بها على الجماهيـر الصمت والصبر والمذلة لتغطـي فشلها الذي لا مفر منه ما دامت تعد بما هي غير قادرة على تحقيقه في ظل الاقليمية . فهل كسبت الجماهير النصر النهائي فـي معركـة التحرر ؟ انها لن تكسبه الا في دولة الوحدة الاشتراكية الديموقراطية التي ان تعد فهي قادرة على الوفاء بوعدها فهي لا تخشى الجماهير وفي غير حاجة الى ان تفرض عليها الصمت والصبر والمذلة .

ثم ، أخي ، أليس من المغالطة ان نتحدث عن الانجازات التحرريـة في ظل الاحتلال الصهيوني ؟

ب – عن وحدة ١٩٥٨ :

بقي الجانب الاستفزازي من السؤال الذي يقول : ((ما الرأي في فشل دولة الوحدة التي قامت سنة ١٩٥٨ حتى فـي المحافظة عـلى وجودها)) . ومصدر الاستفزاز فيه انه يوحي بأن الوحدة التـي قامت بين سورية ومصر سنة ١٩٥٨ قد فشلت في كل مجال ((حتى)) فـي المحافظة على وجودها . ولسنا نريـد ان نستجيب للاستفزاز فنعدد مكاسب الشعب العربي في ظل ثلاث سنوات من الوحدة . بل نتجاوزه الى الجانب البناء من السؤال وهو الخاص بالفشل في المحافظة علـى وجود دولة الوحدة . ذلك لان وحدة ١٩٥٨ لـم ينصفها كثير مـن اصدقائها وكل اعدائها .

لقد قامت دولة الوحدة سنة ١٩٥٨ بيـن مصر وسورية تجسيدا لرغبة شعبية عربية عارمة لا شك فيها . ثم وقع الانفصال سنة ١٩٦١ بدعم وتأييد وتخطيط القوى الاستعمارية والصهيونية . لم يعد هـذا محل شك ايضا خاصة بعد ان انكشفت كثير مـن المخططات العدوانية التي مهدت لحرب ١٩٦٧ . ولم يعد اعداؤنا انفسهم ينكرون انهم بدأوا الاعداد للحرب والتدريب على خططها منـذ ان قامت الوحدة ، وان الانفصال كان الخطوة الاولى في تنفيذ تلك المخططات . وهذا بشطريه يدل على ان الوحدة كانت خطوة تقدميـة مستجيبة لآمال الجماهيـر العربية من ناحية ومضادة للمصالح الاستعمارية والصهيونية من ناحية اخرى . أي انها بمقياس تحرري تقدمي كانت خطوة الـى الامام . وان الانفصال كان ردة رجعية . ان هذا لا ينفي انـه اذا كانت الجماهير العربية قد انتصرت في سنة ١٩٥٨ فقامت دولة الوحدة ، فان هـذه الجماهير ذاتها قد انهزمت في سنة ١٩٦١ ففقدت الوحـدة الوليدة .

كل هذا صحيح . انما الخطأ الجسيم ان كان بحسن نية ، او التخريب المجرم ان كان متعمداً ، هو القول بانه ما دامت الجماهير العربية قـد انهزمت في سنة ١٩٦١ فان وحدتها سنة ١٩٥٨ كانت خاطئة : ان هـذا حكم ببراءة القوى الامبرياليـة والصهيونية والانفصالية العميلـة مـن جريمة التآمر والعدوان على الامة العربية . وهي دعوة انهزامية الـى التنازل عن اهدافنا حتى لا ننهزم . وقياسا عليه يصح قول الانهزاميين والخونة من انه ما دمنا قد انهزمنا ثلاث مرات من اسرائيل فان رفضنـا الوجود الاسرائيلي خاطيء . لقد ترددت مجموعات مـن اكثـر المثقفين العرب ادعاء للعلمية وللتحررية وللتقدمية ، بل وللقومية ايضا ، فـي هذا الخطأ الجسيم يوم أن راحت بعد الانفصال تحاكم وتدين وحـدة ١٩٥٨ بدلا من ادانة الامبريالية والصهيونية . ان هذا الموقف الخاطيء خطأ جسيم قابل للتكرار في كل جولة لا ننتصر فيهـا مـن معاركنا الطويلة ، ولن تكون كل جولات معاركنا انتصارا وان كان حتما علينا ان ننتصر في النهاية .

في اطار هذا الادراك لمعركة وحدة ١٩٥٨ ، التي حققت فيها الامة العربيه اروع انتصار في تاريخها المعاصر ، ومنيت فيها ايضا بأفـدح هزيمة ، لا ننكر بأن وقوع الانفصال واستمراره دليل غير قابل للنقض على ان القوى التي تصدت لحمل مسؤولية الدفاع عن وجود دولـة الوحدة قد فشلت فـي الوفاء بمسؤولياتها . ولقـد قيلت عشرات التبريرات لذلك الفشل منها ما وصل الى حـد المهاترات الرخيصة . ونحن لا نعيدها ولا نرد عليها . انما نقصر الحديث علـى ثلاثة اسباب اساسية نعتقد أنها مجتمعة قد كانت وراء الفشل في الحفاظ على دولة الوحدة من حيث أنها سهلت للقوى المعادية انجاز غايتها المجرمة :

الاول : ان وحدة سنة ١٩٥٨ قامت واستمرت حتى انقضت وحدة ((انفصالية)) ، اي معدة وجاهزة موضوعيا للانفصال . فقـد تمت وحدة الرئاسة ، ووحدة الحكومة ، ووحدة مجلس الامة ، اي تناولت الوحدة الاطار السياسي ، ثم بقي الاقليمان منفصلين جماهيريا (في كل منها تنظيم سياسي مستقل وتنظيمات مهنية ونقابية مستقلة) واقتصاديا (الكل منهما مصادر انتاج مستقلة ، وخطة اقتصادية مستقلة ، وذمـة مالية مستقلة ، ونقد مستقل ، وميزان تجاري مستقل، وميزان مدفوعات مستقل ، ومخصصات للخدمـات مستقلة ، وجهـاز اداري مستقل) وعسكريا (لكل منهما جيش مستقل من ابنائه خاصة) ودوليا (لكـل منهما علاقات ، واتفاقات ، تجارية خارجية مستقلة) ... الخ . لقـد قيل قبيل الوحدة واثناءها وبعد الانفصال ، ان القوى الوحدويـة قـد استعجلت الامور وقفزت الى طموح غير واقعي لانها اختارت الوحدة . وان الاتحاد كان افضل من الوحدة . قال هذا نفس اولئك الذين عرفنا من قبل انهم اكثر الناس ادعاء للعلمية وللتقدميـة وللقومية ايضا . وفي العراق اريقت الدماء في معارك بين انصار ((الوحدة)) ودعـاة ((الاتحاد)) وكانت ((وحدة)) ١٩٥٨ نموذج القياس في اذهان الطرفين. وقد تجاهل دعاة الاتحاد ، الرافضون لوحدة ١٩٥٨ بحجة انها التحـام كامل لا تطيقه الظروف الاقليمية ، ان وحدة ١٩٥٨ لـم تكن ((وحدة)) ولا كانت ((اتحاداً)) . كانت شيئا يشبه – وان كان اقـل التحاما – الاتحاد الكونفدرالي . كانت اشتراكاً في حكومة مختلطة بيـن دولتين مستقلتين جماهيريا واقتصاديا وماليا وتجاريا وعسكريا . ولم يكن ذلك الوضع قابلا للحياة طويلا فاما وحدة حقيقية واما انفصال . وبينمـا قنعت القوى المسؤولة عن الحفاظ على الوحدة بالخطوة الشكلية التي تحققت ولم تنشط في تصفية آثار التجزئة ومـلء الاطار السياسي الموحد بمحتوى اقتصادي واجتماعي وعسكري واحد ، نشطت القـوى الامبريالية والصهيونية وعملاؤها الانفصاليون للقضاء على الوحدة وهي في اضعف اشكالها . وهكذا لم يتطلب انفصال اقليم من دولة اكثر من بيان في الاذاعة ، وهو ما لا مثيل لـه فـي التاريخ . ولـم يواجه الانفصاليون اية متاعب ، من اي نوع ، فبمجرد اعلان الانفصال وجدوا بين أيديهم دولة مجهزة ومعدة للانفصال .

لماذا ؟ لان الاقليمية الخائفة على مصالحها الخاصة ، الداعية الى الوحدة كطريق الى مكاسب جديدة تضاف الى مكاسبها في اقاليمها ، اذعنت لوحدة الاطار السياسي ولكنها حالت دون الالتحام الجماهيري والاقتصادي والعسكري حتى لا تفقـد مواقعها القيادية او مصالحها السياسية او سيطرتها العسكرية . فهل فشلت دولة الوحدة ام خربتها الاقليمية .؟

الثاني : ان وحدة ١٩٥٨ لم تكن تجسد آمال الجماهير العربية ، وتشكل خطوة تقدمية لمجرد أنها وحدة بين مصر وسورية ، بل لانها دولة الوحدة النواة ، التي قامت على انقاض دولتي مصر وسورية . ودولة الوحدة « النواة » لا تتميز بعدد الاقاليم التي تقوم عليها ، ولكن بانها قاعدة الثوريين العرب ومنطلقهم الى تصفية الاقليمية واقامة دولة الوحدة العربية الشاملة . وهي لا تكون كذلك الا برفض التجزئة وعدم التردد ، او التوقف عن استرداد مزيد من الارض العربية الى ان تنمو الدولة النواة وتصبح دولة الوحدة . فان توقفت وارتضت حدودها الجديدة فقد انقلبت الى دولة اقليمية وان كانت قائمة على رقعة أوسع من ذي قبل من الوطن العربي ، وان كانت تضم قطرين او اكثر ـ وقد توقفت وحدة ١٩٥٨ عند حدود الاقليمين ، او تقول تجمدت ، فتحولت الى دولة اقليمية كبيرة . ولما كانت الاقليمية فاشلة ولو تجسدت في دولة كبيرة فقد فشلت في الحفاظ على وجودها .

من الذي فشل ؟ ليس دولة الوحدة العربية النواة التي هتفت لها الجماهير العربية سنة ١٩٥٨ ، بل الدولة الاقليمية التي كانت قائمة على اقليمي سورية ومصر سنة ١٩٦١ . اما لماذا فشلت ، اي لماذا انقلبت دولة أقليمية ، فلان القوى الاقليمية الخائفة على مصالحها الخاصة ، التي تدعو الى الوحدة من منطلق أقليمي باعتبار ان قد تحمل اليها الوحدة مجالات اكثر اتساعا للاستغلال كانت حريصة في تجربتها الوحدوية الاولى على ان تنتظر حتى تستوثق مما اذا كانت التجربة قد حققت لها مكاسب تغري بمزيد من الوحدة ، أو لم تحقق .

الثالث : هو ان وحدة ١٩٥٨ قامت بتأييد عارم لا شك فيه من جانب الجماهير العربية في كافة أنحاء الوطن العربي ولكن في غيبة التنظيم القومي الثوري الذي يضم طلائع تلك الجماهير ، ويقودها ، فيحقق الوحدة بقوتها على وجه يجسد قوميتها شكلا ومضمونا ، ويبقى على الوحدة نواة لدولة الوحدة الاشتراكية الديموقراطية التي يستهدفها ، ويدافع عن الوحدة حتى الموت كما يدافع الثوار عن قواعدهم .

ان هذا السبب اولى بانتباه الشباب العربي لانه كامن وراء السببين الاولين وان كان اكثر منهما شمولا . اما انه كامن وراء السببين الاولين فذلك لان وجود التنظيم القومي الثوري كان كفيلا بسحق الاقليمية التي أبقت وحدة ١٩٥٨ معدة للانفصال حتى انفصلت وحولت دولة الوحدة النواة الى دولة اقليمية ففشلت . اما انه اكثر منهما شمولا فذلك لانه كامن وراء كل الهزائم التي اصابت الامة العربية حتى هزيمة ١٩٦٧ ، وسيكون كامنا وراء أية هزيمة تصيب الامة العربية حتى في ساحة « المقاومة » . الى ان يقوم التنظيم القومي الثوري ويتولى مسؤولية قيادة الجماهير العربية ضد اعدائها ، في كل الساحات ، على الطريق الى دولة الوحدة الاشتراكية والديموقراطية .

لا شك في هذا ابدا .

ومن هنا ندرك انه حتى لو لم تكن المقاومة الا افضل المداخل المتاحة لبناء التنظيم القومي ، وحتى لو لم يستطع ابطال المقاومة الا ان يساهموا ،ويسهلوا ، مولد التنظيم القومي ،فقد حققت المقاومة وحقق ابطال المقاومة الشيء الجوهري الذي تفتقده امتهم العربية ، ووضعوا قدمها على أول طريق النصر ، وانعطفوا بالتاريخ العربي انعطافة جديدة ظافرة لا شك في انها ستؤثر تاثيرا عميقا في اتجاه التاريخ البشري المعاصر .

حقيقة الموقف :

سؤال (١١)

تقول ان الغزو الصهيوني قد وقع بتأييد من الامبريالية العالمية وعلى رأسها الولايات المتحدة الامريكية ، أفليس اكثر مطابقة للحقيقة أن نقول ان هناك غزوا امبرياليا للوطن العربي يستعمل الصهاينة اداة له في تحقيق أغراضه على اساس ان اسرائيل ليست الا اداة تابعة ، وقاعدة ، للامبريالية . اني ارى ان هذا التحديد يساعدنا على فهم عدونا الاساسي في معركة تحرير فلسطين .

جواب (١١)

ان اسرائيل ، والحركة الصهيونية ، حليفة للامبريالية العالمية وليست اداة لها . ان كلا منهما ذو استقلال فكري وتنظيمي وحركي ، ولكل منهما استراتيجيته الخاصة . الحركة الصهيونية حركة عنصرية رجعية نشأت في وسط اوروبا ، ثم تحالفت مع الاستعمار البريطاني ، ثم نقلت تحالفها الى الولايات المتحدة الامريكية ، تبعا لانتقال مركز القوة الدولي ، بقصد تحقيق غايتها الخاصة وهي اقامة دولة يهودية من الفرات الى النيل . فهي حركة غزو استيطاني يستهدف أرضا محددة. اما الامبريالية العالمية فهي تحالف رأسمالي تقوده الولايات المتحدة الامريكية حاليا غايته فرض سيطرته المالية والاقتصادية على امكانيات العالم ونهب ثروات الامم ، أو تسخيرها لما يتفق مع تحقيق مزيد من الرخاء والقوة في الدول الاستعمارية ، وبالرغم من الاختلاف في مضمون العدوان ، ومدى شمول الاستراتيجية العدوانية ، في كل من الحركة الصهيونية والامبريالية العالمية ، الا انهما حليفتان متفقتان فيما يتعلق بالوطن العربي على وجه التحديد . الامبريالية العالمية بقيادة الولايات المتحدة الامريكية تستهدف أبقاء العالم العربي في حالة تخلف وتبعية اقتصادية فتحول بكل قوة دون وحدته . ويحقق لها هذا ويضمنه عزل المشرق العربي عن المغرب العربي بكيان غير عربي . والصهيونية تستهدف اقامة الدولة اليهودية في ذات المكان الذي يعزل المشرق العربي عن المغرب العربي ويجعل وحدته اكثر صعوبة . فمع اختلاف المبررات أصبح الوجود الاسرائيلي في قلب الوطن العربي يحقق لكل من العدوين غايته فتحالفا . والامبريالية العالمية بقيادة الولايات المتحدة الامريكية تستهدف استنزاف الامكانيات العربية في حروب دفاعية والاعداد العسكري لها وهو اقتطاع من قواها المنتجة لتبقى متخلفة ـ بينما تدبر الصهيونية منذ عشرات السنين الحروب العدوانية ضد الامة العربية لتستولي على الارض التي تريد ان تقيم عليها الدولة اليهودية . فمع أختلاف المبررات اصبح العدوان الاسرائيلي المتجدد على الامة العربية يحقق لكل من العدوين غايته فتحالفا . والتحالف يعني التعاون وتبادل الخدمات في اطار الاهداف المشتركة .ان هذا قد يبدو غير ذي قيمة عملية ما دمنا نواجه الامبريالية والصهيونية معا . ولكننا نعتقد انه ذو قيم عملية خطيرة . أولها ان الاعتقاد بان الصهيونية اداة للامبريالية قد يؤدي الى الاعتقاد الخاطيء بان مساومة الولايات المتحدة الامريكية سيؤدي الى ان تسحب قاعدتها الصهيونية من فلسطين وتكف عنا اداتها اسرائيل . وهو وهم عشنا فيه ردحا من الزمان يوم ان كنا نفاوض انجلترا لتكف عنا الحركة الصهيونية ظنا بانها أداتها . ثم ان هذا الاعتقاد قد يؤدي الى تغطية الاغتصاب الصهيوني للارض العربية لو انقطعت صلة اسرائيل الدولة بالولايات المتحدة الامريكية عن طريق تولي الاتجاهات التي يقال لها يسارية سلطة الحكم في اسرائيل . وهو وهم يداعب خيال كثير ممن يسمون انفسهم تقدميين في الوطن العربي او خارج الوطن العربي ، ومهما تكن ضآلة فرصة تولي بعض العناصر من ادعياء التقدمية في اسرائيل للحكم ، فان موقفنا يجب ان يكون محددا من الان باننا لا نقبل اقتطاع جزء من وطننا العربي ولو سكنته الملائكة . ان رفضنا للوجود الاسرائيلي قائم على حقنا في فلسطين ولا يتأثر حقنا

هذا بنوع النظـام الاجتمـاعي فـي مجتمع الفاصبيـن ولا بسياساتهم الداخلية او الدولية . ثاني اوجه الخطورة في تجاهل الاستقلال داخل التحالف الامبريالي الصهيوني ان الاعتقاد المضاد بـان الامبريالية اداة مسخرة للصهيونية يخفي عنا الدور الايجابي ، ذي الغايـات البعيدة ، للعدوان الامبريالي الذي يتم ـ مرحليا ـ فـي اطار تحالفها مـع الصهيونية . ثم انه يؤدي الى نتيجة مفزعة هـي الاعتقاد بان هزيمة الصهيونية وتحرير فلسطين سيكون نهايـة معاركنا ضد الامبرياليـة باعتبار ان الامبريالية لم تدخل المعركة ضدنـا الا كاداة للصهيونية . وهذا وهم ضيق الافق . ان معاركنا ضد الامبريالية بقيادة الولايـات المتحدة الامريكية ستستمر وستكون اكثر ضراوة عندما نواجهها مباشرة بعد ان نكون قد صفينا الوجود الاسرائيلي في فلسطين .

لهذا ، فنحن امام عدوين متحالفين ، ولسنا امام عدو واحد يتخذ من الاخر مجرد اداة له غير ذات اغراض عدوانية خاصة .

سؤال (١٢)

ما المقصود على وجه التحديد من القول بـأن الغزو الصهيوني موجه الى الوطن العربي بدلا من القول بانه موجه ضد الدول العربيـة عامة ، او بمعنى اصح ضد الدول العربية التقدمية .

جواب (١٢)

المقصود الكشف عن حقيقة هي ان الغزو الصهيوني موجه الـى الوطن العربي وليس الى الدول العربية او اي دولة عربية بالذات . اذ الواقع انه عندما رسم الصهاينة حدود الارض التـي يريدون غزوها والاستيطان فيها واقامة الدولة اليهودية عليها لم تكن هناك ايـة دولة عربية فقد كان الوطن العربي كله تحت السيطرة التركية . ثم انه لمـا ان خطط الاستعمار الغربي حدود الدول العربية القائمة حاليـا ، لم تغير الصهيونية مخططاتها مراعاة لاية دولة ناشئة . اما عـن استهدافها الدول العربية المسماة تقدمية فانه غير صحيح ايضا . فان الصهيونية غزت الارض العربية في ظل الاحتلال البريطاني ، وتوسعت سنة ١٩٤٨ بينما كانت الدول العربية تابعة للاستعمار تحكمها الرجعية ، واستولت على خليج العقبة سنة ١٩٥٦ في معركة مع مصر المتحررة التي لم تتحول اشتراكيا ، ثم اضافت ارضا جديدة سنة ١٩٦٧ مقتطعـة مـن ثلاث دول مختلفة من حيث نظام الحكم او النظام الاجتماعي . ذلك هـو المخطط الصهيوني التوسعي .

وهذا لا ينفي انه عندما وجهت الصهيونية ضربتها الاولى الى الامة العربية كانت الضربة غزوا لبعض ارض فلسطين ، وانهـا كلما توسعت اصابت ضرباتها دولة او اكثر من الدول العربية ، لان الواقع الفعلي ان الوطن العربي الذي تحاول الصهيونية الاستيلاء على جزء منه مقسم بين الدول العربية . كما لا ينفي ايضا ان الصهيونية عندما تؤقت وتختـار معاركها التوسعية المرحلية تستهدف تحقيق امرين معـا . الامر الاول الاستيلاء على مزيد من الارض . الامر الثاني ضرب اية قوة او اي اتجاه نام قوميا او تقدميا قبل ان تكتمل له المقدرة على حماية نفسه ضـد مراحل التوسع المقبلة او قبل ان تكتمل له المقدرة على توجيه ضربـة مضادة . ولا شك في ان الاتجاهات التقدمية القومية في بعض البـلاد العربية تمثل خطرا مقبلا على مخطط التوسع الصهيوني . كما لا شك في ان دخول الجماهير العربية غير المنتمية سياسيا الى ايـة دولـة عربية يمثل اتجاها بالغ الخطورة على الوجود الاسرائيلي ذاته . ومـن هنا كانت الضربات الاسرائيلية توجه الى هذه القوى الناميـة لتأمين مقدرة اسرائيل على مزيد من التوسع . ويمكننا ان نضيف الى هـذا عاملا لا شك في اهميته ، وهو انه انطلاقا من معرفة الحركة الصهيونية انها كانت دائما ، وما تزال ، وستظل عاجزة عن تحقيق اغراضها منفردة وبقوتها الذاتية ، فان استراتيجيتها قائمة على اساس التحالف المستمر مع مركز القوة العالمية الذي كان المانيا الامبراطورية فتحالفت معها ، ثم انجلترا فتحالفت معها ، ثم الولايات المتحدة الامريكية فتحالفت معها . والتحالف يتضمن تبادل الخدمات والمساعدات . ومنذ سنة ١٩٥٦ كانت مصر عدوا صلبا للاستعمار الامريكي ، لانها لم تقبل عودة النفوذ الامريكي الى الشرق العربي بديلا عن النفوذ البريطاني الذي ساعدت امريكا على هزيمته في سنة ١٩٥٦ لتحل محله . وقد حاولت الولايات المتحدة ان تحل محل بريطانيا بكل الطرق ، من اول المساعدات الاقتصادية الى آخر الحصار الاقتصادي . وعندما تحققت الوحدة بين مصر وسورية سنـة ١٩٥٨ تأكدت الولايات المتحدة الامريكية بان طريقها الى المشرق العربي لا يمكـن ان يقوم الا على انقاض الاتجاه القومي الذي يـدفـع الدول العربيـة الى غايـة تبدو حتميـة هي قيـام الوحدة الشاملة .حينئذ بدأ التخطيط الاميركي لضرب هذا الاتجاه وتصفيته ، واتخذ التخطيط هدفـا لـه عزل الجمهوريـة العربيـة المتحدة عـن العالم العربي وعن قضاياه . فكـان الانفصال خطوة اولى ، ثم التهديدات المستمرة للاقليم الشمالي ، ثم تحرك القـوات مـن الاقليم الجنوبي تعبيـرا عن موقف التأييـد لسلامة الاقليم الشمالي ، واذا بهـا تواجه خططا هجوميـة جاهزة منذ زمـن بعيد لتصفيـة قواتهـا العسكرية بمجرد استدراجها الى الحدود . ثم وقعت المعركـة التي استهدفت الصهيونية منورائها ارضـا جديدة كجزء مـن خطتهـا التوسعية ، واستهدفت الولايـات المتحدة الاميركيـة من ورائهـا تصفيـة انفتاح مصر على العالم العربي. وان كنـت تشك في هـذا فلعلك قـد سمعت ان الولايات المتحـدة الاميركيـة عرضت ، ولم تسحب عرضهـا ،بان تعيـد سيناء الـى الجمهوريـة العربيـة المتحدة في نظير امر واحـد هـو ان تنفض الجمهوريـة العربية يدهـا من القضايا العربيـة .

اذن فالغزو الصهيوني يستهدف اصلا الوطـن العربي ، بدون توقف على وجـود او عدم وجـود الدول العربية ، او على حدودها ، ونظـم الحكم فيهـا ، او مـا اذا كـانت تقدمية او رجعية . اما شقالطريق الـى هذا الهدف فيصطدم بالدول القائمة على الارض التي يستهدفهـا الغزو سـواء كانت رجعيـة او تقدميـة . امـا المعارك فتدور ضـد القوى التـي تعترض الطريق او قد تقطعه في المستقبل . اما استهداف الجمهوريـة العربيـة المتحدة بالذات فـلان عزل مصر عـن الوطـن العربي يمثل هزيمـة ساحقـة للحركة القوميـة . وعندمـا تهـزم الحركة القوميـة يصبح الوطـن العربي،بمـا فيه مصر ، لقمة سائغـة للامبرياليين الاميركييـن .

سؤال (١٣)

الا تكشف الاجابة عن السؤال السابق حقيقة الخطأ الذي تكرر في المحاضرة وهو الحديث عـن الدول العربيـة كمـا لو كانت متساوية في الموقف القومي ،او الموقف التقدمي ،او الموقف من فلسطين،بحجة انها ما دامت كلهـا اقليميـة فكلها فاشلة ، هـل يصح بالنسبـة للجمهوريـة العربيـة المتحدة مثلا ما يصح بالنسبة لتونس ؟

جواب (١٣)

ارجـو ان يكون واضحـا اننـا عندمـا نتحدث عـن الدول ،او الدولة ، نتحدث عن مؤسسة سياسيـة ذات مضاميـن فكريـة واقتصادية وسياسيـة خاصة • وهي ذاتهـا شخص اعتباري (معنوي) خاص متميز عـن الاشخاص الذين يعملون في اجهزته . هذه الدول ، المؤسسة ، شخص من اشخاص القانـون الدولي ملتزمة به في حركتها الخارجيـة في مواجهـة الدول الاخرى . وهذه الدولة ، المؤسسة ، شخص مـن اشخاص القانـون الداخلي ملتزمة به في حركتهاالداخلية في مواجهـة الشعب الذي تضمه . وهذه الدولة المؤسسة ، محـدودة المقدرة بامكانياتهـا الخاصة ، وهي في الوقت ذاته حائل دون ان يستفيد الشعب من ايـة امكانيات غيـر امكانياتهـا الخاصة . انهـا ساحة النشـاط الاجتماعي وهي في الوقت نفسه حدود هـذا النشاط .

ونحن عندما نقيم الدول العربية على حقيقتها كدول ، ولكن من وجهة نظر قومية ،اي على ضوء المقارنة بين ما نستطيع ان نقدمه الى الشعب العربي فيها من امكانيات التقدم ، وبين ما يمكن ان يحصل عليه هذا الشعب نفسه من امكانيات في ظل دولة الوحدة الاشتراكية الديموقراطية نقول انها فاشلة لانها اقليمية .وهذا يصح بالنسبة الى جميع الدول العربية .

اما مقارنة الدول العربية فيما بينها فشيء اخر . انها تختلف مساحة وعدداً وثروات وامكانيات ونظاما وحكاما وقادة . وفي هذا لا تستوي دولة مع دولة اخرى . ولا يعنينا الان أن نصوغ جدولا مقارنا لحركة التقدم في الدول العربية . انما الذي يعنينا تماما ان نفسر ذلك الاختلاف بين الدول العربية في مواقفها من القضايا القومية . قد يبدو عسيراً على الفهم ان نقول مثلا عن الجمهورية العربية المتحدة انها دولة اقليمية ، في ذات الوقت الذي نقول فيه ان اتجاهها القومي حقيقة تزعج الاستعمار الى درجة التحالف مع الصهيونية لتصفية هذا الاتجاه بالقوة المسلحة . ان انفتاح مصر على امتها العربية كان في ذاته نصرا قوميا فكيف تحقق في ظل الاقليمية ؟ ودعم ثورات التحرر في الجزائر وفي اليمن وهي كل مكان من الوطن العربي حركة قومية ، ولا نقول مجرد موقف ، فكيف تمت في ظل الاقليمية ؟ واذا كانت الانتصارات القومية قابلة للتحقق في ظل الدول الاقليمية ، ومن خلالها ، فلماذا نتهم الاقليمية بالفشل ؟

اسئلة مكررة ، ومبررة .

ومع هذا لننظر معا الى البدهيات . والبدهية الاولى ان القوى القومية التقدمية التي تجسد الحركة القومية تعيش وتمارس نشاطها الفكري والسياسي في ظل تجزئة وطنها العربي الى دول اقليمية متعددة . وبحكم القيود الاقليمية على التحامها وشمول نشاطها الوطن العربي كله ، يتجه هذا النشاط الى تحقيق أكبر قدر من التقدم تسمح به الامكانيات الاقليمية مع محاوله كسر القيود الاقليمية المثلة في الدولة ودستورها وحدودها وقانونها ومحاكمها وسجونها للالتحام بالقوى القومية التقدمية الاخرى التي تفعل نفس الشيء في دول عربية اخرى .

ثم يأتي الموقف من سلطة الحكم في الدول الاقليمية .

عندما تكون الدولة في قبضة قوى اقليمية ، تبدو الاقليمية منسجمة مع ذاتها ودولتها ، وهنا ينكشف دورها الفاشل الرجعي العميل ونكون امام نموذج « تونس تحت حكم بورقيبة » . هناك الدولة الاقليمية التي يحكمها الاقليميون حيث تسحق القوى القومية التقدمية بقسوة وحشية ، وحيث تتآمر الدولة علنا مع الاستعمار ومع الصهيونية أيضا ، وتبرر تآمرها بفكر تنسجم اقليميته مع رجعيته . ولكن الامر ليس على هذا الوجه في كل الدول العربية ، اذ ان القوى القومية التقدمية ليست قوى سلبية او ضعيفة . بل حدث ويحدث أن يتولى قادة لا شك في ان اتجاههم القومي التقدمي مسئولية الحكم في دولة اقليمية . هنا يقوم الصراع الذي لم يرد في كتب الفقه الدستوري أو فقه كتاب الصراع الاجتماعي . قيادة لا تؤمن بالدولة الاقليمية تصبح هي ذاتها صاحبة الدولة الاقليمية ، قيادة لا تؤمن بشرعية التجزئة ، ومع هذا تحتكم الى الشرعية الاقليمية في تعاملها الدولي . قيادة تؤمن بوحدة الامة العربية ومع هذا تجد نفسها مضطرة الى معاملة ابناء هذه الامة معاملة الوافدين الاغراب . قيادة تؤمن بوحدة الامكانيات العربية ، ومع ذلك تجد نفسها مضطرة الى الدخول في سباق المنافسة بين دول التجزئة . قيادة تؤمن بان التقدم لا يقوم على اساس التجزئة ومع ذلك تحاول حل المعادلة الصعبة في الاقليم بينما المعادلة لا تحل الا في ظل الوحدة . والصراع دائم بين الاتجاه القومي وقيود الاقليمية التي تشده الى الوراء : قيود الدستور والقانون والالتزامات الدولية . ووراء هذا صراع اجتماعي لايتوقف بين القوى القومية التقدمية التي تقف وراء الاتجاه القومي الذي تمثله القيادة وبين القوى الاقليمية ذات المصالح التي تجسدها الدولة . وقد سحق هذا الصراع المرير بعض الحكام الذين وقعوا في شرك الحكم الاقليمي، فاذا بهم من خلال تراكم وتبرير تصرفاتهم اليومية، من اول تفتيش الحدود الى وعود العدالة الاجتماعية ، يجدون أنفسهم وقد اصبحوا اقليميين تحت شعار التقدمية . ومنهم من اراد ان يغطي هزيمته التي يشعر بها شعورا قويا فاتجه الى مزايدات قومية ، او تقدمية ، هو اول من يعلم انها غير قابلة للتحقق . ومنهم من صمد للصراع الذي لم يحسم بعد . هنا تستطيع القيادة القومية ان تدفع بالدولة الى معارك التحرر بجرأة وحسم برغم الاقليمية ، لان المجاهرة بالرغبة في الانسحاب من معارك التحرر يكشف ارتباط الاقليمية بالاستعمار ، فهي توافق علنا وتنقد سرا وتبحث عن مخرج غير متهم من متاعب التحرر العربي . ولكن عندما تطرح قضية الوحدة لا تقبل الاقليمية ان تلغى دولتها فهي تقبل التعاون والتحالف والوقوف في صف واحد ... الخ ولكنها لا تقبل الوحدة . ولما تمت الوحدة نتيجة لعلاقة قامت بين القواعد والقيادة متخطية الدولة ، كانت الاقليمية بالمرصاد فلم تترك فرصة واحدة لاضعاف الوحدة واعدادها للانفصال .

ان هذا يعني ان ما يتحقق في اتجاه قومي عن طريق الدول العربية انما يعبر عن مرحلة انتصار للقيادة القومية التقدمية في صراعها ضد دولتها الاقليمية ، ولكن انحسار هذا الاتجاه من حين الى حين يدل على ان الصراع لم يحسم ، وهو لا يحسم ما دامت الدولة الاقليمية قائمة ، لان قابلية الدولة الاقليمية للاستجابة لتطلبات النضال القومي محدود ، ومن هنا فهي اداة فاشلة في النهاية . فكيف يمكن الخروج من هذا المازق اي كيف يمكن ان تحكم القوى القومية التقدمية دولة عربية بدون أن تتحول هي الى قيادة اقليمية ؟ بالتنظيم القومي الثوري الذي يرشح لها حكامها وتبقى قيادته بعيدة عن سجن الاقليمية ، قادرة على ان تواصل نضالها القومي الى ان تكسب ارضا جديدة فتقيم دولة الوحدة النواة .

الم نقل ان التنظيم القومي الثوري هو الاداة الوحيدة الصالحة لحل مشكلات القوى القومية ؟

المقاومة من وجهة نظر قومية :

سؤال (١٤)

ا ـ كيف يمكن القول اطلاقا بان الدول العربية كانت وما تزال وستظل ، منفردة او متحالفة ، غير قادرة على تحرير فلسطين لان تحرير فلسطين يقع خارج نطاق اهدافها في حين انه يمكن لقوة قومية تقدمية في مكان السلطة ان تستهدف تحرير فلسطين وان تسخر قوى الدولة ذاتها لهذا التحرير .

ب ـ ثم اليست اسرائيل دولة قائمة على اصغر الاقاليم العربية فلماذا انتصرت ؟

جواب (١٤)

أ ـ اما عن مقدرة الدول العربية على تحرير فلسطين فقد قلنا انها عاجزة ما دامت « اقليمية » لان الاقليمية هي مصدر الفشل، وما دامت الدولة اقليمية فان اية قوة قومية تتولى السلطة لن تجد من بين اهداف دولتها مسئولية تحرير ارض تعتبرها الدولة الاقليمية ارضا اجنبية . فالقوة القومية التي تتولى السلطة في اية دولة عربية لن تستطيع ان تدخل في اهداف دولتها تحرير فلسطين الا اذا رفضت التجزئة العربية واعتبرت انها دولة قومية . وهذا يعني أن ترفض وجود دولتها الاقليمية

ذاتها وتحيلها الى دولة وحدة نواة • والدولة تتحول الى دولة وحدة نواة عندما تصبح قاعدة الثوريين العرب ومنطلقهم الىتحرير الأرض العربية في كل مكان واسقاط الاقليمية في اي مكان ايضا. فان استطاعت القوة القومية التي تتحدث عنها ان تفعل هذا قد سحقت دولتها الاقليمية قبل ان تستطيع ان تخطو خطوة واحدة خارج حدودها .

ب ـ اما عن اسرائيل فهي ليست دولة على اقليم يمكن مقارنته باية دولة عربية . ان اسرائيل هي القوة الضاربة التابعة لتنظيم صهيوني عالمي . هو الذي خطط لها ، وهو الذي يمولها ويكسب لها الحلفاء والمؤيدين في العالم اجمع ، وتتحرك تحت قيادته لكسب مزيد من الارض تستوعب اليهود جميعا . والارض المحتلة ليست اقليما لدولة اسرائيل بل هي راس الجسر ، او القاعدة ، التي احتلتها الصهيونية لتحشد عليها قوتها الضاربة من اجل مزيد من التوسع . وهكذا نرى انه عندما نقول ان على المقاومة انتتحول الى قوة ضاربة لتنظيم قومي جماهيري ثوري، فاننا لا نبتكر اسلوبا جديدا لقتال الصهيونية انما ندعو الى الاسلوب المتكافىء مع أساليب الاعداء . وعندما تتكافأ الاساليب يكون النصر حليف الاوفر امكانيات ، واكثر تحملا لمرارة الصراع ، واعدل غاية .

سؤال (١٥)

ما معنى ان المقاومة كاسلوب قتال جماهيري هي مدخل تاريخي لبناء التنظيم القومي . هل يعني هذا انه لا يوجد اي مدخل غيره ؟..

جواب (١٥)

نعني بالمدخل التاريخي انه افضل الامكانيات المتاحة في مرحلة تاريخية محددة .

ولا شك ان دخول الجماهير العربية ساحة القتال المسلح ضد الغزو الصهيوني يقدم افضل الامكانيات المتاحة لبناء تنظيم قومي ثوري في الوقت الحالي . ليس معنى هذا انه لا يوجد اي مدخل غيره ، او ان مصير الامة العربية متوقف على ما يراه نفر من ابنائها ولو كانوا من ابطال المقاومة • ولكن معناه ان ابطال المقاومة من جهة ، والقوى القومية التقدمية من جهة اخرى امام فرصة تاريخية يتحملون جميعا مسئولية اهدارها .وعندئذ ستبحث الجماهير العربية عن مدخل اخر ، ولو كان اصعب. اما ما هو المدخل الاخر ، الاصعب، فذاك حوار لا يدور الا بين الذين يعنون ما يقولون ، اي الذين لا يبحثون عن المدخل من قبيل الفضول ،ولكن لانهم لا يقبلون الحياة نفسها الا في داخل تنظيمهم القومي اولئك يعرفون ما يجب عليهم ان يفعلوه ليجسدوا ولاءهم لجماهير امتهم بالرغم من كل العقبات والصعوبات.

دعوة الى القوى العربية التقدمية :

سؤال (١٦)

ما هو مفهوم التقدمية ؟

جواب (١٦)

اين ، ومتى ؟

ان التقدمية موقف ايجابي قائم على اسس خمسة :

الاول : الوعي بان كل شيء في الوجود متحرك متغير ابدا .

الثاني : الوعي بان كل شيء متغير متحرك يتقدم من الماضي الى المستقبل وينمو من خلال الاضافة نموا جدليا . الثالث : الوعي بان مضمون التقدمية يختلف من زمان الى زمان في المجتمع الواحد . الرابع : الوعي بان مضمون التقدمية يختلف من مجتمع الى مجتمع في الزمان الواحد . الخامس : ان التقدمية على هذا الاساس هي التبني الايجابي للحلول الصحيحة للمشكلات التي يطرحها مجتمع معين في مرحلة تاريخية معينة .

فان اردت ان تطبق هذا على المرحلة التاريخية التي تمر بها الامة العربية ،فان المشكلات الرئيسية التي تطرحها الظروف العربية الان هي الاحتلال والتجزئة والتخلف والاستغلال . وان حلولها الصحيحة هي الحرية والوحدة والاشتراكية . وعلى هذا يكون مفهوم التقدمية بالنسبة الينا هو التبني الايجابي للحرية والوحدة والاشتراكية، معا .

سؤال (١٧)

اذا كنا لا نعرف كثيرا عن حقيقة المنظمات في الساحة فكيف عرفنا انها بكل منظماتها لم تتبلور بعد ـ نهائيا ـ لا فكرا ولا تنظيما فهي قابلة للتطوير والتطور . اننا نعرف ان اقدم المنظمات في الساحة ذات اتجاهات مبلورة منذ نشاتها ولم تتغير كما ان بعض المنظمات قد انشقت على اساس عقائدي مما يدلعلى انها متبلورة .

جواب (١٧)

اننا نعرف ما تقول ومع هذا فانا لا نعرف كثيرا عن حقيقة المنظمات في الساحة . ربما لان ضراوة المعركة التي تخوضها المقاومة ضد الصهيونية والامبريالية وعملائها تحول دون اباحة كثير من اسرار المنظمات . هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى فانا لا نستطيع ان نقول على كل ما يقال عن المقاومة لاننا لا نستبعد تدخل القوى المعادية ، بطريق او بآخر ، فيما يعلن . ومن بين ما نعرفه ان بعض الشباب العربي قد حددوا مواقفهم النهائية من منظمة او اكثر على اساس انها قد تبلورت نهائيا على ما يعرفونه عنها معرفة ممارسة . ونعرف ايضا ان قيادات بعض المنظمات تتصرف كما لو كانت قد وصلت الى صيغتها النهائية . ثم نعرف معرفة اليقين ان هذا غير صحيح وان المقاومة بكل منظماتها لم تتبلور بعد ـ نهائيا ـ لا فكرا ولا تنظيما . ذلك لاننا نعرف بان العبرة في المواقف النهائية لا بما يظنه الناس بانفسهم او بغيرهم ولكن بملاءمة تلك المواقف للظروف الموضوعية . اي ان طبيعة المعركة ضد الغزو الصهيوني هي التي ستكون العامل الرئيسيفيبلورة المقاومة فكرا وتنظيما . ولما كنا نعرف ان المعركة ضد الغزو الصهيوني معركة قومية تقدمية فانا على يقين من ان كل المنظمات ـ بدون استثناء ـ ستكون مضطرة الى تطوير نفسها في اتجاه طبيعة المعركة • ان هذا يمكن ان يتم عن طريق المعرفة العلمية ومن الآن ، ولكن تجاهله لا يعني انه لن يتم ، فخلال المعركة الطويلة ، وتراكم الخبرات ، والمعاناة اليومية للتناقضات ، والخيار الملزم بين النصر او الهزيمة ، سيخرج من الساحة كل الذين لا يلائمون طبيعتها ولا تبقى في الساحة الا المقاومة القومية التقدمية .

سؤال (١٨)

لماذا ترى ان الاتجاه المرتبط ببعض الدول العربية سيخرج من المعركة بمجرد انقضاء مرحلة ازالة آثار العدوان اي بخروج الدول العربية المرتبطة بها من المعركة بعد استرداد ما ضاع من اقاليمها في يونيو ١٩٦٧ ، ولا تقدر احتمال بقاء هذه المنظمات في الساحة ، وما الذي يمنع من استمرار دعم الدول العربية للمقاومة حتى بعد ازالة آثار العدوان ؟

جواب (١٨)

لانه عندما تخرج الدول العربية من المعركة تكون ملزمة فيمواجهة

المجتمع الدولي بان تكلف القوى التابعة لها من الاستمرار في القتال . فاذا لم تفعل فهي في حرب تتجاوز حدودها ايا كانت صورة القوى التابعة لها ، نظامية او منظمة . ولما كانت الدول العربية تخوض المعركة الآن ـ كما تعلن ـ في سبيل ازالة آثار العدوان وفي حدوده ، فانها كدولة « ستكف القوى التابعة لها عن القتال فور ازالة آثار العدوان . وتجد المنظمات التابعة لها حينئذ ان عليها ان تطيع التعليمات الصادرة من القيادة الحقيقية . ومع هذا لنفترض ان المنظمات التابعة لم تطع وتمردت على قيادتها . انها حينئذ ستجد نفسها بدون قواعد ولا اموال ولا مزيد من الاسلحة وستحاول ان تحصل على ما تريد من الجماهير وليس من الدولة ، فتكتشف انها لم تكن يوما مرتبطة بجماهير منظمة قادرة على تعويضها ايجابيا عن رابطتها بالدولة التي خذلتها ، اي ستفتقد التنظيم القوي القادر على ان يمدها بعناصر المقدرة على الاستمرار ، من كل الاقطار بدون توقف على موقف الدولة في اي قطر على حدة . ومع هذا لنذهب الى اكثر من هذا ونفترض ان بعض الدول العربية ستخرج من المعركة « علنا » ولكن تظل تدعم المقاومة سرا . ان هذا لن يغير من الوضع الدولي شيئا فلا اسرار بعيدة عن معرفة اجهزة الدول المعنية بمراقبة جدية لخروج الدول العربية من المعركة بعد ازالة آثار العدوان ثم ان الدعم السري قابل للانقطاع عندما ينكشف . فلا تبقى اذن وسيلة لتامين استمرار دعم المقاومة بدون تدخل من الدولة او بدون ان تكون مسؤولة دوليا عن هذا الدعم الا ان تتولاه جماهير منظمة غير مرتبطة باية دولة . ذلك هو التنظيم القومي الثوري الذي لا تسال الدول العربية عن نشاطه لانه ينشط بعيدا عن اية تبعية لها ، بل ينشط بالرغم منها اذا اقتضى دعم المقاومة ذلك .

سؤال (١٩)

هل هناك تناقض بين مسؤولية شعب فلسطين عن تحرير فلسطين، وبين مسؤولية القوى القومية التقدمية عن تحرير فلسطين ؟

جواب (١٩)

لا تناقض ابدا الى ان تتحرر فلسطين . ولا خلاف ايضا اذا كان المقصود هو ان شعب فلسطين مسؤول عن تحرير فلسطين كجزء من مسؤولية القوى القومية التقدمية عن تحرير فلسطين . ولكن الخلاف يقوم اذا كان المقصود ان شعب فلسطين وحده ـ دون القوى القومية التقدمية ـ مسؤول عن تحرير فلسطين لانه وحده صاحب الحق في فلسطين ، فهي وطنه . ان في هذا عزلا للجماهير العربية عن معركة تحرير فلسطين ، او تمهيدا لعزلها . وهو ما لا تقبله الجماهير العربية. اما كيف يمكن التفرقة بين الشعار بمفهومه الاول والشعار بمفهومه الثاني . فمن خلال ما تمثله المنظمات ذاتها ، فالمنظمة القومية ستكون مفتوحة للجماهير العربية ،بمافيهم العرب من فلسطين بل قد تكون غالبية قواها من عرب فلسطين . لا شيء يمنع من هذا . وهكذا يتحقق الشعار بمفهومه الثاني وبدون خلاف . اما اذا كان الشعار مجسدا في منظمات مقصورة على العرب من فلسطين قيادة وكوادر وقواعد ، فكرا واستراتيجية وحركة ، فان سمتها الاقليمية تحول دون امكان اي تاويل قومي للشعار . وقد قلنا منذ البداية الا تناقض الى ان تتحرر فلسطين ونضيف هنا ان هذا التناقض لا يقوم حتى مع وجود الخلاف . لان التناقض مولد للصراع ، والخلاف تمييز لا يقتضي الصراع . ومن وجهة نظر قومية نرى ان التحالف ، وليس الصراع ، بين الاقليمية الفلسطينية وبين القوى القومية واجب قومي الى ان يتحقق النصر على العدو المشترك وتتحرر فلسطين لنرى بعد هذا لمن تكون الارض التي تحررت .

سؤال (٢٠)

ان الجماهير العربية كلها ـ وكما هو ثابت ـ تؤيد وتدعم المقاومة بدون وجود للتنظيم القومي فلماذا التركيز على ضرورة هذا التنظيم القومي كشرط لانتصار المقاومة ؟

جواب (٢٠)

لان المفروض ، بعد الهزائم التي لحقت بنا ، ان نحاول النظر الى ابعد من انوفنا . ان الجماهير العربية كلها ـ وكما هو ثابت ـ تؤيد وتدعم المقاومة لان المقاومة مباحة ولان تاييد الجماهير العربية لها مباح. مباح مؤقتا لان الدول العربية في حاجة الى المقاومة . وسيظل مباحا طالما هي في حاجة اليها . ونحن ننظر الى ما بعد هذا . عندما تصبح المقاومة غير مشروعة ، ويعود حمل السلاح جريمة معاقبا عليها ، ويعود النضال الجماهيري نشاطا « هداما » ، عندئذ سيتوقف مصير المقاومة على ما اذا كانت قد ارتبطت تنظيميا بالجماهير العربية ام لا ، لتستطيع قيادتها في الوقت المناسب ، ان تحركها ضد محاولات تصفية المقاومة ذاتها او تحريم التاييد والدعم الجماهيري لها . ان ما هو ثابت اليوم لن يظل ثابتا غدا الا ان نقيم من اليوم دعامة تثبيته في كل الظروف الى ان تنتصر المقاومة . وليس سوى التنظيم القومي الثوري دعامة موثوقة تستند اليها قوته الضاربة في ساحة المقاومة .

سؤال (٢١)

اذا كانت الدول العربية قد حالت وتحول دون قيام تنظيم قومي ثوري افلا تؤدي محاولة اقامته الى فتح معارك جانبية داخل تلك الدول وضدها يناقض ما تدعو له من ضرورة التحالف ضد العدو المشترك حتى مع الدول العربية التي تواجه اسرائيل وتعد للقتال ؟

جواب (٢١)

ان الاساس العقائدي للجواب هو ان الولاء اولا واخيرا للجماهير العربية . وعندما نقتنع بان قيام التنظيم القومي ضرورة لازمة لانتصار امتنا ، فيجب اقامة التنظيم القومي سواء رضيت الدول العربية ام لم ترض . ان الثوريين حقا لا يستاذنون احدا عندما يريدون الوفاء بمسؤولياتهم الثورية . والقوميون لا يستاذنون الاقليمية . ومع هذا فان الوعي القومي على ضرورة تجنب اية معارك مع حلفاء المعركة يحتم على القوى القومية الا تتحرك الا في الحدود التي تسمح بها ظروف التحالف من اجل المعركة . ان هذا يؤثر في صيغة الحركة وليس في ضرورة التحرك . وظروف التحالف من اجل المعركة لا تسمح الآن باقامة تنظيم قومي يتعرض لانقضاض الاقليمية ويضطر للدفاع عن نفسه في معارك جانبية . ولكنها ملائمة تماما للاعداد الفكري والبشري من خلال المعركة ذاتها . لهذا كانت دعوتنا الى تكوين كتائب « الانصار » . وكتائب « الانصار » كما نفهمها وندعو لها ليست التنظيم القومي ولكنها حركة قومية تعبيء الجماهير من اجل الانتصار في المعركة وتدعم التحالف العربي ، وتحول دون الاستسلام او المساومة ، وتسحق القوى العميلة والانهزامية ، وتحرض على القتال ، ثم تقاتل فعلا في ساحة المقاومة في صفوف قوتها الضاربة بقدر ما تستطيع وبقدر ما تحتاج قوتها الضاربة الى دعم بشري . وامام « الانصار » ساحة بعيدة فعليا عن يد الاقليميين . وامامهم حاجة الدول العربية ذاتها الى دعم الجماهير المنظمة . كل هذه ظروف تمثل افضل الامكانيات لاعداد الكوادر الثورية ، التي صقلتها المعركة ذاتها ، ولكنها ظروف موقوتة بمرحلة ازالة آثار العدوان . وهذا يعني ان على « الانصار » ان يلتحموا في تنظيم قومي قبل ان تنقضي هذه المرحلة ليستطيعوا ان يؤمنوا للمقاومة امكانيات الاستمرار في القتال .

بقي ان نقول ان اية دولة عربية تحول دون اسهام الجماهير اسهاما منظما في المعركة ضد الغزو الصهيوني ، تكون هي بذاتها قد خرجت على قاعدة التحالف من اجل المعركة . وتكون الجماهير العربية مطالبة بان تتعامل معها بالاسلوب الذي يناسب موقفها .

سؤال (٢٢)

لماذا تصر هنا وفي كتاب « ما العمل » على تسمية ما تدعو له باسم « كتائب الانصار » ؟

جواب (٢٢)

ليس ثمة اصرار لا هنا ولا هناك . انما ان لا بد من اسم ما يكون ذا دلالة بقدر الامكان . وقد اخترنا اسم « كتائب الانصار » اول مرة في رسالة الى الشباب العربي في اواخر يونيو ١٩٦٧ اي فــور الهزيمة وكان الاسم اشتقاقا من دعوة الى الشباب العربي بان ينصروا امتهم في محنتها . ثم وجدناه ملائما لما عرف عن قتال الوحدات الجماهيرية بينما الحرب النظامية قائمة ، فقد خاضت الجماهير السوفييتية « حــرب الانصار » بينما كان الجيش يتقهقر امام الهجـوم النـازي ،وعادت فصاحبت مسيرته الى النصر . ثم وجدناه اكثر ملاءمة للتعبير عن نصرة المقاومة . وهي ايضا كتائب انصار المعركة . او كما تشاء لاني لا اصر الا على الدعوة لتنظيم الجماهير واشراكها في المعركة . هذا هو الجوهري فيما ادعو له ، اما الاسم فشكل لا يستحق الاصرار عليه .

سؤال (٢٣)

اليست افضل صيغة واقعية ، وعلميــة ايضا ، لمواجهة الغــزو الصهيوني هو وحدة كل منظمات المقاومة في جبهة مقاتلة ووحدة كــل القوى التقدمية في جبهة عربية تدعم المقاومة وتساندها ؟ اني اعتقد ان هذا هو البديل للتنظيم القومي .

جواب (٢٣)

نعم ان افضل صيغة واعية ، وعلميــة ايضا ، لمواجهة الغــزو الصهيوني هو وحدة كل منظمات المقاومة في جبهة مقاتلة ووحدة كــل القوى التقدمية في جبهة عربية تدعم المقاومة وتساندها . ولكــن ليس هذا هو البديل عن التنظيم القومي . كما ان التنظيم القومي ليس بديلا عن الجبهة . اذ عندما يقوم التنظيم القومي لن يناضل في عزلة عــن القوى التي تواجه عدوه المشترك ، بل سيناضل في جبهة مع كل حلفاء اغراضه المرحلية .

وما دمت تحتكم الى العلم فاني اضع تحت نظرك القوانين العلمية للتحالف الجبهوي . ان النضال في جبهة هو الصيغــة العلمية لتعاون قوى « مختلفة اصلا » ضد عدو مشترك . ان هذا التحالف مهما طالت مدته مرحلي ومتوقف على انتهاء المعركة ضد ذلك العدو المشترك . وفي مرحلة التحالف تؤجل القوى المتحالفة صراعاتها الاصيلة . تؤجلها ولكن لا تنهيها لانها صراعات مرتبطة بالتناقضات التي جعلت منها قوى متعددة بدلا من ان تكون قوة واحدة . ويقاتل المتحالفون عدوهم المشترك بدون ان يغفل احد منهم عن الصراع الذي سيدور فيما بينهم بعد النصر فــي معركتهم المشتركة . فيحاول كل منهم ان يحضر للمرحلة التالية ، امــا بكسب قوى ومواقع جديدة تحت غطاء المعركة المشتركــة ، او بتصفية الحلفاء عن طريق امتصاص قواعدهم وتصفية مواقعهم . وهكذا لا يتوقف الصراع الخفي بين حلفاء الجبهة ، وان كان لا يصل في العنف او الحدة الى درجة اضعاف قوتهم المشتركة ضد العدو المشترك . او المفروض ان يكون كذلك احتراما لقوانين التحالف الجبهوي .

هذه هي الجبهة ، وهي واقعية ، وعلميــة ، وضرورية في هــذه الحدود ، اي بدون ان يقال انها طريق الى الوحدة او انها بديل عــن الوحدة ، وحدة التنظيم القومي . ونحن عندما ندعو الى قيام تنظيــم قومي ثوري ذي قوة ضاربة في ساحة المقاومة ، لا ندعو الى الغاء وجود القوى الاخرى ، بل ندعو القوى القومية التقدمية الى ان تتجسد فــي وجود منظم تفتقده الساحة ، بدلا من بقائها مبعثرة بين منظمات محدودة وبين قواعد المنظمات الاخرى . اننا ندعو الى دخول المعركة ولا ندعو الى اخراج احد منها ، وعندما نوجد معا امــام عدو مشترك فان الجبهــة ستكون صيغة نضالنا المشترك . الى ان تتحرر فلسطين ، فتخرج كــل القوى من ساحة النضال العربي ويبقى التنظيم القومي قائدا لنضال الجماهير ضد الامبريالية والاقليمية والرجعية الــى ان يقيم دولــة الوحدة الاشتراكية والديموقراطية . وهكذا ترى ان التنظيم القومــي لا ينفي الجبهة ، ولكنه لن يتوقف عن النضال القومي عند الحدود التي يتوقف عندها حلفاء المرحلة ، بل تتجاوز استراتيجيته تحرير فلسطين الى الغاء التجزئة واقامة دولة الوحدة . ومن هنا فانــه هــو وحده ، وليس الجبهة ، الضمان الوحيــد لاستمرار الثورة العربية حتــى غاياتها العظيمة .

القاهرة — عصمت سيف الدولة

الاحداق المهاجرة

« الى اهلي المنشورين على حبل النفي
والموت في قرى الجنوب الامامية »

المشهد : بيت موثوق القامة
منفيّ
حجرا ، حجرا ينخره الليل ،
تعسكر فيه
غربان الزمن المتفسخ من زمن ...
هجرته الاعمدة الشمّ الاعناقْ
هجرته الاحـداقْ
لم تبق الا احجار الحزن الابكمْ
لم يبق الا فرخ اليتم النازح في الوطنِ

***

المشهد باقٍ ،
ألخلفية غاب اجردْ
ينبوع الضوء سراج مشلول أرمدْ
ألبيت على جرف هارِ
في الباب سفينة اعصارِ
سوداء الراية ،
صدّاح فيها الموتُ
في قاع البيت سرير لا حيّ لا ميت
تحجبه الابخرةُ الصاعدة من بئر العفنِ
الريح تصر على نـابِ
طفل يصطك ولا يبكي
الطرق يجن على البابِ
سفّود من حقد ، من نار
يسري في لحم الليل ويلغيهِ
الطفل يحرك عينيهِ
سعلاة تقفـز ،
جنيّ
يتدلىّ من سقف الغابِ
الطفل يصارع ..... والصوتُ
يتأبـىّ ،
قرصان اسودْ ،
في جوف المسرح ، ينتصبُ
... المشهد زنجي عاري
يتلوىّ ، يبرق ، يصطخبُ
السوط يلعلع ..... والمشهدْ
يتلوى ، يبرق ، يصطخبُ
الطفل يحدق في لا شيء يفشاهُ
هذيان ، كالجرح النازف ، خافتْ :
يا ... يا .... لا احدْ يسمعْ
« الوالد » من عشاق التمثيل الصامتْ
« الوالد » لا يسمع الاّ الصوت النازلْ
من قدم « المخرج » ،
من سكين القاتل

***

يا طفل اليتم العالق في اذيال الوالدْ
يا فرخ الحزن اللاجيء في الوطنِ
يـا ولـدي
عبثاً تستجدي النخوة من احدِ
أنهار النخوة جفّت من ارض المُدنِ
النخوة جفّت من زمنِ
انهض كصبي المهد نهوض الماردْ
اسحب فـي مثل البرقِ
اسحب كفيـكْ
مزق من حولك ليل الكفنِ
وافتح للشمس ذراعيكْ
فالشمس على الافق الشرقي

بيروت

حبيب صادق

قطعة سلاح يارب

قصة بقلم أكرم شريم

مهداة الى الفدائي الصديق علي ، الذي حضر عدوان السلط ، ووصف لنا آثاره .

وتجتاز السيارة الصغيرة المدهونة بلون الارض ، منعطفا حادا بسرعة عنيدة ، ساحبة خلفها زوبعة عريضة من الغبار ، وهي في طريقها الصحراوي الى السلط المقصوفة قبل قليل . ينتبه ابو أحمد داخلها ، وقد اربكه الميلان المفاجيء القوي مع زعيق العجلات وشحطها ، فتبدو لعينيه المتهدلتين في تحديق مركز، رقعة سوداء متسعة في نهاية منحدر وادي شعيب ، تقترب وتكبر . ضربات العدو كانت لئيمة على السلط كلها .. من السهل اذن ان يعثر على قطعة سلاح بين القتلى .

الدور له الان .

فأبوجهاد وخليل وحسين الاعور وابن السعيد وعادل . وكثيرون من المخيم ، حصلوا على قطع سلاح بين قتلى وجرحى الحوادث.وحصلوا على ذخائر أيضا ،ولم يدفعوا قرشا واحدا . انه اذا نزل باسرته الى المدينة ، وباع أفرادها السبعة واحداً بعد واحد ، فلن يجمع له ذلك ثمن قطعة من هاتيك القطع الرشاشة ((التوماتيك)) فواحدتها اليوم اثمن من بقرة حلوب !

وتخطر فيه متعة هيبة .

يصلح وضع الحطة والعقال على رأسه ، ويمد ذقنه بشعرها الوبري المتحلق .. سيكون له واحد مثل رشاش زوج ابنته، ويدخل به الى الخيمة بعيدا عن الانظار .. يخرج علبة رصاصاته من خلف صندوق الملابس وينثرها على الارض ليختار منها ما يناسب رشاشه الجديد . اما بقية الحبات، فسيوزعها على الشباب هكذا .. مجانا.

والى متى يظل يجمع الرصاصات المتنوعة ، وليس لديه قطعة ؟!

وفي المساء بعد أن يبيع خضروانه ، ويكوم السحاحير على باب الخيمة ، كالعادة ، ينعزل مع سلاحه مهما كان نوعه، يخرطش ويسحب المغلاق ، ويطقطق بالزناد مثل العسكر .. طاطاطا بين الشجر .. طاطاطا في الشوارع .. طاطاطا الى السماء .. نحو العقارب التي نزلت بالمظلات في معركة الكرامة ..

ويرتفع صوت السائق المرتدي زي الفدائيين :

ـ سنرى العجائب الان .

يعقب زميله وهو يدخن :

ـ يقولون كان القصف اكثر عنفا على ((عين الزيتون)) .

قفص السيارة الصغير يتخبط على الطريق الوعر بارتجاج مستمر ومسرع . بين الزيتون امل آخر في الحصول على بندقية .. كل الخيام تبحث عن سلاح وتخفيه .

ويهدس مبعدا وجهه عن هجوم الهواء الناشف من النافذة :

((رب عائله وعلى خط النار وبدون سلاح ؟!))

يسترعيه الخلف الواجم لكل من الشابين امامه . وقتها أحس بثقل الصمت الجاثم بين المقعدين الخلفي والامامي . يتنحنح ليتحدث .... ليقول اي شيء .. ليشكر لهما المعروف ، اذ اوصلاه الى حيث يريد دون ان يعرفاه . ويشغله منظر الاسوداد المحروق المقترب . تشحط السيارة باصرار فجأة ، وينفتح البابان عن يمين وعن يسار ، ويصيح به السائق :

ـ تفضل يا عم . . لقد وصلنا .

يترجل متمهلا وفي ذهنه تضاء عين الزيتون كما استطاع ان يتخيلها بعد القصف .

ويؤخذ أبو أحمد !

يهرول معقود التفكير مبهوتا ... يعبر المنطقة المقصوفة الممتدة مجموعة ركامات منتهية الاحتراق حديثا . ظلام ساخن وخانق مفرود تحت ضوء النهار على مد البصر . أناس كثيرون يتوزعون هنا وهناك ، وبعيدا ، يبحثون ، ويحملون ، وينقلون الى سيارات مختلفة الاحجام ، ومبعثرة على الاطراف ! أشعاعات النهار رمادية تتماوج تحتها ومعها ، وفيها ، أبخرة كريهة ودبقة .

ويستمر يهرول ..

روائح الشواء المفعمة بالرطوبة تزحم خياشيمه يسحب المنديل من جيب مريلته الوسيعة في ارتعاش الشيوخ ، يكمم انفه وفمه بينا يتسارع خطوه مع انحناءة الظهر الراقص ، وهبات الادخنة اللزجة تتحجر في صدغيه .. يشغل خروجها هبوب ما هو أعنف منها ، كأنما كل شيء هنا ، قد خرج لتوه من فرن شواء .

سيعود لك الشباب يا أبا أحمد اذا حصلت على بندقية !

وتخرمش صدره مجموعة الادخنة الخانقة ، فتعتصره نوبة سعال يضغط لها بكلتا يديه على منديله ، وهو يهتز مع حشرجةالسعلات المتتابعة الصافرة ، الفاهقة ، الصاهلة ، المخنوقة بغرغرة القشع المتمنع في حلقه . ويبصق يبصق مستنشقا باتساع ، بحثا عن خيوط هواء منعشة .

هذه شاحنة مقصوفة ومهبطة . يقترب من مكان السائق ويده لا تفارق منديله المترطب . يمد عنقه مستطلعا، فيفاجئه وجه ميت مائل في شخوص مشدود الجلد ووحشي التطلع . يدور متخطيا مقدمة

السيارة الخافسة ، باحثا حواليه وحواليها ، وهي طابسة فوقعجلاتها المختفية ، ومتفسخة الاجزاء . يرى مرافق السائق ساحلا من الباب المخلوع المتحطم ، ومفجور الجمجمة .

وترمي حركة الهواء هبة قطران محروق .

يدوس على شيء تخبص تحت قدميه . ومع سقطة البحلقة المتأملة على الشيء ، تقشعر اعصابه ، وينرفز في قرف ممتعض ... جمجمة ! .. كوم كبير من الجماجم المتعفسة المغطاة باسوداد الحراق الزفتي . يتراجع فزعا حابسا في جسمه شهقة تكاد تفلت . ويدعس أثناء التراجع على اخرى خلفه .. يراها وقد انفرزت تحت ثقله المرتبك، يبرز منها احمرار غامق عرف فيه احمرار احشاء البطيخ !. اذنفهي سيارة بطيخ مقصوفة بلؤم .

ومع هدوء الهيجان ، تجسر قدمه فتفقش واحدة تهدأ عليها نظراته وهو يتذكر الحكايا عن مفعول النابالم .

كل الخيام تتحدث عن قنابل النابالم .

ويستوعب المكان بنظرة شاملة تمر على الذين يتحركون بدأب النمل فوق اكوام الاسوداد العريض . جميع هؤلاء سبقوه الى هنا .. فرصة ثمينة للبحث عن قطعة سلاح .. سيعود لك الشباب يا أبا أحمد اذا وجدت رشاشا !

تلك جثة !

يقترب في حماسة متوجسة هذه المرة . الجثة مسلوخةومتفحمة ومعدومة الملامح ، وغائصة في الوحل الممزوج بشمع النابالم المائع في تجمد خفيف . يبدو له ان صاحبها قصير ونحيف ورأسه صغير، ينبش بقدمه جانبها . .يرفع يدها فيستشعر حرارة لاذعة ، ويشم رائحة الشواء الدسمة المعروفة في مطاعم المدينة . ينبش جانب الابط الملتصق على التراب المظلم .. جانب الابط الثاني .. لا شيء.

ويعز عليه الا يساعد الناس في نقلها .

يشيره ان يلاحظ امرأة بيضاء الملابس بعيدة هناك .. لا بد انها المسعفة . يظل هو أقوى منها على أية حال . ويرى الجثة خفيفة .. بامكانه على الاقل ، ان يسحبها نحو الشباب ، وهم سيرفعونها ويلقونها في جوف شاحنة الجثث . ينحني بعد ان يدس منديله في جيبه ، يمد يديه تحت كتفي الجثة الحارة .. يستحكم الابطين والسخونة تكوي راحتيه ، ويرفع بعزم فيتفسخ الصدر ، وتزحل الكتف اليمنى ، فيرمي الجثة ويبتعد جافلا مرعوبا ، ومطرقة صدره ترقص في جنون .

ومع استنشاق الهياج الخائف ، والهواء عابق بأدخنة الحرائق الهامدة ، تشور نمنمات الحلق وترعاه .. يتنخع .. يشدد خناق المنديل على انفاسه .. تخرج كحة .. يمسك عنقه بفلظة وهو يهتز الانحناءة مع تدفق السعلات الحادة . ويبصق يبصق بينا يعود التعب العام ، والمعتاد لجسمه .

يمشي متراخيا وبنات الهواجس تختلط في رأسه . فليس سهلا والحال هذه ، والجميع قد سبقوه ، ان يجد قطعة السلاح .

ويترجى في أعماقه بحرارة ينغصها الاحساس بانه غريب هنا :

قطعة سلاح يا رب !

يقترب من شاب في ملابس الفدائيين ، متعرق ومنهمك في جمع الايدي والارجل والاعضاء المفصولة عن أصحابها من هنا وهناك ، ليضعها في كيس عرف فيه أبو أحمد ،انه واحد من أكياس طحين الاعاشة . وليس يدري لم توقف وحدق في الكيس عن بعد .

انه كبير ،ومن الاكياس التي تتسع لحصة عشرة انفار. سمرة الشاب مقشعرة ومتقززة ، ويداه مخضبتان بدهن الاجسام الذائب، والملوث ، والمعفر بلطخات دم جاف .

شباب مثل الشجر يموتون كل يوم !

تكاثر يأسه ، وسخنت حشاشته ،وحميت مآقيه . وفي نظرة ابوية عامة للمكان ، لاحظ أن سيارة الاسعاف واحدة ، والمسعفة واحدة أيضا . ابتلع غصة يأس ثقيلة ، ومثقلة بغصة خوفراعش .

شباب مثل الشجر يموتون كل يوم !

رائحة الشواء الدسمة ، المعروفة في مطاعم المدينة ، تتميزبوضوح هنا . ويسمع المسعفة تصيح ملوحة بيديها ، طالبة المساعدة . ويفهم انها وجدت جسما يتنفس ويجب ان تسرع في نقله . يقبل نحوها ثلاثة شباب ، ويركض هو ليرى الشهيد الذي يتنفس .كانت محنية البدن فوق الجريح، ومتعرقة ، وبياضها ممسوح بالدم، ومرق اللحم الملوث بشحار النابالم . ويرى وهو يصل ، حمالة الاسعاف تنقل جريحا مهترىء الملابس والجلد ، وفي غلالة من لعاب النابالم المعتم . والى جانب الجريح قماشة بيضاء عليها امعاء مزبدة ،وصفراء سائحة في الشحار والوان الدم ، في منظر يغشي النفس، ومتصلة مباشرة ببطن الجريح المفغور ، والهامد امام قفصه الصدري المتنفس .

شباب مثل الشجر يموتون كل يوم !

وتغيب عنه المجموعة وهو في تحديق مذعور ، توقظه منه نمنمة خفيفة مهددة في حلقه . يترك مكانه ويروح في تجوال مستطلع متهالك. يكبر فيه الاحساس بالغربة ، ويتورم غيظا مقهورا في حناياه .. غيظا موجعا ومهينا لرجل ملجوم الرغبة . وتنبعث فيه مشاعراللجوء منذ عشرين عاما ،عندما غادر قريته مع الاهالي ليلا . يحمل والدته على ظهره ، والمستورة تحمل طفلهما الاول . وايام اللجوء الثاني ، حين لم تشعر طولكرم بالصهاينة الا وقد صاروا خلفها ، رجالا ونساءمسلحين. وكان ذاته في اللجوءين ، الاحساس بالغربة ،وغيظه المقهور والموجع، والمهين . قطعة سلاح يا رب !

رجال مثل الشجر يهاجرون كل مرة !

يرى رأسا مخبوصا في مكان الوجه ، وممتلىء الفجوات بدهن متسخ بزاقي الشكل ، ومتصلا بجثة قصيرة ومنتفخة ، صاحبها قصير ونحيف ورأسه صغير هو الاخر . وثمة جلطات شحم ذائب مختلط بالشعر على لحم العنق . جلد الجثة المتخرش مرقع بمثل بقع الجرب . انحنى مخاوصا عينيه قابضا انفاسه ، فظهرت له من شكل الرأس والصدر بقايا ملامح أنثى .. صبية او امرأة او طفلة ... ممصوصة ، ومسلوخة ، ومتخشبة ، وفاحمة ، ومرشوش عليها شحار شمعي لزج .

هكذا اذن !.. قنابل النابالم تمسخ الاشياء . سيقول لهم في المخيم ، ان قنابل النابالم تمسخ الناس ، وتجعل الانسان قصيرا ونحيفا ، وصغير الرأس ، وتأكل وجهه .

ويلمح غير بعيد من مكانه فوهة بندقية !

وفي ركضات يقع فيها منديله وتفلت فردة حذائه ، يكون فوق الفوهة . يسحب القطعة ملهوفا مسعورا ، فيسقط على الارض في كسوف يائس : امامه رشاش اوتوماتيكي متحطم البنية ، كأنما ضربته مطارق الحدادة . وفي ثقوبه ، وعليه ، آثار الشمع الاسود الاكول . النابالم تأكل حتى الرشاشات . سيقول لهم في المخيم ، ان النابالم تأكل حتى الرشاشات .

وتمر لحظات وهو صافن في القطعة المحروقة المتقلصة .

لن يترك الرشاش على اية حال .. سيأخذه لعبة لولده الصغير عادل ..

فاته الوقت ولا أمل في عين الزيتون أيضا . عليه ان يسبقالجميع في المرات القادمة ، حتى لو اضطر الى الدخول في المعركة ، وهي مشتعلة ، وبدون سلاح . فأبو جهاد وخليل وحسين الاعور وكلهم حصلوا على سلاح ، وعلى ذخائر ايضا ، ولم يدفعوا قرشا واحدا . عليه ان يسرع ما استطاع في المرات القادمة . فهذا الرشاش قد مات لان احدا لم يسرع في انقاذه !

حلب

اكرم شريم

صفحات من مفكرة

بقلم سالم جبران

— ١ —

● لكلمة الامن في هذه البلاد مفعول اقوى من مفعول كشرة البابا في القرون الوسطى ..

حين عدت من الاتحاد السوفييتي الى هذه الدولة ، قبل اربعة اشهر ، اصطدمت « بالامن » و « بالدمقراطية » ، في اللحظات الاولى لوطوئي ارض مطار اللد .. وفيما بعد ، قرر احد ما في جهاز ما ان نزولي من قريتي في الجليل الى حيفا ، يحتاج الى تصريح .

وبعد ان بدأ البطيخ يتحول الى .. ديناميت ، قرر احد ما في جهاز ما تشديد القبضة ، والتخفيف من اللبرالية التي لا يستحقها العرب ..

قال البوليس لي : نعطيك تصريحا الى حيفا ، ولكن بدون نوم .

ــ واذا بقيت في حيفا ، ساهرا طوال الليل ، مع الاصدقاء ، حول زجاجة بيرا وحديث ممتع ؟

لا يفهمون المزح .

أمرنا لله .. او لهذا الوثن الذي اسمه .. الامن !

أخذت صديقين لي ، وحملت في سيارة كل أثاثي الذي هو .. كتب ومجلات وملابس وتخت وخزانة ترفص وتغني ، وعدت الى القرية !

— ٢ —

● انا غير نادم وغير غاضب ، لان الشرطة اتخذت هذا القرار . ففي البيت آكل واشرب واغسل ملابسي .. بلا تكاليف ، بلا مؤاخذة . واهم من هذا ان الصلة الحميمة ، اليومية ، الاندماج بمشاكل اهل بلدي ، كانت قد خفت في السنوات الماضية .. بينما كنت خلال هذا، ارتبط اكثر فاكثر بحيفا . وانا من الذين يعتقدون ان الصلة بمسقط الرأس ، بالناس البسطاء ، بالنبع ، امر لا غنى عنه . بل لقد تطرفت حتى قلت للاصدقاء ان سلطات الاضطهاد تحب لو تركزنا نحن الذين نكتب في حيفا ، لتقطع صلتنا بالجليل والناصرة والمثلث . تكتبون ؟ اكتبوا ، ولكن المهم الا تتصلوا بالناس ، بالشعب ، ايها المحرضون !

في البقيعة ، التقي بالكهول الذين حفر الزمن والصراع من أجل اللقمة اخاديد في جباههم .. والتقي بالشباب ، الشجاع ، المتفتح ، الواعي ، الصامد .. الذي لا تزيده الفطرسة والزعرنة العنصريتان الا اشتعالا . يخيل لي ، انني هنا اكثر نفعا لشعبي ، بينما انا اواصل القيام بكل ما هو مطلوب مني ، في « الغد » .

— ٣ —

● أمس ، اوقفت « محطة » الشرطة في الشارع بين عكا وحيفا التاكسي الذي كنت اسافر فيه ، في طريقي الى العمل في حيفا . تأمل البوليس بدقة ، وجوه الراكبين .

ــ هويتك ! ــ قال لاحد الركاب ، وهو متقدم قليلا في السن واسمر ..

ــ أنا يهودي ! ــ اجاب صاحبنا .

وكنت انا الاسمر (او الاسود !) الاخر في التاكسي .

ناولته هويتي .. تأمل صورتي بدقة .. مع السلامة .

اليوم ، في العاشرة صباحا ، قام البوليس بواجبه .. اعني اوقف التاكسي الذي اركب فيه .. كنت « المشتبه » به الوحيد في السيارة نظرا للون بشرتي . طلب هويتي . لا بأس ، تفضل . مع السلامة .

تأففت بقرف .

ــ ماذا ؟ هذا ضروري ــ قال احد الراكبين جنبي ــ لماذا تتأفف؟

ــ ابدا .. انني سعيد جدا .. فوضعنا ، نحن عرب هذه الدولة، لا يزال افضل من وضع السود في روديسيا ، وحتى احسن من وضع الزنوج في أمنا امريكا .. والبرهان انني أنا الاسود ، أسافر مع البيض

في التاكسي .. يمكنني – حتى ! – ان آكل في مطعم واحد ، جنبا الى جنب مع البيض . مستحسن ، طبعا الا اتكلم بالعربية ، او او اقرأ جريدة عربية .

ثم .. نقاش قصير ، غير مهم .. ولكنه مؤلم .

– ٤ –

● الصحافة البرجوازية لا يمكن وصفها الا بانها زانية – قديسة .. او قديسة زانية .. الصحف الامريكية مستاءة ، خالص ، من .. اضطهاد اليهود في الاتحاد السوفييتي . والصحافة الرجعية الاسرائيلية تذرف الدمع غزيرا ، حزنا على مصير .. اللاجئين من بيافرا .. بالاضافة طبعا ، الى التنديد بالاحتلال .. السوفييتي لتشيكوسلوفاكيا!

اليوم ، امسكت الكلاب بعظمة جديدة .. تخيلوها دسمة . هرب الكاتب السوفييتي كوزنتسوف من بلاده الى .. بريطانيا . امر مؤسف ان يسقط كاتب الى المستنقع .. ولكن ما كتبته « معاريب » اليوم عن الساعات الاولى لكوزنتسوف في عاصمة الامبراطورية العجوز ، له دلالة عميقة .

طوال اليوم الثاني كان في .. نادي ستربتيز نهاري .. وعندما زهق من هذا ، قال لصديقه الصحفي الانجليزي ،« المتخصص في الشؤون الشيوعية » انه يريد ان يزور ... ماخورا .

تفاصيل اكثر ، لم نقرأ في « معاريب » .. وفي الواقع ، فان الكاتب حين يترك طريق استخدام الكلمة لتغيير هذا العالم ، لا يسقط عن مسرح التاريخ كاتبا فقط ، بل ينحل ، انسانا .. ايضا .

مات كوزنتسوف ..

واما موسكو ، فسوف تظل قلعة شامخة ، قوية ، بسيطة ، سمحة .. وسوف يظل الادب السوفييتي كتيبة كفاح مجيدة ، في كتائب هدم هذا العالم ، وصنع العالم الاجمل .

– ٥ –

● جلست عند صديقي (...) اليوم .. وبعد ان تناولنا طعام الغداء ، على مائدته .. بعد ان طبخ هو اللحم وقمت انا ، عبدكم الفقير ، بتحضير السلطة .. شربنا القهوة .. واخذنا نفس .. دخان .. ثم جرى حديث « فوضوي » ، بمعنى اننا تحدثنا عن كل شيء .. لا اعرف كيف انتقلنا من موضوع لموضوع .. انتقال السمك في الماء .

ولا تزال ترن في رأسي النادرة التي رواها لي ..

كان يقرأ مقالا لماركس اسمه « حول الاستنكافية » ..

قال ، وهو يتذكر :

– شعرت وكان ماركس يهاجمني .. يستفزني .. بلا مبالغة ، كادت تحمر أذناي !

– كيف ؟

– شعرت ، انه يعري نقاط ضعف عندي .. لقد دفعني المقال ، الى ان اقف موقفا انتقاديا من نفسي !

وانا ايضا ، ترن في رأسي كلمات صديقي .. ان الموقف الانتقادي الذاتي امر هام جدا ، في الحياة عموما .. ولكنه ضروري ، خصوصا ، بين المثقفين .. هذه الفئة الرجراجة كالزئبق ، المتارجحة كغصن في مهب الريح .. الذاتية الفردية ، في عظمها ونخاعها ، كما قال ماركس ، مرة ..

وحتى يتحول المثقف الى ثوري ، لا يكفي ان يطالع (عادة ، يطالع اكثر من العمال ، بحكم ظروفه المريحة) ولكنه بحاجة الى ان يهضم ما يطالع .. بحاجة الى ان يستأصل من داخله نفسية البرجوازي الصغير، الفردية ، الضيقة ، اللامبالية لكل شيء الا حضرة ... « انا » !

ارجو لصديقي ، ولنا جميعا ، ان نسير ، بسرعة ، في طريق الموقف النقدي الذاتي .. لنكن صارمين ، مع انفسنا !!

– ٦ –

● الاطفال ليسوا ابرياء ، طيبين ، فقط .. ولكنهم .. فلاسفة وشعراء .

هذا الاسبوع ، سمعت حادثة طريفة .. صديق لي اشترى « غسالة » ، يعني ماكنة غسيل .. هل يمكن للماكنة ، ان تقوم بما تقوم به الام ؟ عاش الولد يومين في ازمة .. في نقاش مع نفسه .. وفي اليوم الثالث أسر لوالده :

– والله ما انا مصدق ، انه فش في قلبها .. امرأة !

ابن حنا ابراهيم ، يسأل : كيف يشتغل الدماغ ، ولماذا يموت الانسان ؟

ابن أخي ، لم يفهم حتى الان ، بعد شهور من قراءة مقال عن الملحن ميكس تيودراكوس ، ماذا لحكام اليونان عند هذا الملحن ؟!

– حتى ...... اذا سمعوا الموسيقى .. ينبسطوا !

ما احوج الواحد منا الى ان يحافظ ، مع تطوره عقلانيا ، على بساطة الاطفال وقدرتهم على ان يحلموا !

– ٧ –

● معركة الانتخابات للهستدروت ، هي موضوع الساعة .. وفي نطاق قفصي ، في الجليل ، في المنطقة ٩ ، اشتركت في عدة اجتماعات .. من المفرح ، فعلا ، ان شبيبتنا ، الجيل الذي سيرث الغد ، متفائلة، ومعنوياتها عالية .. ان ضربة حزيران لم تفشل في قهر الشعوب العربية فقط ، بل هي ايضا .. لم تذلل شبيبتنا هنا .. ولكن ليس هذا موضوعي هنا .

اشترك ، أمس ، في اجتماع لشيوعيي احدى القرى .. استمعت، بكل انتباه .. العامل ، قادر على ان يجعل من توزيع المنشور قضية هامة ، كالاكل ، وكشراء الدواء لابنه المريض .. العامل ، واقعي ، يتجه الى القضايا بشكل ملموس .. ليس فيلسوفا غيبيا ، بل واقعيا يعرف هدفه دائما .

مرة اخرى : ما احوج المثقفين ان يتعلموا من العمال الثبات والصبر وطول النفس والتنظيم .. فليس بالفكر الحالم وحده يتغير العالم !.

– ٨ –

● الذي يدعي منا انه بلا ازمات يخادع الناس ، ولكنه لا يخدع نفسه .. ففي ساعات الوحدة ، يتعرى الانسان امام نفسه . بلا دبلوماسية وبلا مخادعات .. وانا ، المتفائل دائما – هذا مفروض على الاقل – عشت أمس ، يوما صعبا جدا .. لا اعرف لماذا جاءتني كل هذه الافكار السوداوية .. التي كنت اظن انني تخلصت منها نهائيا .. وحين جاء صديق عزيز ، يطلب شيئا ما – لا اذكر ماذا – نرفزت ، بشكل فظ .. لماذا كان يجب ان اصب غضبي ، وازماتي ، في وجهه ؟ نقطة ضعف خطيرة .

عليّ ان اعرف ، كيف الف همومي الخاصة ، وانا اتعامل مع الناس .. انا واثق ، ان الصديق غافر لي .. ولكن الموضوع اهم من ان يكون حادثة منفردة .

– ٩ –

● ليست هنالك حرفة اصعب من الادب .. والواحد قد يشتغل في هذا « الكار » الذي يقطع الرزق مئة سنة ، ثم يجد نفسه ، يعطي ، كل يوم ، جوابا جديدا ، بعض الشيء ، على السؤال الخالد : ما هي غاية الادب ؟

وبالرغم من انه من الصعب اعطــاء تعريف مدرسي ، فانــي ، كانسان يحب الادب ، اعتقـد ان واجب الادب يتركـز في نقطتين :

* ان يساعد الانسان على كشف اسرار العالم ، بما فيه المجتمع..
* ان يعطي الانسان الغبطة ، خلال عملــه لتغيير العالم الــى الاحسن والاجمل .

من هنا ، سر ان الادب الحقيقي يعطي الغبطـة الداخليـة للقارىء حتى وهو يعالج المآسي .

هذه الخواطر ، أحاول بيني وبيــن نفسي ان اطورها .. أجـد نفسي ، افتش دائما ، واجد لذة وفائدة ورياضة ذهنية في التفتيش .

وهذه الافكار وغيرها تخطر على بالي ، وانا امسك ببعض الجرائد والمجلات لاقرأ ما فيها من شعر .. فاجدني امام عالم وحشي مشوش.. بدل ان يبعث على الغبطة يبعث علــى النرفزة .. والاسوأ ، ان بعض الشعر لا يبعث على شيء ـ بدون مبالغة ـ الا القرف ، من هذا الامتهان الصارخ ، اللا أخلاقي ، للشعر ، كفن ..

أمس ، اعطاني نصوحي قصيدة نشرت فــي احدى الجرائد .. ونصوحي هذا ، مولع ، بجمع هذا الشعر الرمزي ، لا كمعجب ، بــل كمستسخف .

ويخيل لي ان شعبنا كله مثل نصوحي .. عندما يقرأ الشعر يريد ان يفهم وان يشعر بالغبطة ..

ـ ١٠ ـ

الانبيــاء الكذبــة

الثورة الحمراء في أذهانكم صفراء
والايمان في افواهكم تجارة
الشعب والكفاح والفيتنام والزنوج ،
موضوعات لهـو عندكم
في حلقات السكر والتحشيش والدعاره !

***

اكرهكـم
اقرف من احلامكم
يا عُلبـاً مليئـة
بالشمر الفاسد ، والديدان ، والقذارة !

ـ ١١ ـ

● في الزيب راهب ، ملحد ، معتزل ، اسمه ايلي ابيبي ، يعيش هنالك مع زوجته ، والطبيعة الساحرة ، وانقاض قرية عربيـة ، مـن القرى الكثيرة التي هدمت لمقتضيات .. نشر الحضارة !

هذا الانسان تصادقت معه .. وربما كان أحد الاسباب في هـذه الصداقة صراحته . وزارة السياحة تريد ان تطرده مــن هناك ، مـن الزيب ، لتقيم « رفيرا » للسياح ، بينما سكان الزيب ، في « رفيرا » المخيمات !

قال ايلي : والله لو جاء أهل الزيب وقالوا اطلع من هنا ، لفهمتهم .. لهم الحق القانوني والاخلاقي .. اما وزارة السياحة فليس لهــا الحق .. حقي في المكان ليس أقل من حــق وزارة السياحة وحكومة اسرائيل ..

هذا الرجل ، لم اره منذ ثلاث سنوات . سأل عني ، وطلـب ان ازوره . لو قلت ان هذا غير ممكن ، لعــدم امكانية الحصول علــى تصريح ، لم يصدق الكثيرون ..

وحتى أخي ، في عسفيا ، على بعد كيلو مترات قليلة مــن مكـان عملي .. لا يمكنني ان ازوره .

الامن . نقطة . لا نقاش . وكل هذا لان بلادنا دمقراطية ، وليست دكتاتورية مثل روسيا !.

ـ ١٢ ـ

● ملحق « دافار » الاسبوعي ، هذا الاسبوع ، كان مثيرا .. فعلا .. فيه فضيحة ضخمة لزبانية السياسة الرسمية في هـذه البلاد ، بدون ان يحس ..

على الغلاف ، صورة ضخمة ، للقوات الاسرائيلية في احد شوارع غزة . السلاح سنفة طق .. الشارع خال الا من الذباب . في الداخل تفسير صغير للصورة فقط .. بدون أي مقال . قلــة الكلام احسن ، والقارىء يفهم بالاشارة .

في نفس العدد مقال طويــل ، مصور ، بمناسبة سنــة على .. « احتلال » الاتحاد السوفييتي لتشيكوسلوفاكيا .

الصحف تنشر اليوم ، ايضا ، خبرا عن احتشاد ضخم على شاطىء تل ابيب ، تضامنا مع .. شعب تشيكوسلوفاكيا !

عندما قرأت الخبر ، خرجت من فمي كلمات لا يجوز نشرها ، فـي مجلة ، ولكني واثق ان كل انسان مستقيم لا يمكنه عند قراءة مثل هذه الاخبار الا ان .. يبصق .. ويشقع !

ـ ١٣ ـ

● هذا الموضوع اصبح مشكلة بالنسبة لي .. عندما أكون فــي البيت لا موضوع سواه .. وعندما اركب الباص لاذهب الــى العمل ، « يتبخر » من رأسي .

يجب ذلك ؟ يجب ذلك . بعقل بارد ، أقول ، فعلا ، يجب . ولكن ما العمل ، وأنا متردد ، جدا .. ليس خوفا من المسؤولية ، بــل لانني لا أريد ان أجلب ... المتاعب لاحد !

التفكير مستمر ...

ـ ١٤ ـ

● وحدي في البيت .. من على السطح .. يبدو جمال جليلنا.. مساكين اذا اعتقدوا ان كل المآسي تجعلنا نكره هذا التراب . وهـذا الشجر .. السياب ، قال انه يحب حتى الظلام في وطنه .. ونحـن كلنا سياب !

لا اعرف ، لماذا ، هنا على السطح .. وقف امام مخيلتي كل اولئك الاصدقاء السوفييت الذين عرفتهم ، خلال زيارتي لموسكو .

ان الصحافة الرجعية العالمية ، اليوم ، اشبه مـا تكون بانابيب مجار متفجرة .. والصحافة الرجعية الاسرائيلية عبقرية ، فعلا .. فـي السفالة . كلها شتم وتحريض على الاتحاد السوفييتي .

ازاء هذا ، اشعر ان حبي يتزايد للاتحاد السوفييتي ، لارضه ، لناسه ، لثلجه .. لدخان مصانعه .. للمترو .. للحدائق .. لكــل شيء ، في الارض ، التي فوقها ، رفع الانسان ظهره ، مرة والى الابد .

انني اتذكرك يا سلطانوف ، أيهـا الفلاح الاوزبكي الطيب ، الذي جعلت منه الاشتراكية استاذا في الجامعة .

انني اتذكرك يا ماليبف ، اليونانــي ، الذي اصبح الاتحــاد السوفييتي وطنا له .. مع ان عواطفك تتسلل ، بلا « باسبورت » ، الى احياء العمل في اثينا .

انني اتذكرك يا كوشيلفا ، ايتهــا الانسانــة الروسية الطيبة ، المضيافة ..

انني اتذكركما ، يا فلنتينا ونتاشا ، يا من علمتماني ان احب اللغة الروسية ، وقبل هـذا ، ان احب الانســان الروسي .. و « الطبع الروسي » .

وانت يا سراج الدين ، ويا كل زملائه الذين ربطتم حياتكم باللغة العربية ، مترجمين وبحاثين .. ان الصحف ، عندنــا ، تقــول ان الـ ١٢٠٠ سوفييتي في مصر ، هم .. مستعمرون . ولكن ملايين الملايين

من شعبي ، تنظر نحو شعبكم ، نظرتي نحوكم !..

لا بأس من الاحلام ..والضياع مع الذكريات ،ولكن عليّ ان اذهب الى القرية القديمة ، في شغل . الانتخابات تطلب وتلح ان نعمل .

— ١٥ —

● قليلة جدا جدا هي المرات ، التي شعرت فيها بالمتعة ، وانا اقرأ كتابا ، كما شعرت ، وأنا اقرأ مختلف المواد عن .. أحمد فارس الشدياق ، هذا العملاق المنور ، الذي وضع اللبنة الاولى في صرح النهضة العربية في لبنان .

وأنا اطالع هذا ، شعرت بالحماس الى ان اكتب عنه ، حماسي الى كتابة قصيدة . اننا بحاجة الى ان نفتح امام شبيبتنا الطالعة ، تلك الصفحات المشرقة للفكر العربي التقدمي . ان الدعاية « الثقافية » الصهيونية ، تحاول ان تصور العرب ، كشعب عاطفي جدا ، يهيج ويهدأ من أي شيء ، لانه .. شعب بدائي . من أين له الحضارة والثقافة والتاريخ ؟ أحيانا ، لا استبعد ان تكتب « يديعوت احرونوت » ان عدد « الاقليات » في اسرائيل ٣٠٠ الف نسمة .. وعدد « الاقليات » في العالم ١٢٠ مليون نسمة ، باعتبار ان كلمة (الاقليات) تعني .. العرب .

علينا ان نعتز بكل ما هو انساني في تراثنا بدون ان نفقد القدرة على نقد ما هو رجعي ـ وبدون ان نفقد القدرة على أخذ كل ما هو انساني عن كل شعب ، بما فيه اليهود .

انني اشطـ .. عن الموضوع .

لقد اعجبتني حتى « سفاهة » لسان الشدياق . لقد سمى الامور بمسمياتها ، ولم يتورع عن الشتم ، واستعمال الكلام « الزفر » .. يخيل لي ان هذه الصراحة المتطرفة ، الخارجة عن الحدود ، كانت رد فعل صحي على الاحتشام الكاذب ، ومجتمع .. السجع الفكري ، الاقطاعي الذي كان في طريقه الى الانهيار .

— ١٦ —

● قرأت ، اليوم ، في احد اعداد مجلة « روز اليوسف » القاهرية التقدمية ، مقالا قصيرا ، مكثفا ، لمفكر تقدمي هو .. فتحي خليل ، حول تبعثر الحركة الادبية في مصر . لا اتحاد الكتاب يقوم بواجبه ، ولا الحلقات العفوية للكتاب تنعقد ، كما في الماضي .. وهذا ، في وقت يتطلب ان يكون الكتاب وكل المفكرين في مستوى القضية المصيرية التي تواجه الشعوب العربية .

هذا المقال القصير ، ملك عليّ التفكير ساعات طويلة ،لا في المقال، فقط ، بل في الحركة الادبية العربية ، وموقفها من الثورة الاجتماعية العربية ، العميقة ، والمتعمقة ، باستمرار ..

من المؤسف ، أن شعراء وكتابا كبارا صمتوا .. او هم يعلكون ما قالوا في الماضي . قرأت قصيدة لشاعر مصري معروف ، في « روز اليوسف » ايضا ، عن انسان متعب فكريا ، يتسكع في مقهى . هذه القصيدة ذات دلالة عميقة جدا .

يخيل لي ان ادباء البرجوازية الصغيرة ، ايضا ، دخلوا مرحلة الازمة .. قد يؤيدون التحولات الاجتماعية بالعقل ، ولكن نفسيتهم العميقة ، برجوازية صغيرة ، متمسكة بالملكية الفردية .. من هنا ، ليس في طاقتهم ابداع ادب يستلهم الثورة الاجتماعية .. من هنا ، التسكع الفكري ، والحيرة ، والتمزق السوداوي .

ان تيارا جديدا ، جديدا فعلا ، مدعو ان يصعد الى المسرح الادبي .. ان الثورة الاجتماعية ، ذات المطامح الاشتراكية ، بحاجة الى ادب ثوري اشتراكي .

ان قصائد عبد الرحمن الابنودي المكتوبة بالعامية ، والتي اسمعها احيانا من الاذاعة هي البشير الرائع للتيار الجديد .. ولكن هذا الانتاج ، مطلوب بالفصحى ايضا ، واساسا .. لان العرب سائرون نحو الوحدة ولغة الدولة العربية الواحدة سوف تكون حتما ، الفصحى !

— ١٧ —

● في اول الشارع سمعت امرأة عربية ، تجاوزت الاربعين ، تعلن بفخر لامرأة عربية اخرى : « أنا ، بنتي ما بخليها تفلت من ايدي هاي لايدي هاي » .. وفي التاكسي الذي ركبته من حيفا لعكا ، كانت فتاة يهودية تقول لامها : « عندما ياخذ الاذن السنوي ساصحبه وناتي عندكم لنزوركم ..اذ من المفضل ان تتعرفوا عليه ،قبل زواجنا » !

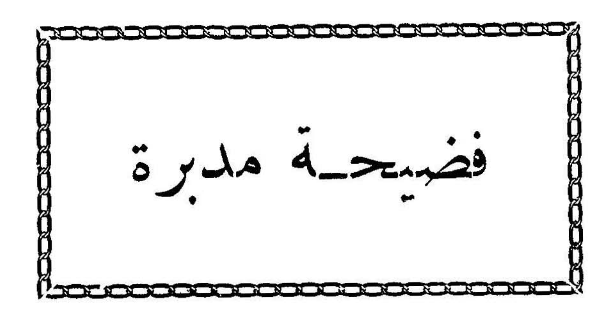
صدفة غريبة جدا ان اسمع هذين القولين خلال اقل من نصف ساعة .. وهذا الامر دفعني ، بالحاح ، الى ان افكر ، تفصيلا ، حول قضايانا الاجتماعية ..

تذكرت « فلانا » الذي يبعثه أهله مع اخته وخطيبها الى السينما .. تذكرت فضيحة تقسيم الصفوف الى صفوف للفتيات وصفوف للبنين .. تذكرت ، وتذكرت ...

ان مجتمعنا العربي ، رغم كل الذين يشدون به الى الوراء يتقدم.. ولكن هل يعمل الشباب ، كل شيء ، من اجل ازالة العراقيل لتقدمه ؟ جوابي الشخصي : لا . ربما اكون متشائما ؟ لا اعتقد .

سالم جبران

مجلة « الجديد » ـ العدد الثامن ١٩٦٩



قصة قصيرة بقلم يوسف شامل

بدأت القصة بداية عادية ، ولكنها انتهت نهاية غير عادية . ومرد ذلك في الحقيقة الى عامل الصدفة العمياء . والا ، فمن أين لتلك العجوز المسكينة ان تحلم باثارة كل تلك الضجة ، لولا مرور المدير العام للمؤسسة العليا للبنوك الوطنية ، ورؤيته لها على مقربة من باب ذلك الفرع المشؤوم ، الفرع رقم « ١٣ » من الزمرة « ب » . يثور القارىء الآن فيما أظن ، ويحتج على هذا الاسلوب البوليسي في العرض ، وربما قذف بالمجلة جانبا وهو ينعي انحطاط الانتاج الادبي ، ولن أكون في منجى من شتيمة او شتيمتين . سامحك الله !.. مهلك عزيزي القارىء ولا تنفعل . ولم الانفعال !؟ تريد ان تعرف من تكون تلك العجوز ؟ حسنا ، انها « أم أحمد » الشحاذة المحترفة . في الحقيقة ، بدأت العمل في تلك المصلحة من باب الهواية ، ولكنها احترفت في النهاية . والمدير ؟ المدير المجهول هذا من يكون ؟ ولكن ، وحتى لو عرفت ، فهل تريدني ان ابوح بالاسرار ، واذيع ما لا يذاع . خذ الامور بسهولة وبساطة اذن . فالفرع « ١٣ » هو الفرع « ١٣ » ، اما الزمرة « ب » فهي الزمرة « ب » ،وهي بالتأكيد غير الزمرة الدموية المعروفة .

تلك المعلومات غير كافية ، ثم انها غير اكيدة ايضا . ماذا تفضلت سيدي ؟.. « أم احمد » ؟؟ تشرفنا !.. وربما كانت أم محمود . وما المانع ان تكون « أم لا أحد » ؟ وهذا « الرفعت » قد يكون طلعت ، او انه جرجس ، وربما ان اهله فاتهم ان يطلقوا عليه أي اسم ، فنشأ دون اسم ، السيد « x » ، و ... و ... و ... ، نحتاج اذن الى بعض الايضاحات الاضافية ، وخصوصا بالنسبة للشخصية الرئيسية : الشحاذة . لان المدير هو مدير ، كان وما يزال في جميع القصص والروايات . قلنا اذن « أم أحمد » ، ورغم ذلك فان احدا في الحقيقة لم ير أحمد ذاك ، ولا يعرف عنه شيئا ، وبالتالي لا تطلب مني الاستنارة حول هذا الموضوع . غير الاسم ، يمكنني ان اقول انها مشت في شيخوختها الى حافة القبر . جلد مغضن على عظم ناحل . اما تقاطيع وجهها فدقيقة ومدببة ، قد يستشف فيها بعض اصحاب الفراسة خبثا اكيدا ، وان كانت المسكينة قد فاتها الخبث ، وانقطع ما بينها ، وبين الحيلة ، ولم يعد في استطاعتها ممارسة تلك المزية ، ان كانت موجودة حقا . وماذا ايضا ؟ عزيزي القارىء ، اذا كنت تنتظر مني كل الشروح والتفاصيل ، فأنت مخطىء . وانا انتظر مساهمتك الفعالة ، اذ ربما قد التقيت بتلك المخلوقة أكثر من مرة ، وربما بالتالي أنك تعرف عنها اكثر مني . جرب اذن ان تشحذ ذاكرتك ، وساعدني على استحضار صورة تلك البائسة ، بدلا من الاضطجاع بهدوء في سريرك ، مستسلما للخمول والتنبلة ... آه ، نعم ، انت هناك ، أرأيت !.. بلى ، بلى يا عزيزي ، انها نحيلة ، صغيرة ، مقوسة الظهر قليلا . نعم ، وجلدها نحاسي ، وشعرها ابيض بالكامل ، نعم ... نعم ، هي ذاتها ، الفقيرة التي تفكر بها ، والتي كانت تجلس بالقرب من كنيسة الحارة الشرقية ، كل يوم احد . وانا أرى ، وربما كنت توافقني على ذلك ، انها تكاد تكون شخصية غير واقعية . وان عندها شيئا من المبالغة : في الفقر ، في الطيبة ، في التذلل والمسكنة ، في رثاثة الثياب ، في الوصفيات التراجيدية التي تتخذها اثناء سيرها وجلوسها ، فاذا ما رأيتها في بعض الاحايين ، وقد تكومت حول نفسها كتلة من العظام الدقيقة ، تلفها شملة سوداء متسخة ، وقد ألوت عنقها فوق تلك الكومة كما يلوي عنقه مالك الحزين على ضفاف الانهار الهادئة ، خيل اليك أنها ليست الا ممثلة ، وان رصيف الشارع خشبة مسرح حقيقية ، تمثل عليها تلك الفتاة البارعة دورها المرسوم بدقة وعناية . ولكنها ، يا حسرة على التمثيل ، كانت تعيش ذلك الدور حقيقة حية ، لا تمثيلية تدوم ساعة او ساعتين ، ثم تسقط في هوة العدم . ايه ! دنيا ... والدنيا عاهرة لا يسلم من اذاها احد . ماذا ؟ لم اسمع جيدا ؟.. تريد ايضاحات ثانية اكثر اهمية ؟ مثل ماذا ؟

– هل تعاني من ترسبات عقدة « اليكترا » ؟ ما هي الامراض العصابية التي تعاني منها ، وعلاقة تلك الامراض بالنشاط الجنسي ؟ هل هي ذات شخصية انطوائية او منطلقة ؟ هل تعاني من الشعور بالاضطهاد والاحساس بالذنب ؟ و ...

رويدك عزيزي القارىء ، بشرفي لا اعرف . ولو عرفت لما أخفيت عنك . ولكني في الحقيقة ، لا أرى لكل تلك الاسئلة اي محل في حديثنا هذا . ذاك رأيي ، فقل عنه ما تشاء .

نعود الى ما بدأناه ، وكنا في مقام ام أحمد أمام البنك . أجل . فقد نقلت نشاطها منذ فترة بعيدة الى تلك المنطقة الموسرة من حي التل ، وقبعت في تلك النقطة الاستراتيجية . وكانت قد تنقلت في مناطق كثيرة من المدينة ، ووجدت أخيرا أن تلك البقعة افضل مستقر . فقد جنت هنا من الربح اضعاف ما جنته في أي مكان آخر . وكان الاغنياء على غير عادتهم ، يغدقون عليها الفرنكات جيئة وذهابا . ربما كما سبق وبينت لكم لانها كانت تبدو كممثلة اكثر منها شحاذة. وبالتالي كانت تستحق المكافأة على اجادتها التمثيل أجادة بارعة . وربما كان السبب ، تلك المسحة من الطيبة والمذلة القانعة الرضية ، تكسو وجهها السمح المجعد ، وكان في تلك المسحة المتذللة الخانعة الطيبة مما يدعو الى تخليص النفس من تبكيت الضمير الذي يساور الانسان عند رؤيته الشقاء والتعاسة . كان فيها ما ينادي الرائح والغادي :

ـ هيه ، انت هناك !.. هيه ، انت هنا !.. خلص روحك من الندم والشعور بالذنب ، أرض غرورك وكبرياءك بممارسة الاحسان ، فضيلة الفضائل في كل الاديان والتعاليم الربانية ، أقم تلك العلاقة الاخوية بين بني البشر ، علاقة الصدقة ، هلم ... هلم ، ولا تدع الفرصة تفوتك !

وكانت تلك الدعوة مؤثرة نفاذة ، فمن استجاب لها من العابرين ، بذل بسخاء ، وتلقى المكافأة الموعودة : دعوات لا تنتهي بالتوفيق والتيسير . وبمعنى آخر ، يكون قد حصل رضى الفقراء وبركتهم ، واقام معهم علاقات المودة والاخاء .

وربما كان السبب غير هذا وذاك . فقد كان في هيئتها ما يقترب بها من هيئة العرافين ، ممن يقرأون الطالع ، ويعرفون الغيب . فهي في تقاطيعها اقرب الى السحرة والمشعوذين منها الى الفقراء العاديين ، فكان البعض يأنسون في التصدق عليها ، ويشعرون وكأنهم يسترضون الارواح الهائجة الثائرة ، المنبعثة من المقابر المجهولة ، والقابعة خلف سجف الغيوم ، في الليالي المعتمة . وربما كان هناك اسباب اخرى لا أعرفها . المهم في الامر انها استقرت في مقامها الاثير ذاك ، دون ترخيص رسمي من الحكومة في الحقيقة ، ولكنها لم تكن لتعود بالاذى على احد ، فلم يتعرض لها مخلوق من بني الانس ، ولم يمسسها ملك من ملوك الجان ، طيلة فترة طويلة ، حتى كان مرور رفعت بك ، فأقام الدنيا واقعدها ، وكان ما كان . لماذا يا رفعت ؟ سامحك الله . ربما كنت على حق ، ولكن انظر الى أين انتهت النتائج .

والقضية لا تعدو كونها قضية اجتماع استثنائي عاجل ، من بين جملة الاجتماعات التي عقدت في مختلف ارجاء البلاد ، وقطع المدير العام للمؤسسة المذكورة رحلته الى اوروبا ، وجاء خصيصا للاشراف على تلك الاجتماعات . وتقرر ان يعقد الاجتماع في مدينتنا في مقر الفرع «١٣». ماذا اقول ؟ ساعة نحس ! ولكنها اتاحت لام أحمد ان تحضر طرفا من ذلك الاجتماع الاستثنائي : بدايته . فلقد توافدت السيارات الفخمة منذ الساعة التاسعة . وكانت تلك السيارات تقف امامها باجلال وهيبة ، وتنفتح ابوابها عن رجال وافري الصحة على الاغلب ، حسني الهندام ، يحملون حقائب جلدية منتفخة بوقار . فهل قامت المسكينة باي اساءة ؟ كلا وألف كلا . واتحدى أي مخلوق ان يدعي أنه ندت عنها أي حركة اهانة او اثارة ، او أي كلمة نابية . وكل جريمتها ، ان كان التحرش بالموسرين على تلك الصورة جريمة ، أنها كانت تمسح بعينيها ، بحنان ، كل سيارة تقف امامها ، شبرا شبرا . ثم تتسلق نظراتها الرجل الوقور الهابط من السيارة ، وتتحسس بلطف نعومة ثيابه ورقة بشرته ، وتجس بتؤدة واجلال الحقيبة المهيبة المعلقة في يده ، مغلقة على اسرار مجهولة .

ودام الاجتماع فترة طويلة ، ثم انتهى اخيراً على مقررات ومقترحات كثيرة . وخرج كل مدير بنفس الوقار الذي دخل به الى البنك قبل الاجتماع ، وطارت السيارات برشاقة ، وكل سيارة تحمل بضاعتها الغالية . وبعد فترة من الزمن خرج المدير العام بنفسه ، فتوفر لام احمد ان تشاهد تلك الشخصية دون ان تعلم بالطبع مدى اهميتها وخطورتها . وعندما هم رفعت بك بالصعود الى السيارة التي تقف بانتظاره ، وقع نظره فجأة عليها ... لبرهة ، تفحصها بنظرة محايدة ، وكاد ينقل نظره عنها ، لولا ان فكرة غريبة لمعت في قحف جمجمته ، كما يلمع بارق في فسحة السماء المعتمة . فتوقف وقد عراه الاضطراب ، واخذ يتفحصها هذه المرة ، بتشكك واتهام و ... خوف . ولقد شعرت المسكينة تحت وطأة نظراته بحرج واضطراب شديدين ، واحست بانها حملت فجأة ، ووضعت في قفص الاتهام دفعة واحدة ، لجريمة لم تعرف بعد ما تكون ، واحست بأن الاصابع المهددة المتهمة تشير اليها من كل جانب ، فثار بها الخوف ، وتململت في جلستها باضطراب ، وازدادت تكوما وانطواء على نفسها حتى صارت كالقطة الصغيرة . وارتفعت يد رفعت بك فجأة ، وانفرد من تلك اليد اصبع السبابة مشيرا الى ام أحمد ، وسأل السائق بسرعة وغضب :

ـ من هذه ... من هذه الشحاذة ؟ من تكون ؟ ولماذا تجلس هنا ؟

وجاء جواب السائق ببساطة :

ـ لا اعرف ، سيدي . لماذا ... هل حصل شيء ؟

ـ شيء ؟ لا ، معاذ الله ٠ ألا تراني مسرورا امتنع النظر بتأمل طلعتك البهية . امكث هنا ولا تتحرك ...

وعاد مسرعا وهو يقذف بسيل من اللعنات والشتائم . وثارت داخل البنك زوبعة ، وعصفت . وابرقت السماء وارعدت ، واخذ المطر يهطل بغزارة على رؤوس الموظفين الواحد تلو الآخر . وانصب فيض من الصواعق بشكل خاص على رأس المدير التعيس ، فقد فتح المدير العام معه محضر تحقيق كامل . من تكون تلك المرأة ؟ منذ متى تتربص أمام باب البنك ؟ وكيف سمح لها بالمكوث في هذه المنطقة الحساسة ؟ هل رآها الصحفيون الاجانب الذين كانوا في زيارة لبعض البنوك منذ فترة ؟ زخم من الاسئلة لا ينتهي . أين ؟ وكيف ؟.. ولماذا ؟.. كان رفعت بك يزأر ، وقد سيطر عليه الغضب والانفعال :

ـ ماذا ؟ مجرد شحاذة ؟.. وما أدراك ؟.. ومن اخبرك بأن العيون المبثوثة حولنا لا تراقبنا من محجري هذه الشحاذة المزعومة ؟ وافرض انها شحاذة ، اليس في مقامها امام بنكنا ما يثير ضدنا الفضيحة ؟ من أين ... من أين فقط خرج لنا كل ذلك البؤس ، وهذا الشقاء ؟ لقد انتهينا من البؤس ، أو هذا ما نقوله على الاقل . لقد حققنا نهضة ، وبنينا مجدا ، او هذا ما نقوله . وارسينا دعائم الاخاء والمحبة ، او هذا ما نقوله على الاقل ، فمن أي جحر معتم ، من أي وكر ضبع ، خرجت لنا هذه التحفة الاثرية ؟ وكان يجب ان تطردها منذ اليوم الاول ، ولكنك لم تفعل ، وسيكون لعملك أسوأ النتائج . ستفضحنا ، هذا اذا لم تكن اسرارنا قد انكشفت ، وانتهينا .

ردد مدير الفرع بانكسار ، وقد فاجأته الخطورة التي لم يحسن تقديرها :

ـ نعقد اجتماعا اذن .

ـ نعم ، بدون شك . ودون أي تأخير . عصر هذا اليوم بالذات .

في الوقت المحدد ، تقاطر المدعوون الى الاجتماع ، وكلهم لهفة وترقب . فقد انذروا جميعا بالحضور لدراسة امر طارىء ملح . وفي قاعة الاجتماعات ، وفي زواياها الاربع وزعت اربع مجامر نحاسية جميلة الصنع ، متعة للنظر ، ومن كل مجمرة كان يتصاعد عبق البخور وضبابه الرقيق الناعم ٠ من كان صاحب الفكرة ، لم أدر بعد . ولكن الارجح ان يكون ذلك العمل ارضاء لبعض الحاضرين . كان من بين المدعوين مطران تلك المنطقة ، وقاضي الشرع فيها . وقائد الشرطة وقائد الموقع . كلما حضر لفيف من رجال المال والثروة ، ووجهاء المدينة وسادتها . وبالاضافة اليهم حضرات بعض السيدات ، مندوبات عن جمعيات خيرية مختلفة . ولا تنس بالطبع مدراء البنوك جميعا دون استثناء . ودارت الهمسات في القاعة ، وعقدت الحلقات ، وذهبت التكهنات مذاهب شتى . وعلت الهمسات حتى غدت ضجة خرساء مبهمة لها ازيز ، فكأنه وكر زنابير هائجة . على ان الصمت ران فجأة فوق رؤوس الحاضرين جميعا عندما دخل المدير العام رفعت بك ، متجهم الوجه ، يفيض بالخطورة والجدية . وبعد اعلان افتتاح تلك الجلسة الطارئة وقف فيهم خطيبا . ولكن قبل ان يتكلم ، وقف لفترة صامتا ، فعم الصمت والسكون ، وساد جو من التوقع والانتظار مثير ومشوق . واطال وقفته الصامتة ، فكادت الانفاس تنقطع ، وتغلغل الاحساس بالجدية والخطورة والاحترام في نفوس جميع الحاضرين . واطال صمته اكثر فاكثر ، فباتوا على مثل الجمر ، واصبحوا على اشد الشوق للاستماع . عندها ، بدأ حديثه وهو يتنحنح :

سيداتي ... سادتي .

ربما بدا اجتماعنا الطارىء هذا غريبا للبعض ، ولكني قدرت ضرورة عقده ، وفي اسرع وقت ، وبعد ان اشرح لكم الاسباب التي

دعتنا لعقده ، يكون بامكانكم ان تحكموا ان كنت محقا أم لا . واريد بادىء ذي بدء ان اعتذر لانني لست بالخطيب البارع ، ولم أكن احسن في يوم من الايام صياغة الجمل الانشائية الجميلة ، ذلك جهد تركته لطلاب المدارس الذين يتلاعبون وهم في حداثة السن بالالفاظ والتعابير، بلذة ونشوة . اعذروني اذن ، ولندخل في الموضوع الذي اجتمعنا من أجله . ان امرأة مجهولة ، تدعي انها شحاذة ، تقبع امام باب الفرع « ١٣ » منذ أمد طويل . وان مقامها في هذا المكان ، الذي اقل ما يمكن ان يقال فيه ، انه غير صالح اطلاقا للتسول ، مقام مشبوه . وأيا كان ، فوجودها هنا فضيحة ... فضيحة مدبرة ضدنا جميعا ، سواء كانت جلستها تلك مقصودة او عفوية . اما بالنسبة لي ، فأرجح الاحتمال الاول ، لان جماعة ال ORS كما تعلمون ، نشطت كثيرا في هذه الايام الاخيرة ، وارجح ان تكون من اعوان تلك الجماعة . هذا ، اذا لم تكن ، وهو ما لا ارجوه ، من عصابة ال «SS 1963» ، وكلكم تعرفون فظائعها . انني ارجح ان تكون جلستها مقصودة امام بنكنا للتجسس والتحايل ، لان فقرها من نوع غريب ... فقر تمثيلي اكثر مما هو طبيعي . لكأنها شخصية سينمائية ! ولكن ، سأدع لكم ان تحكموا بانفسكم ، بعد ان تشاهدوها .

وتابع المدير العام حديثه ، وكان صوته يرن ملء القاعة ، ليحذر الحاضرين :

... ولا تنسوا الصحفيين واساليبهم المشهورة في التشهير . غدا ينشرون صورنا على صفحات مجلاتهم ، وينشرون صورة تلك الشحاذة امام البنك ، ليدعوا بخساسة اننا ننهب ثروتنا من تلك المرأة . تصوروا هذا الادعاء السخيف : الفقراء لا يملكون شيئا ، ولكننا مع ذلك نسرقهم ، ونجني ثروتنا من فقرهم !! ومع ذلك تجدون عددا لا بأس به من الاغبياء والمخربين يصدقون ذلك الزعم ويتحمسون له . ولكن ، هذا حديث فات أوانه . ونحن لا نكن للفقراء الا المحبة والاحترام ، ولقد أنشأنا لهم الجمعيات الخيرية ، وقمنا بخدمتهم على اكثر من صورة . وانا شخصيا . كنت اعتقد اننا انتهينا منهم ، اقصد من الفقر ، نهائيا ...

ختاما ، اقترح اجراء تحقيق دقيق في الموضوع ، وبانتظار ذلك ، ارجو ان استمع الى آرائكم وتوجيهاتكم ... وشكرا . »

بعد انتهاء كلمة المدير العام التي حظيت بكل الاهتمام والتقدير ، واثارت الحماس والاندفاع والشعور بالخطر ، من بين ما اثارت من مشاعر وافكار ، دار اللغط عاليا بين جمهور الحاضرين . وبدأ كل يصرح برأي . وكان اول المتكلمين سماحة المطران ، فطلب العفو والمغفرة من الاب السماوي ، واستلهمه سداد الرأي والرشد والعون ، وابعاد الخطر عن أبنائه المخلصين . ثم اوضح :

— ... في رأيي ان احدا ، غير الملحد ، لا يجرؤ على مس الاعمال الخيرية الكثيرة التي قدمها السادة الافاضل المجتمعون في هذه القاعة. وفي رأيي ان الاخوة والمحبة عواطف راسخة قوية ، قائمة بين بني الوطن، وكل من يحاول تمزيق تلك الرابطة السماوية القدسية ، انما يعمل بوحي من الهام شيطاني خبيث . واخيرا ، مهما تكن حقيقة تلك المرأة ، فالاب السماوي المقدس سيرعى ابناءه ، ولن يتركهم فريسة لايجماعة، او لاي عصابة ، مهما بلغت من الشر والطغيان . »

مع كل كلمة ، كان رأس القاضي يهتز بايقاع موزون ، اهتزاز الاقتناع والتصديق ، وعندما انهى المطران حديثه ، أمن قاضي الشرع على رايه ، واضاف :

— ... ولقد جاء في الكتاب الكريم ان الله يرزق من يشاء بدون حساب ، وانه رفع البعض فوق البعض الآخر درجات لحكمة ربانية تقصر عن فهمها ألبابنا البشرية المحدودة . واذن ... فاين الفضيحة ؟ لا فضيحة في القضية . وانما يجب ان نلزم الحذر ونجري تحقيقا دقيقا وسريعا ، دون اي تهاون او استهتار . وتقولون ، جماعة ال ORS او عصابة ال « SS 1963 » ، ولكن اسمهم غير ذلك . انهم المشركون ، وقد أمرنا الله بقتالهم ، وحربهم الجهاد المقدس . واخيرا ، اعود فأؤكد ضرورة اجراء تحقيق مسهب ، والضرب بشدة ، ولقد جاء في صحيح الحديث : اعقلها وتوكل . وشكرا لكم جميعا . »

كان بخور المجامر ما يزال يتناثر في جو القاعة بهدوء وعذوبة ، ناشرا ارجا علويا خفي السحر والتأثير ، عندما نهض قائد الشرطة بثيابه المزركشة ، والرصينة رغم ذلك ، ليعلن عن رأيه بصراحة :

سيداتي ، سادتي .

أحييكم أجمل تحية ... وبعد .

أحب في مستهل حديثي هذا ان أبين لكم انني سألتزم جانب الصراحة التامة . وكلي امل الا يكون في هذه الصراحة ما يجرحكم ، او ما يجعلكم تفسرونها على انها خروج عن اللياقة ، او خشونة ، أو غير ذلك ... لقد جزت الحياة . وعرفت مختلف وجوهها : الطيبة والخبيثة ، وعركت نماذج مختلفة متنوعة من البشر ، وخبرني تلك التي اعتز بها ، تجعلني اوكد لكم ، بصراحتي المعروفة . ان الفساد في الحقيقة ، مستقر في اعماق النفس البشرية . واسألوني انا ، عن الانسان ، ذلك المخلوق العجيب ، فلقد عرفته ، وتأكد لي بالبرهان الملموس انه لا يفهم باللين ، ولا يعرف طريق الجد والاجتهاد والكرامة الا والعصا تأكل من لحم قفاه . ولذا ، اسمحوا لي ان اصارحكم بأن التساهل سيوصلنا الى ابعد واخطر مما نحن فيه . والحل؟..القسوة والشدة . فالقسوة سحر ، أي سحر ، يفعل فعله العجيب في النفوس الضعيفة المنحطة ، وما اكثرها ! ولو أن العصا أكلت من لحم تلك المرأة قطعة او قطعتين ، اذن للزمت بيتها ، وهي ، صدقوني ، في غنى اكيد عن التسول ، ولكن ... طبع ذليل ، ونفس حقيرة !

ويقولون لكم : نحن فقراء . دعوني أضحك ، انتم فقراء اذن ؟! ولكن تجربتي الطويلة ، أيها السادة ، كشفت لي عن حقيقة ذلك الزعم الكاذب الذي يدعونه . وانا اليوم أعلم علم اليقين ان ليس هناك فقراء . بل توجد فئتان من الاغنياء . الفئة الاولى فئة الاغنياء الذين يعيشون ويتمتعون بغناهم وثروتهم . اما الفئة الثانية ، فتضم جميع اصحاب النفوس الذليلة ، الذين يستطيبون الفقر والقذارة ، لبخلهم وسفالتهم ، وهم يجمعون كل ما لديهم من ثروة حقيقية في جوف الارض، او في حزام سميك يربطونه بحرص على بطونهم ليل نهار . ولذا ، ليس الا ان تطلقوا يدي للعمل بحرية تامة في هذا المجال ، اذا اردتم حقا الا تروا بعد اليوم فقيرا . وهل تعلمون ما كنت سأفعله ؟ من يقول : انا فقير ، ويندب ويبكي في المحلات العامة ، او في الدوائر الرسمية ، او في أي مكان ، آتي به معي الى المخفر ، فاجلده ، ثم اغمره في مغطس من الماء البارد ، وبعدها في مغطس من الماء الساخن ، ثم أجلده ، ثم الى الماء البارد ، ثم الى الماء الساخن ، واعود فأجلده ... واجلده ، وفورا الى الماء البارد ... ثم اجلده ، ثم ... الخلاصة ، ولا اريد ان اثقل عليكم بالتفاصيل الصغيرة ، أظل اعذبه ، حتى يعترف بكذبه ، فينكر فقره المزعوم ، ويقر بثروته المخفية ، ويتعهد بأن يكف عن الشكوى والبكاء على مفارق الطرقات العامة ، أجل ، لا ادعه يذهب حتى يعترف بثروته ، وبانه مسرور وسعيد في حياته .

أيها السادة الافاضل .

تلك هي طريقتي ، وثقوا بانها انجع طريقة ، وعندما يسمح لي بتجربيها ، واخول السلطة الكاملة في ذلك المجال ، سترون النتائج المذهلة التي سنصل اليها . تلك هي طريقتي ، وتلك هي خبرتي ، افدتكم في هذا الحديث القصير عنهما ، ولم يعد لي الآن الا ان اختتم كلمتي بشكركم على حسن الاصغاء .

شكرا والسلام . »

ولما لم يكن لقائد الموقع أي اعتراض على ذلك الرأي ، ولم يكن لديه ما يضيفه ، سكت سكوت الموافق المؤيد .

ثم نهضت سيدة سمينة ، وتصدرت المنصة ، وكانت مندوبة عن احدى الجمعيات الخيرية . ولقد تأكد للحاضرين ، من مراقبة حركاتها

اللطيفة ، ان باستطاعة المرأة ان تشارك في جميع المجالات العامة دون ان تفقد انوثتها . تحدثت طويلا ، ثم عاهدت الحاضرين في النهاية ، على الاستمرار في بذل كل ما في وسعها للتخفيف من آلام الموجوعين ،بروح الامومة الطاهرة .

ثم ... لكن ، سأترك لك عزيزي القارىء ، ان تعمل خيالك لتتصور جزئيات ودقائق ذلك الاجتماع : الانطباعات المختلفة المرتسمة على الوجوه ، الاحاديث المتشابكة المختلطة ، صرخات الموافقة والاستحسان ، واحيانا على العكس ... الغضب والانفعال ، وذلك الشارد هناك يفكر فيما لا يعلمه غير الله ، وتلك السيدة تسوي تنورتها الضيقة حول فخذيها المتلئتين ،و ... و... امور كثيرة حتى لو اردت فلن اقدر على عرضها امامك ، اذ ليست الكلمة التي اعالجها واستنزف ما فيها من طاقة ، كاميرا سينمائية . ولكن فاتني في الحقيقة ان اذكر لك امرا هاما ، وهو دخول أم احمد ، او الاصح ، ادخالها بالقوة الى قاعة الاجتماع اكثر من مرة . ادخلها الآذن للمرة الاولى اثناء حديث المدير العام ، وعند مقطع من كلمته يتشكك فيه بأن يكون فقر تلك المرأة وبؤسها حقيقيا ، وانها اقرب الى ان تكون شخصية خيالية هاربة من احد الافلام السينمائية . واستأذن الحاضرين في عرض اللوحة امامهم ليتأكدوا بانفسهم من صحة تخمينه .

وعندما طلب الآذن من أم أحمد القابعة امام باب البنك ان تدخل معه لمقابلة سيده ، ظنت في الامر صدقة كبيرة ، وان كان قد خالجها بعض التساؤل والاستغراب . فدخلت تنقل ساقيها بصعوبة كما تسير الدجاجة المريضة ، وقد لفت نفسها بثيابها المهلهلة . ولكنها فوجئت بدل السيد بأسياد • ولم تر أحدا في الحقيقة، بل انعكس على شبكية عينيها كوم من البشر متكدسون في تلك القاعة .فاطرقت، وعيناها لا تستقران على موضع حتى في اطرافهما ، وكأنه قد حرم عليها النظر الى شيء بالذات . اشار المدير العام اليها ، في وقفتها الغريبة تلك ، تمثالا متحجرا ، مطرقا نحو الارض ، ليس فيه ما يدل على الحياة الا العينان الزائغتان ، ترتفعان احيانا بضعف وانكسار لترمقا جمهور المتفرجين ، ثم طلب من الآذن ان يخرجها وان يحتفظ بها في الرواق ، قرب قاعة الاجتماع ، وتابع حديثه . وادخلت مرة ثانية عندما ايد البعض الحاح قاضي الشرع لاجراء التحقيق ، وطلبوا الشروع فيه على الفور ، والتأكد من ان شعر المرأة الابيض ليس مستعارا ، وان تقوس ظهرها طبيعي وليس مجرد تمثيل . فدخلت هذه المرة ، يسبقها الخوف والذعر ، ولكن المطران مسح على رأسها بحنان ، ورسم فوقها اشارة الصليب ، وطلب منها ان تتشجع والا تخاف . اما قاضي الشرع فطبطب على ظهرها ، وكانت خبطات يده قوية ، فطقطقت عظام المسكينة ، ولكنها لم تجسر على اظهار الالم او الصراخ . وكان ذلك الامتحان الاول ، ثم ادخلت مرة ثالثة عندما تشكك احد الحاضرين في ان يكون معها اجهزة لاقطة مخفية ضمن ثيابها . فجاؤوا بها ، وادخلت هذه المرة الى غرفة صغيرة مجاورة ، وطلب الى احدى المحسنات الخيريات ان تقوم بتفتيشها . فقامت بعملها باجتهاد ، ولكن فاجأها اثناء ذلك شعور بالقرف لم تستطع كبحه . وهكذا ، كان دخول أم احمد الى القاعة وخروجها منها ، الايقاع الذي نظم سير الجلسة ومناقشاتها . وقد جيء بها مرة رابعة لالقاء بعض الاسئلة عليها . وطلبت للمرة الخامسة لفكرة الحت على ذهن المدير العام واراد ان يتأكد منها . وكانت المرة الاخيرة . وبينما كانت المسكينة تتجه نحو الباب ، يمسك بها الآذن من ذراعها ، سقط الكيس الصغير الذي تجمع فيه جنى يومها ، وتناثرت فرنكاتها على بلاط القاعة ، ولكل فرنك رنة مستقلة عذبة • فكانت تلك اقسى مصيبة حلت بها حتى تلك اللحظة ، وهمت بالانحناء لتجمع ثروتها ، لولا ان الآذن اخذ يجرها باتجاه الباب ، عندها ، لم تعد تطيق صبرا ، فانهارت على الارض ، واخذت في بكاء شديد ، وراحت تزحف بين ارجل الحاضرين ، باكية ، مقبلة الايادي والارجل والارض ، طلبا للرحمة والشفقة . فلم يعد هناك شك في براءتها من الاتصال باي شبكة تجسسية ، او أي جماعة سياسية . وشعر الحاضرون من ذلك بما يشبه خيبة الامل ، وانقلب البحث بهم الى مناقشة مشكلة التسول، وغيرها من مشاكل الفقراء الفاضحة ، والتي تسيء الى سمعة البلاد .

استمر البحث يدور حول مشكلة التسول ، وقذارة الاحياء الشعبية ، وغير ذلك من فضائح لا يرتاح لها السياح . والقي باللوم على الجمعيات الخيرية ، والقت الجمعيات الخيرية باللوم على المتبرعين وضآلة المخصصات المفروضة لهم ، والقى اولئك اشد اللوم على رجال الامن الذين يتسامرون مع المتسول عندما يشاهدونه ، بدلا من سوقه الى اقرب مخفر ، وهاجم قائد الشرطة السلطة العليا ، لانها تكبل يده،وان لديه حلولا جذرية لكل تلك المشاكل ، ولكن لا احد يريد ان يستمع له..

وهكذا ، دار البحث حول نفسه دون نتيجة . ولكن كان هناك مشكلة ملحة تفرض نفسها : مشكلة تلك المنتظرة في الرواق ، وقد اهينت على اكثر من وجه . وكان المدير العام يردد بعصبية :

ـ ... ثم انها ستعود الى مجلسها امام البنك ، فكاننا لم نقم باي عمل . وثقوا بانها ستسرد ما حصل معها بالتفصيل ، وثقوا اذن بان المعلومات ستتصل دون تأخير الى اولئك الصحفيين الموتورين ، والذين يتنسمون رائحة الفضائح على بعد مئات الكيلومترات ، واكثر ...

فوجيء الحاضرون بتلك الاحتمالات المهددة تنتصب امامهم فجأة ، ووقفوا امامها عاجزين . وغرقوا باديء الامر في اقتراحات صبيانية مضحكة . قال احد الحاضرين ، بنزق واستعلاء :

ـ نصرفها والسلام ، ومن يتعرض لنا نقطع لسانه !

وتبعه آخر ، لا شك وانه يكثر من المطالعات ، قال بهدوء ، وهو يرسم بيديه حركات مبهمة في الفراغ :

ـ بل ارى ان نخفف عنها بالكلمات اللطيفة ، ثم نصرفها بالحسنى، بعد ان نعتذر منها اعتذارا رقيقا ، فالكلمات جاذبية ، وان من البيان لسحرا !

وظلوا لفترة تائهين حائرين ، حتى لمعت الفكرة الذكية في سماء تلك القاعة فاذهلت الحاضرين اعجابا واستحسانا . وكان اول من قاد الفكرة ودل عليها سماحة قاضي الشرع ، الذي بين كيف امر الدين بالاحسان ، لا بل حدد ذلك الاحسان بالزكاة ، وقال :

ـ ... انا وان كنت لا اتشبث بفرض الحد الذي اقامته الزكاة ، ارى ان تعالج هذه المرأة بما يفك عنها الضيق الذي هي فيه . فلتصرف لها الجمعيات الخيرية ، او اي مصدر آخر ما يكفيها . او ، ما رايكم في ان ننزلها دار العجزة والايتام ، اذا امكن ذلك ؟..

وأكد بأن ذلك العمل سيسجل بمداد من ذهب ، وان الله سيثيبهم عن ذلك خير ثواب يوم القيامة . واستحسن المطران تلك الفكرة كثيرا، واضاف :

ـ ... عندها ، يكون بامكاننا ان نشيد علنا في قداس يوم الاحد باسم المحسن الكبير ، المدير العام رفعت بك ، وغيره ، ممن سيساهمون في ذلك العمل الجليل . كما اننا ، نقطع الطريق على ألسنة السوء ومحبي الاشاعات واثارة القلاقل » .

وكانت فكرة ارتاح لها الحاضرون ، وكادوا يشرعون في الاتفاق حولها ، لولا قيام شاب لم يتجاوز الثلاثين ، قيل لي انه يعمل في المخابرات ، وكان قد حضر ذلك الاجتماع برفقة قائد الشرطة للاشراف والاطلاع . ولقد تبنى ذلك الشاب فكرة قاضي الشرع ، ولكنه طورها واغناها بذكاء عز على الاخرين تحصيله . اكد في البداية للحاضرين :

ـ القدر السعيد ، صدقوني ، هو الذي القى على طريقنا بتلك الشحاذة ...

وامام دهشة الجميع شرع يدلي بتفسيره :

ـ تعلمون ان الافكار والعواطف عند مولدها في النفس تبقى عاجزة ، كليلة ، وغير واضحة ، وتحتاج الى شكل خارجي ، الى وعاء تحل فيه ، بكلمة اخرى بحاجة الى ان تتجسد . وما دامت في صورتها المجردة ، تبقى ضبابية ، ضعيفة التأثير ، حتى تنتقل الى الصورة

المحسوسة المجسدة . ما معنى هذا الكلام الجاف ؟.. معناه ، اننا لا يكفي ان ندعو الى البر ونحض عليه ، بل يجب ان نقوم ببعض الاعمال لتكون مثلا امام الآخرين . والاعمال العامة ، كاقامة الجمعيات الخيرية او غير ذلك ، يبقى ضعيف الاقناع من وجهة نظر دعائية خالصة ،ولكن الاعمال الفردية ، والتي يحسن اثارة الضجة حولها ، تقدم فائدة غير محدودة في مجال الدعاية ، وفي تجسيد ما كان قولا وفكرا مجردا . ونحن الآن امام مشكلة ، او ورطة كما تسمونها . ولكن بامكاننا نجعلها غير ذلك . فلماذا لا يقوم المدير العام بنفسه بايواء ورعاية تلك المرأة لفترة بسيطة ، ونثير نحن اثناء ذلك ضجة كبيرة على اساس ان تلك الشحاذة الفقيرة ، طلبت العون من المدير العام عندما رآته يحضر الاجتماع ، لما توسمت فيه من طيبة وشهامة ، لانها فقيرة ، كما تعاني من مرض مبرح لا تعرف سره ولا تقوى على علاجه ، وان المدير العام قد استغرب وجود مثل ذلك الفقر ، وثار على جميع المسؤولين ، وانه قد تبنى تلك الفقيرة ، وافرد لها غرفة في بيته ، تقيم فيها ريثما تتم التحاليل الطبية المختلفة لمعرفة مرضها ، وانه سيتولى ارسالها الى الخارج للعلاج ان اقتضى الامر . وبالطبع ، سيهاجم الجمعيات الخيرية ... عفوا ، ارجو الا يقاطعني احد ، حتى انهي شرحي ... قلت ، يهاجم المدير الجمعيات الخيرية ، فيكون هذا الهجوم مناسبة لتلك الاخيرة ، للدفاع عن نفسها ونشر فضائلها على صفحات المجلات، وتكون أحسن مناسبة لجميع العاملين في تلك الجمعيات ولجميع المتبرعين لنشر اسمائهم وصورهم في الصحف . كما ان المدير يهاجم السلطة ...

وتوقف لفترة وهو يبتسم ، ثم تابع :

ـ بالطبع هجوما لطيفا ، وان ظهر بمظهر العنف والاحتداد ، فيتيح بذلك لجميع صحفيينا ان ينبروا للدفاع عن السلطة بحماس واندفاع . ولن يكون لذلك التهجم من ضرر ، كونوا مطمئنين لذلك ، بل على العكس سيرسخ النظام القائم ويقوي من دعائمه . وانت اذا اردت ان تقوي النظام وتدعمه ، فهاجمه ، وانت نصيره، هجوما خفيفا، ينتصر عليه ، ويخرج من الجولة خروج المظفر ، اقوى واشد مما كان . ومن الاجدى ، واظنكم توافقونني على ذلك ، ان تنتقد نفسك ، فتقطع الطريق بذلك على خصمك في انتقادك . وبانتقادك لنفسك تظهر بمظهر الكمال ، فتربح من حيث خيل للاخرين انك خسرت . وامر آخر ايضا ، تعلمون بأن الجميع منشغلون بامر تلك الاجتماعات التي تعقد في كافة ارجاء البلاد ، وبالتالي ، نستطيع اذا احسنا اثارة الضجة حول هذه المسألة الجانبية ، ان نحول انظار الجمهور الى جهة ثانية ، وان نخلق له قصة تسليه عن تتبع نشاطاتنا لفترة طويلة . فانت ، اذا ما رغبت في الاتجاه الى المغرب دون ان يراك احد ، ليس عليك الا ان تحدث جلبة مفتعلة في المشرق ، تتوجه اليها كل الانظار ، فتسير انت الى بغيتك هانئا ، مرتاح البال ، لا يزعجك احد . هذا معروف . وتلك طريقة قديمة لا اظنها تخفى على افهامكم ...

كان الحاضرون يتطلعون الى ذلك الشاب بتقديس ، ويستمعون اليه بمنتهى الانبهار والذهول . اي ذكاء ! اي المعية ! وتوقعوا له ان ينتقل سريعا من سلك المخابرات الى ميدان العمل السياسي ، وتنبأوا له سلفا بمستقبل باهر . وعندما انهى حديثه قائلا :

ـ ... صدقوني ، لا عد ولا حصر للفوائد التي يمكن ان نجنيها من هذه القصة ، وليس علينا سوى ان نحسن استغلالها ، بذكاء ودراية على خير وجه .

لم يتمالك المدير العام نفسه ، فنهض وقد اخذت به النشوة والحماس كل ماخذ ، واتجه اليه ، وصافحه بحماس وحرارة ، وهمس في اذنه : ـ انتظرني ... اريد ان نتدارس الامر سوية .

ثم اعلن للحاضرين انتهاء الجلسة .

كما ترى ، الاقتراح ذكي فعلا ، وما فيه من تعقيد وتداخل يدل حقا على حنكة اكيدة ، وخبرة بعيدة يستغرب مثلها عند الشباب . وانا بشرفي ، عندما نقل لي احد الموجودين وقائع الجلسة ، لم افهم في البداية كيف يمكن لرفعت بك ان يهاجم نفسه ، ويكون في ذلك قوة له ، ولا كيف يهاجم الجمعيات الخيرية لتقويتها وتدعيمها ، ولم افهم حتى شرح لي صديقي المسألة مرة واثنتين وثلاثا ، ودعم شرحه بامثلة كثيرة واقعية ، خرجت منها مبهورا ، وفهمت عندها لماذا يردد العامة البسطاء كلمة « السياسة » بخوف ، ويلعنونها ويلعنون كل من اشتغل بها او تعاطى عقافيرها السحرية .

ومن أين لمثل تلك الفكرة الجهنمية ان تخطر على بال انسان لاه. ولقد نجحت ، والحق يقال ، نجاحا كبيرا . ففي اليوم التالي ، وبعد ان ادخلت ام احمد الى الحمام ، والبست ثوبا نظيفا ، حضر لفيف من الصحفيين ، مع جمع غفير من المصورين . ولمعت اضواء العدسات مئات المرات ذلك اليوم في فيلا رفعت بك . وصرح هو نفسه تصريحات مختلفة لم تنقصها الجرأة ، وتهجم على اكثر من جهة ، ورفع اصبع الاتهام في وجه اكثر من مسؤول . واعلن :

ـ ... كنت وما ازال وسأظل نصير الفقراء ، وعونا لكل من يقول : آخ ، تخرج صادقة مريرة ، من صدر موجوع ، وحيد في قلب الليل المعتم ... وليسمع الجميع ما اقوله ، فسأظل اردده ما دمت على قيد الحياة ...

وظهرت تلك الاقوال في الصحف . وخرجت صورة الشحاذة الى الصفحة الاولى لاكثر من جريدة ، وفي وضعيات مختلفة . فهي في احدى الصور تشوح بيديها ، وقد فنحت فمها حتى النهاية ، بينما تقف في صورة ثانية جامدة ، وقد الصقت يديها بجسدها ، وفمها مطبق . وتنوعت العناوين ، « المدير العام : انا أتهم ! » وعنوان آخر تصدر الصفحة الاولى لجريدة مشهورة ، عنوان ضخم ومثير : « اسمعي يا حكومة !» وانهمر زخم الاسئلة واشارات الاستفهام الملحة : ماذا يقول عنا الاجانب ؟ أين انتم يا رجال الامن ؟ اين الجمعيات الخيرية وسيداتها الفاضلات ؟.. وبالطبع ، كان لتلك الاسئلة اجابات ، ولقد تصدى المعنيون لتقديمها مفحمة بأترة ، بنفس الحدة واشد ، تماما كما كان متوقعا ومرسوما .

وبالاضافه الى هذا وذاك فقد هجم احد المذيعين الى فيلا المدير العام ، وسجل له حديثا اجتماعيا دام ربع ساعة كاملة . فما كان من التلفزيون الا ان خصص ندوة تلفزيونية مستفيضة ، اشترك فيها رفعت بك مع لفيف من المسؤولين . وقد نوقشت فيها الامور بمنتهى الصراحة والوضوح ، وبلغة العلم والارقام . اذ ، كما صرح مسؤول في تلك الندوة :

ـ انتهى عهد التخوف والهرب ، ونحن الآن قد دخلنا عصر العلم والمعرفة .

نجحت الفكرة نجاحا باهرا ، لا بل سجل الحدث في الشريط السينمائي المصور ، الذي يعرض اخبار البلاد ، واحداثها الداخلية الهامة . ولم يعد امام رفعت بك الا ان يجد وسيلة يتخلص بها من الشحاذة ، التي بدأت تثقل عليه كثيرا . فلقد اخذت باقوالها الكثيرة ، وصدقت بقلب طيب كل ما تفوه به . فصارت تطارده من غرفة الى اخرى ، وتدخل الى مكتبه دون استئذان ، ولم يعد يسمع الا شكواها وبكاءها في ذهابه وجيئته ، فتحول البيت الى جحيم حقيقي ، فهي مريضة فعلا ، وتريده ان يحضر لها كل اطباء البلد :

ـ ... رفعت بك ، قلبي احس فيه مثل ضرب السكين ... رفعت بك ، كرمى للرسل والانبياء ، قلبي يؤلمني . وخاصرتي ايضا .. آه يا خاصرتي ! ...

وهي فقيرة ، وتريد ان تذكره بذلك دون توقف . ثم انها شاكرة له ، وتريد ان تعبر بطريقة مزعجة ، وفي كل لحظة ، عن ذلك الشكر: بدعوات ذليلة منغصة ، بهجمات مفاجئة لتقبيل يديه ، او غير ذلك من الاساليب الفجة . وكاد يلقي بها الى الشارع ، لولا ان نصحه احد اصدقائه قائلا :

ــ بل احتفظ بها عندك يا رفعت بك ، حتى تؤمن ايواءها عند اي عائلة من معارفك ، كخادمة . هذا اشرف ! فأبقاها في بيته ، وتحمل كل تلك المزعجات على مضض ، بانتظار الفرج .

كان رفعت بك قد اعتبر الموضوع منتهيا . ولكن ... ما هذا ؟ اللعنة على نسل آدم بأكمله !.. لا ، بل يبدو ان القصة الحقيقية لم تبدأ بعد . فقد تعرض له صبيحة احد الايام امام باب الفيلا شخص بائس ، زري المظهر ، هو في بؤسه وشقائه الى هيئة الحيوانات المتوحشة اقرب منه الى هيئة الآدميين . وكان يحمل على ظهره ولدا في السابعة من عمره : ولده . ولقد هجم على رفعت بك فور ان رآه، وهو يستجير :

ــ رفعت بك ، الرحمة ... النجدة ، وانت صاحب النجدة . ولدي يا رفعت بك كما ترى يوشك ان يموت . ولا يقبل أي طبيب ان يفحصه مجانا . وانا فقير ، على الحصير ، ولا استطيع ان ادخله الى المستشفى . وقد نصحوني ان ليس امامي سواك يا رفعت بك . انت ، انت نصيرنا نحن الفقراء ، وعوننا نحن المحتاجين ...

ولكن الرجل انبهر عندما هرب رفعت بك من امامه وهو يشتم ويجدف . وقد قذف في وجهه ، وهو يصعد الى سيارته ، بخمس ليرات استلها من جيبه بغضب وانفعال ، ومعها تلك الدعوة المنفعلة :

ــ الى جهنم انت وابنك وكل مشعوذ . ما هذا ؟ الرحمة يا ناس ! كلما اردت ان تستريح ، خرج لك مولول نداب ، يشعوذ امامك ويملأ الدنيا بكاء وشكوى . سأجن .. سأجن على هذه الحالة ! ..

فهل انتهى الامر ، بل كانت تلك البداية . وكان شخص آخر يقبع امام البنك بانتظار وصول المدير العام . وعندما خرج من مكتبه ظهرا ، كان ينتظره هذه المرة ثلاثة ، بينهم امرأة سمينة ، تلبس ثيابا فقيرة ، وتريد منه ان يدبر عملا لولدها البكر :

ــ رفعت بك ، اجعله من معروفك ... رفعت بك .. عندي ثمانية اولاد ايتام ، فتفضل علي وانت صاحب الفضل ...

رفعت بك ... آخ ! رفعت بك ... امان ! رفعت بك ... خاصرتي ! رفعت بك ... قلبي ! رأسي ! أحشائي ! أي ... يا ويلي انا ! رفعت بك ... ابني ! حيواني ! وظيفة ... وظيفة كرمى لله ! رفعت بك ...! رفعت بك !..

على مثل ذلك صار رفعت بك ينام ويستيقظ . واوشك ان يصاب بانهيار عصبي . لا بل هذا ما حصل معه بالفعل ، عندما عاد ظهر احد الايام الى الفيلا ، منهكا ، فوجد امام الباب ، وحول اسوار الحديقة جمهرة من الناس ، بينهم شاب قد ربط عينه اليسرى بعصابة متسخة من القماش ، بينما علق رجل آخر ، متقدم في السن ، يده اليمنى في عنقه بخرقة سوداء . وقد انضم الى شذاذ الآفاق اولئك ، جمع من الاطفال والفضوليين ، فتشكلت منهم مظاهرة حقيقية . وعندما اقتربت السيارة ، علا الصراخ ، وارتفع التهليل ، وسمعت بعض التاوهات والتوجعات المريرة ، ولولا بداهة السائق وحسن تصرفه ، لقضى رفعت بك اعصب ساعة في حياته . ولكن السائق انجده ، وفر به وبالسيارة من امام المد الزاحف . هرب رفعت بك ، وهو في حالة من الانهيار العصبي مؤلمة ، الى احد الفنادق ، واتصل من هناك هاتفيا ، وطلب ان تقوم الشرطة بتفريق تلك المظاهرة من امام بيته . وكان صوته يهدر :

ــ اطردوهم ... الكلاب ، اولاد الكلب ! اضربوهم ... اعتقلوهم جميعا . لا اريد ان يهرب احد . انا مواطن ... مواطن ككل المواطنين ، ولا يتركني اولئك التيوس اعيش لحظة براحة بال . لا رحمة ... لا رحمة بعد اليوم ...

وعندما وضع السماعة ، جال في خاطره ما سبق وقاله قائد الشرطة ، واحس ساعتها باحترام شديد تجاه ذلك الرجل .

ــ فعلا ليست الحسنى مما يعامل به الفقراء ، او ادعياء الفقر . وليس لهم الا العصا تخفيهم في حجورهم ، ولا تعود تراهم ، وترتاح، على الاقل ، من سماع تأوهاتهم ، وتوجعاتهم المنفصة .

ولم يكن له من معين الا الشاب الذي كان صاحب الفكرة . وهو من ورطة تلك الورطة المشؤومة ، فلجأ اليه شاكيا معاتبا :

ــ فكرتك ياصاحبي قتلتني ، على ذكائها .. على ذكائها ، قتلتني. وليس لي سواك . فانت ورطتني ، وانت الان يجب ان تخلصني .. هات لنرى ، الهب ذكاءك ليتاجج بالافكار ! بماذا تشير عليّ ؟

ــ تسافر الى فرنسا ، وتكمل اصطيافك هناك . واصطحب معك ام احمد ، بامكانك ان تضعها لتخدم عند اي عائلة من عائلاتنا هناك. فالمهم الان ان يغيب اشخاص القصة عن المسرح ، لفترة كافية للنسيان.

ــ الى فرنسا ؟! .. والاجتماعات ؟.. والاعمال ؟.. هل تراني جننت ؟.. ثم ماذا تفعل ام عفريت تلك معي ؟..

عارض رفعت بك بادىء الامر ، ولكنه اقتنع في النهاية ، وقرر ان يكلف من ينوب عنه في تسيير الاعمال والاشراف على الاجتماعات . ولقد لامه الشاب لوما شديدا على نفاد صبره، وسرعة انفعاله؟

ــ لقد نجحت الفكر، فكرتي، نجاحا اكيدا ... وتكاد بانفعالك وعصبيتك تفسد كل شيء . ويمكنك ان تتخلص من ذوي الحاجات بالف طريقة لطيفة .. أرضهم من حسابهم يا صاحبي .. تلك هي الطريقة المثلى .. وأم أحمد ؟ لماذا تفرض عليها ذلك الحجر ؟ سر مع فكرتي حتى النهاية .. لو كنت مكانك للاطفتها ، ولظهرت معها في اكثر من مكان عام .. صد قني تلك هي الطريقة المثلى .. والمسالة في النهاية ، مسألة وقت لا اكثر ولا أقل..

قال رفعت بك ، بعد فترة ، وقد تطامن :

ــ فعلا ، الحق معك . أنا بالفعل سريع الاشتعال ، ولكن ،هذا طبع فيّ ولا استطيع تبديله . ما رأيك أن نخرج اليوم في نزهة بحرية، وترافقنا انت ، وتكون ام أحمد ايضا معنا ؟

ــ عال .. لا مانع لدي على الاطلاق ... واعود فاؤكد لك بان المسألة مسألة وقت فقط .

وكانت تلك المرة الاولى التي تصعد فيها ام أحمد على ظهر زورق بحري ، فشعر بالخوف في البداية ، ثم استراحت بعدها لشعور لذيذ بالحذر والنشوة والزورق يمزق صفحة الماء وينطلق شطر البحر الواسع . فانتحت في ركن منعزل ،على حافة الزورق،واسلمت

نظراتها للمياه الزرقاء الصقيلة . وكانت ينابيـــع من الرذاذ الابيض تنبجس عند حافات المركب ، فسحرها ذلك المنظـر ، كـــان الرذاذ المتكاثف ، ناصع البياض ، كرف من الحمائم البيض تطير بنعومة ، أو كتباشير النهار العذبة ، فانحنت نحو الماء ، ومدت يدها علها تقتبس من ذلك الضياء شعاعا ، او تجس بحنـان الجناح الناعم لحمامة الميفة . واحست في انحناءتهـا بأعذب احساس خالجها طيلة حياتها :فقد لفها دوار بسيط ، منعش ولذيذ ، واختلطت السماء مع البحر ، في جـو اثيري شفاف ، واحست بنفسها تسبح في ذلك الجو الاثيـري بهـدوء وسكينـــة .

عندمـا انتشلت ام أحمـد من الماء ، كانت قد فارقت الحياة . ولم يستطع رفعت بك ان يمنع نفسه مـن السرور لذلك ، فقد انتهت متاعبه ، انهاها القدر السعيد هذه المرة . وعندمـا قال للشاب صديقه:

ـ ما رأيك ، انتهينا ، دون تنفيذ فكرتك الاخيرة ٠ وسوف القي بهـا على أول مزبلة ، الا توافق ؟ أخلد الشاب فترة للتفكير وهـــو يتأمل الجثة امامه ، ثم قال :

ـ بل عندي فكرة ! ان موت أم احمد مناسبة جيدة لا يجب أن يفوتنـا استغلالهـــا .

ـ فكرة ! الرحمة !.. كادت افكارك توصلني الى مستشفى المجانين.

فقال الشـاب بأنـاة :

ـ الا تسمعني اولا ؟ لقد قصدك العدد الغفير من الفقراء بحاجات ورددتهم أخشن رد ، ولن يكون لذلك صداه الطيب ، وفي رأيي انـك يجب ان تسوي ما بينك وبينهم جميعا ، وموت ام احمد هو مفتاح تلك المصالحـة . لماذا تريد ان تدفن تلك الشحاذة باهمال ، وكانهـا كلب؟ بل امضي مع فكرني حتى النهاية . ففي الحي الشمالي ، وعلى التـل المرتفع المشرف على البحر ، فسحة من الارض لا تعود عليك باي نفع. فليست صالحـة للزراعة ، وليست تلك المنطقة منطقة عمرانية . فلماذا لا تهب تلـك الارض للفقراء ، لجميع الفقراء ؟

ـ وما يصنع بها اولئك التعساء ؟

ـ بل قل ما نصنع لهم بهـا نحن ؟ سنشيد لهـم فيهـــا مقبرة ، ونقيم في تلك المقبرة لام احمد ضريحا رائعا . ولان المقبرة تشرف على البحـر الازرق الهادىء ، وتهجع فيهـا ارواح اخلدت للراحةوالسكينة بعد طول جهاد وعراك ، فسوف نسميها « مقبرة السلام » . وسـوف يحفـراسمك عند مدخل المقبرة . ما رأيك ؟ تكون قد انتهيت تلك القصة خيـر نهايـــة ؟

رمقه رفعت بك باعجاب ، واحس نحـوه باعمق الاحترام والتقدير، وقال بتأثـر :

ـ موافق مائة بالمائة . أنت يا صاحبي تثبت دائمـا انك اذكى بكثير ممـا يصفك به الاخرون .

ـ استدرك الشـاب :

ـ نسيت أن اضيف بانه يجب علينا ايضـا ان ننشىء جمعيـة خيرية لدفـن الموتى ، لانه قـد يكـون بيـن اولئك الفقراء من لا يملك ثمن النعش والكفن ساعة يمـوت ...

وبالطبع ، وافق رفعت بك على ذلك ايضا . وهذا بالفعل ما قد حصـل . فعلى تلـك التلة العاليـة المشرفة ، قبالة البحر الازرق، نهضت « مقبرة السلام » ، وانتصب في تلك المقبرة ضريح جميل مسور بالقضبان الحديدية العالية ، وقد زرعت حوله بعض الورود الشذية . وعلى المدخل رفعت رخامة بيضاء صقيلة ، نحت عليها :

ـ شيدها المحسن الكبير رفعت بك قطرياني ، امده الله بالعون والتوفيـــق .

على تلك التلة العاليـة المشرفة ، قبالة البحر الازرق ، استراحت « مقبرة السلام » للسنات البحرية الملاطفة ، وتطامنت تنتظـر الارواح التائقة للهدوء والسكينة .

بيـروت يوسف شامـل

هجائية من مسرح إلى أغبياء!

من ارداني اخرجت ارانبَ بيضاء
وزهورا شدّت انظار السادة لي
وقفوا في القاعة لحظة ساد الوهمُ
فما فرّقت الاموات عن الاحياءْ

***

الازمنةُ التفّت حول الاعناق المصلوبه ..
في وجهي
مثقلةً .كانت
تعبرُ نحوي .. يا وهمَ الالبسةِ اللماعةِ
ضع رأسك فوق الصدر
صدري جسدُ للوهمِ ، تقمص اسم الصدر الدامي
واريتُ العطش المغرور .. رأيتك ارثاً

***

في الامسيةِ الاخرى ..
زلزلت الارض
وعاد النهرُ يشقُ طريقا

***

النهرُ صديقي ..
لكن الاصحاب المأزومين تواروا خلف مقاعدهم
اذ اتحمّلُ نار الصمت .. أقسّمُ شوقي بين الاثنين
أرى جسدي وجها للنهرْ
تعبَ الخوفُ القابعُ في أرديتي
اتودد للنظرات المحمولة فوق دخان سجائرهم
اتودد للياقات البيضاء وللاربطة الباريسيةْ
تتوددُ لي النظراتُ المحمولة فوق دخان سجائرهم
تتودد لي الياقات البيضاء .. الاربطة الباريسيةْ
فأنا والنظرات طريق نحو اللحظات المهجورةْ
نتعامل بالالفاظ المنخورة
نتراشق بالاحجار ..
تعود رمادا وحروفا مذعورةْ

***

اسلمت يدي للقهار الواحد .. جندت اساطيل الكذب
وتعممت باوهام التأريخ تأزرت بصفر الكتب
أرخت عمى أهلي ..
وكتبت نشيد القهر بماء الذهبِ

قدّوا نحوي سبلا
مارست عبور السبل الشوهاء .. توقفت
فقدت الالم .. الابحار ..
لان الانسان تعثّر في وجهي
ووجوه الساده
لم أدخل في حرم الوحي .. منعتُ !
حملتُ بطاقةْ
قالوا ان نقاء الاغوار سماء للاطفالِ
وتوق وعبادهْ
زادي ومتاعي في مدن الليل .. نيوب طينه
من يدخلني مدخل صدق ونيوب الطين ..
ترفّ على جسدي رايهْ
يا شعراء الدنيا
يا أطفال الارض
يا شهداء
يا موتى من اجل قضيه
اني اكرهكم ..
وغدا سأموت بدون هويهْ

***

أطفئت الانوار تململ من في القاعهْ
وزعت دموعي للموتى .. للخشبِ المرصوفِ
وبادلني الموتى والخشبُ المرصوفُ ..
دموعــا
اتحــركُ ..
والسادة فوق رؤوسهم الطيرْ
تبقى أصوات الموتى بين الجدرانِ
تدقُ على ابوابِ الغيرْ
صوتي مرآة للاعذار المختنقهْ
اما الكلماتُ المحترقهْ
الرعبُ القادم من خلف زجاج الاحلام الدبقهْ
عصر محموم داهمنا ..
عطلّ فينا لغة الهمس ..
وعرّانا

بغـداد — **حميد سعيد**

تتمة ـ اعرف عدوك ـ

معينة ومبادىء خاصة تختلف اختلافا جذريا عن المجتمع ومثله وقيمه . ولا يخفى ما لهذا الاحتكاك من اثر على تقوية الروح المعنوية لدى افراد الجيش وتخفيف الم الفرقة الطويلة عن الاهل والاصدقاء .

٧ ـ ان الجيش الاسرائيلي عبارة عن بوتقة لصهر جميع القوميات ومختلف العناصر في قالب واحد ذي خصائص خاصة ومباديء معينة وقيم محددة (١) . ولكي نفهم هذه الوظيفة علينا ان نشير باختصار الى خاصية المجتمع الاسرائيلي الذي هو عبارة عن مجتمع اصطناعي مكون اصلا من عشرات العناصر والقوميات المختلفة ذات الحضارات المتباينة واللغات المتعددة . وان كثيرا من المهاجرين الذين جاءوا الى اسرائيل لا يعرفون شيئا من اللغة العبرية او جغرافية المنطقة الجديدة . ومن هنا برزت اهمية الجيش في صهر العناصر والقوميات المختلفة بين المهاجرين اذ ان الجيش هو المؤسسة الوحيدة تقريبا التي ينبغي لكل شخص ان ينضم اليها ويخدم فيها مدة معينة . وقد انتبه الجيش الى هذه الوظيفة فراح يكرس جهوده لتدريس اللغة العبرية للمهاجرين الذين لا يعرفونها وتدريسهم دروسا خاصة بالتاريخ اليهودي وجغرافية الارض الجديدة (٢) . وكذلك عمل الجيش على اعداد هؤلاء المهاجرين اعدادا عسكريا وحضاريا لكي يخدموا المجتمع الاسرائيلي ويقوموا بالدفاع عنه عند الحاجة .

٨ ـ واخيرا وليس آخرا ، ان دور الجيش الاسرائيلي لا يقتصر على الاعمال العسكرية والفعاليات الحربية بل يتعدى ذلك الى مناحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . ففي مجال التعليم يقوم الجيش الاسرائيلي بعملية تلقين الشباب الاسرائيلي بمختلف القيم الصهيونيه كذلك ، وكما قلت سابقا ، يقوم بتعليم اللغة العبريه لدين لا يعرفونها . كما انه قد ساهم في انشاء كثير من المدارس المهنية لغرض تهيئة متخصصين في مختلف المهن الصناعية من اجل الاشراف على مختلف الصناعات الحربية وغير العسكرية . والجيش الاسرائيلي كذلك يقوم بالاشراف على عدة منظمات اهمها كادنة Gadna والنحال Nahal . والاولى عبارة عن منظمة اختيارية للاولاد الذين تتراوح اعمارهم بين ١٤ و ١٦ سنة وغرضها تهيئة هؤلاء الناشئة وتدريبهم على اساليب المقاومة الشعبية والكشافة وكذلك تدريبهم للعمل في المؤسسات العامة . اما المنظمة الثانية ، النحال Nahal فهي تعمل على توحيد التدريب العسكري مع التهيئة للحياة الزراعية في مستعمرات الحدود (١) .

هذه باختصار هي اهم الخصائص الاجتماعية للجيش الاسرائيلي ولم اتطرق في هذا المقال المقتضب الى تاريخ الجيش واصله لاعتقادي بان هذا الموضوع قد طرقه من قبل عدة باحثين (٢) .

ايـاد القزاز
جامعة كاليفورنيا

١ ـ Leonard J. Fein, «Politics in Israel,» (Boston, Little, Browne and Company, 1967), pp-133-135.

٢ ـ Ben Halpern, «The Military in Israel», in, The Role or the Military in Underdeveloped Countries», ed by J.J. Johnson (New Jersey, Princeron University Press, 1962) p-347.

١ ـ Colonel Irving Heymont, «Israel Defense Forces» p-42.

٢ ـ اللواء الركن محمود شيت خطاب ، « العسكرية الاسرائيلية » بيروت ، دار الطليعة ١٩٦٨ حاتم صادق ، « العسكريون في المجتمع الاسرائيلي » ، السياسة الدولية ، السنة الخامسة ، العدد ١٥ يناير ١٩٦٩ ، ص ص ٩٢ ـ ١١٠ .

ــ تتمة ــ وجهة نظر ــ

ــ تتمة ــ المنشور على الصفحة ــ ٤٦ ــ

***

ومن هنا تنشأ خطورة الدعوة لازالة آثار العدوان . فقط ، كتكتيك وستراتيجية في نفس الوقت ..

لذا فان هذه المساعي التي تتحقق في الدعوة هنا وهناك «لازالة آثارالعدوان» نضبب افق الحلول الاخرى ،وتشكك بقدرة كل المناضلين، وتتخوف من الشيوعيين داخل وخارج فلسطين المحتلة .. وتحاول ان تطمس معالم الثورة الفلسطينية والنضال في منطقة الشرق الاوسط، كجزء من النضال العالمي التحرري ، وكموقف ثوري ضد قاعدة من قواعد الامبريالية العالمية ..

ان شعر المقاومة في الارض المحتلة ، قد استوعب هذه الابعاد، وعبر عنها ــ بالصورة والكلمة ــ وهو غير ملزم بان يطرح ــ عبر الشعر ــ مقالة سياسية .. لكنه يطرح هدفا سياسيا بصيغة شعرية..

في الشعر ، كما في النثر . وكما في معارك الكفاح المسلح . لا يمكن ابعاد روح التضحية والفداء وفصلها عن التلاحم الثوري بين قوى الثورة على ارضها العربية ،وبين قوى الثورة العالمية ، جميعا .

والشعر الفدائي الثوري ،حيث يكون الشعر كأداة تغيير قد ارتبط عبر شعر وشعراء الارض المحتلة والشعراء العرب الثوريين . في كل مكان .. بالقضية الفلسطينية ، آنيا . ليوسع ابعاد التحرك من خلال ابعاد التناول وآنيته ..

لذا فان عقلية التشكك بشعراء الارض المحتلة ، هي عقلية تقف مع اليمين . وتنطلق من مواقع مغازلة عناصر الانتهازية الفكرية ، والمتاجرة بالفكر التقدمي لافراغه من محتواه الثوري ..

وهذه الازدواجية ، ستسقط عند هوامش امجاد شعراء الارض المحتلة ، ان لم تكن سقطت منذ حين ، ان هذه الازدواجية ، تسقط.. بسبب كون الناقد الذي لا يناقش فنية القصيدة الشعرية ،ومحتواها وعوامل التطور في شعر المقاومة العربية ، ولا يناقش ــ دون عطف او عاطفة ــ مدى السيطرة على اللغة ونجاح تناول الحدث الشعري، والوحدة العضوية في القصيدة . ومعطيات القصيدة الفدائية، وتأثيرات التراث والتجديد وحركة الشعر العالمي على بناء القصيدة ، والمدى الذي بلغه شعراء الارض المحتلة تقنيا ، ومدى تأثير كل ذلك في حركة الشعر العربي ــ عموما ــ أخذاً وعطاء .. ثم الشخصية الشعرية وخصوصية الشاعر ، ابعادها ، نضجها ، تاريخيتها ، عصريتها ، فكرها وموقعها الايديولوجي .. الخ ..

هذه الجوانب وغيرها من واجب الناقد الموضوعي المتخصص ان يبحثها لا ان يجزل الثناء لهذا الشاعر او ذاك دون وعي تام لمضامين نتاجه وحركته ضمن مجموع الفكر المقاوم ..

اننا نطلب من الناقد ان يكون صادقا مع نفسه ومع الآخرين ، والا يضفي على نفسه امجادا ثورية هي فوق الحقيقة .. لان ذلك سيؤدي به الى ان يجامل ، على حساب الموضوعية ، هذا النهج او ذاك ..

لذا فحين يؤكد الاستاذ شكري « مجاملا ومسيئا » ــ باعتقادنا ــ في ذات الوقت ، بهذه الصيغة :

« .. وفي حدود هذا المعنى للمقاومة لن نقع في اللبس الذي وقع فيه كثيرون حين اتهموا محمود درويش بالتحلل من الوجدان العربي في دفاعه عن الاكراد ، واتهام سميح القاسم بالذبذبة السياسية في انتمائه ومعارضته للحزب الشيوعي .. » .. نقول : حين يؤكد الاستاذ غالي شكري على هذه الصيغة ، فهو يحاول ان ينفي عنه تهمة الاتهام ، بتأكيدها ..

ومع ذلك لنناقش هذه المسألة .. اذ ماذا يعني دفاع درويش عن الاكراد ؟

ألا يعني تعميق اصالة الوجدان العربي لدى الشاعر .. دفاعه عن القوميات الاخرى ..؟

ثم ان الاكراد شعب عاش معنا ، عبر تاريخ طويل مشترك ، من الافراح والمآسي .. وليس من المصلحة الوطنية ولا القومية ، الا يظل هذا الشعب يرفد شقيقه الشعب العربي بالتضامن الكفاحي على مر السنين ، لكيما تظل وحدة الموقف الانساني والمصير المشترك ، تدفع بالعمل نحو افضل السبل لخلق الاتحاد المتكافيء بين الشعبين ..

وعندنا في العراق ــ مثلا ــ تطرح المسألة الكردية نفسها بشكل ملتهب منذ سنوات ، وهي تواجهنا كمشكلة معقدة ومزمنة ليل نهار .. كما واجهت مشكلة الجنوب الثوار في السودان ..

ونحن نظل الى جانب تمتع الشعب الكردي بكامل حقوقه القومية المشروعة وبضمنها الحكم الذاتي في نطاق الجمهورية العراقية ، كما نظل نعتقد ان الحل الديمقراطي السلمي للمشكلة الكردية ، هو الطريق الاصوب لانهاء الاقتتال بين الاخوة وتفادي التضحيات والخسائر في الاموال والارواح .. وان حل المشكلة الكردية ، سلميا ، سوف يقطع الطريق على القوى الامبريالية والرجعية والعميلة التي تستفيد من اشغال الجيش العراقي من ممارسة دوره القومي ،على جبهات النضال ضد قوى العدوان .. ، كما يجب ، .. من ثم فان حل المشكلة الكردية، يدفع بمساهمة الاشقاء الاكراد في المعركة ضد الامبريالية واسرائيل ، كخطر يهدد استقلال وأمن المنطقة ، ومن أجل تصفية المواقع الاستعمارية، ودعم الانظمة التقدمية ، .. الخ ..

وقد يتوصل مؤتمر وطني لكل القوى الوطنية (الحزبية والمستقلة) عربا واكرادا لحل هذه المشكلة ، وعزل كل القوى الرجعية والمتآمرة التي تحاول الاستفادة من بقاء المشكلة دون حل ..

وهذه المشكلة نواجه عندنا بحلول واجتهادات عديدة ، وقد تواجه بفهم خاطيء لـ « شكل » الحل الذي يحقق الاستقرار والوحدة الوطنية للعراق ، وتحشيد كل القوى العسكرية والشعبية الى المعركة ..

فهل الدفاع عن المسألة الكردية ، او قضايا الافارقة والزنوج ، وكل القوميات والاجناس والديانات لكي يتحقق لها كامل حقوقها المشروعة ، « ضعف في الوجدان العربي » او العكس .. اذ انها تعميق لاصالة هذا الوجدان وتخط للتعصب القومي والنظرة الشوفينية والاقليمية الضيقة ؟..

ثم ان موقف سميح القاسم من الحزب الشيوعي ، هو موقف تنظيمي بحت .. فهل يدان القاسم لانه عارض بعض مسائل الحزب في التاكتيك او الستراتيجية ..؟

كلا .. بالطبع .. ان لم تكن « المعارضة » قد أخذت « شكل » العداء للفكر الانساني ، وهذا ما لم يحدث .. بالتأكيد ..

ومن المعلوم ان الصراع الداخلي في الحزب الثوري ، هو ظاهرة عافية ، والحزب الماركسي ــ اللينيني الذي يخلو من صراع ، هو حزب خامل ، وهذا يعني محدودية فاعليته على ارض الواقع والنضال .. وما دام الحزب الثوري يحاول تطبيق نظريته الثورية على الواقع ، فهو يحتاج الى وعي خاص لاغناء نظريته بالواقع ، والعكس صحيح ..

اذ ان النظرية الماركسية هي « النظرية المستخلصة من الواقع الموضوعي والمعبرة عنه .. » ومن هنا « فلا عمل بلا خطأ .. » والحزب الذي لا تحدث فيه مثل هذه الملاحظات او الاخطاء او الصراع .. يعني انه حزب بلا عمل حقيقي .. وهو وجود غير فعال ، وغير مجد ..

واحيانا قد يتأزم الصراع ، ليس لحد خروج هذا العضو او ذاك ، عن التنظيم بل قد يتفجر الى انقسامات وانشقاقات بسبب مسائل جوهرية .. مع ان هذه الحالة (حالة عدم امكانية استمرار وحدة التنظيم ، ووحدة العمل ، ووحدة الفكر) هي حالة عجز لدى القيادة عن حل التناقضات داخليا ، وتحويل الصراع الى اداة فعالة لتطوير الحزب وتمتين وحدته التنظيمية ، وتطوير قدراته الفكرية ، وتنقية رؤاه الثورية .. الخ .

وارى ، انه ، لتتصارع الاجتهادات حول الموقف من القضية الفلسطينية والعمل الفدائي ، مثلا ، او من اجل شكل ومضمون السلطة في الارض المحتلة ، او من الوجود الصهيوني الاستعماري ككل .. او من ازالة آثار العدوان كبديل لحل ازمة الشرق الاوسط ، او ازالة اسرائيل كوجود صهيوني ـ امبريالي .. او حول هوية العمل الفدائي والايديولوجية التي يجب او لا يجب ان يختطها .. الخ .. الخ .. اني ارى ان دراسة هذه الظاهرة ، سيوصل كل المناضلين الى نتائج ايجابية ، وحلول اكثر موضوعية ، وامانة لعدالة القضية الفلسطينية.. على ان لا يصل الصراع لدرجة تهديد وحدة المنظمة الثورية واضعافها..

ولا اجد ان في موقف سميح القاسم ـ كشيوعي ـ من الحزب ، اي ذبذبة سياسية .. فهو رغم معارضته لم يقف في الصف المعادي للحزب ولا للنظرية ولا لقضية فلسطين العادلة ، بالاساس ، وهذا هو المهم .

وختاما ارى ان هذه المسائل بمجملها لا يمكن ان تخفي حقيقة وجود شعر مقاوم في الارض المحتلة وخارجها .. ومن الضروري الاهتمام به وتطويره ، عبر نقد موضوعي ، وملاحظه دائمة لما ينتج من قبل شعراء الارض المحتلة .. من ثم ترجمته ، ليسهم ، عالميا ، في تعميق قناعة الراي العام العالمي بانسانية وعدالة قضيتنا في فلسطين ..

بغداد — **محمد الجزائري**

هوامش :

(١) و (٢) و (٣) تريستان تزارا : من مواليد رومانيا ١٨٩٦ ، وهو مؤسس الحركة الدادية في الشعر عام ١٩١٦ في زيورخ ، وقد عمل مع السرياليين بعد سنة ١٩٢٨ ، ثم انضم الى الحزب الشوعي الفرنسي مع اراغون وايلوار ـ ابان المقاومة الفرنسية ، توفي في باريس عام ١٩٦٣ ، والترجمة والمقتطفات من دراسة كتبها تزارا نفسه عن الشعر وتجربته ترجمها عن الفرنسية السيد فاضل عباس هادي .. مجلة الشعر ٦٩ العدد الرابع السنة الاولى ص ٤٢ .

(٤) و (٥) ابعاد البطولة في شعر المقاومة العربية : غالي شكري ، مجلة الآداب ـ تموز ١٩٦٩ ص ٢٨ والردود التي تأتي عليها المناقشة هي على هذا الموضوع بالذات الذي عرضته الآداب للمناقشة ، وتأخر ارسالي الموضوع للنشر لاسباب قاهرة ..

(٦) لنا بحث بهذا الصدد هو فصل من كتابنا « مسائل في الادب والانسان » الموجود في بيروت ، الآن ، تحت الطبع ..

(٧) و (١٠) روجيه غارودي : ماركسية القرن العشرين ـ منشورات دار الآداب ص ١٩٠ ـ ١٩١ .

(٨) و (٩) الاضافات من قبلي .

(١١) حين جاء هيجل ـ ومن بعده ماركس، الذي كان في مطلع حياته آنذاك ، فطورا فكرة « التغريب » من الناحية الفلسفية ، فالا : ان بداية تغريب الانسان تنشأ من انفصاله عن الطبيعة عن طريق العمل والانتاج ، ومع ازدياد قدرة الانسان على السيطرة على الطبيعة ، وعلى تحويل العالم المحيط به ، نجده يواجه نفسه كشخص غريب ، اذ يجد نفسه محاطا باشياء هي من نتاج عمله لكنها مع ذلك تتجه الى تخطي حدود سيطرته وتكتسب في ذاتها قوة متزايدة (الاشتراكية والفن : آرنست فيشر ص ١٢٢ ـ عن الغربة) ولنا دراسة مطولة عن « الاغتراب في الادب والحياة » موضوع بحث خاص نحن بصدد نشرها بعد انجازها لاستكمال الفائدة ..

(١٢) كارل ماركس : (العائلة المقدسة) .

(١٣) كارل ماركس : (مخطوطات ١٨٤٤) .

(١٤) راجع مقالاتنا في الآداب اعداد ايلول ١٩٦٧ واذار ونيسان وتموز ١٩٦٧ واذار ١٩٦٩ و « الثقافة الجديدة » العدد الاول ـ بغداد ١٩٦٩ .. وفي كتابنا المشار اليه اعلاه تفاصيل اوفى بهذا الصدد .

تتمة ـ الابحاث

***

من الصعب تصور اليهودي بدون الله . ولا أؤمن بوجود اليهود المثقفين الملحدين . انهم جميعا من طينة واحدة والله وحده يعلم ماذا ينتظر العالم على أيدي هؤلاء اليهود المثقفين ! لقد قرأت وسمعت في طفولتي اسطورة عن اليهود بأنهم الآن ينتظرون المنقذ سواء منهم المعدم او الغني والعالم والفيلسوف والرأسمالي ـ فهو الـذي سيقودهم ثانية الـى اورشليم وعندها يستعبدون جميع الشعوب بسيفهم) .

انه من الخطأ الاعتقاد بامكانية وجود اسرائيل تقدمية او يهود تقدميين . فمن أجل ان يكون اليهودي تقدميا حقيقيا يجب ان يتخلى عن ربه المثالي وميعاده الخرافي الذي يمتد الـى اربعين قرنا ، ولكن اليهودي كما يقول دستويفسكي بدون هذا الرب المثالي لا يمكن تصوره. ومن أجل أن تكون اسرائيل تقدمية يجب الا تكـون هناك اسرائيل او سيطرة لايديولوجية هذه العشيرة العالمية .

ان دستويفسكي بدراسته هذه طرح أمام البشرية قضية هامـة وهي ضرورة تحرير اليهود من يهوديتهم . ولذلك فانني اعتقد في ضوء هذه النظرة ان المهمة التي تواجه كل التقدميين داخل اسرائيل وقبل أي شيء آخر هي السعي لتحرير انفسهم من يهوديتهم التي لا تمتلك أي مبرر حضاري لبقائها ، وبالتالي انتفاء الاساس الـذي ترتكز عليـه اسرائيل الآن : خرافة الاربعين قرنا .

اما المقال الآخر الذي كتبه هوارد رولاند حول (عدم التفاهم بين العرب والاميركان) فهو في الحقيقة ليس اكثر من مجموعة من الملاحظات السريعة ، ذات الطابع الشكلي . فالمستر رولاند يعتقد ان اسباب عدم التفاهم بين الطرفين تكمن في لا مبالاة الامريكيين تجاه العرب ولكون العرب في اميركا اجانب يلفظون جملة We are Arabs بطريقة غريبة ولوجود ستة ملايين يهودي في الولايات المتحدة . وهـو ينصح العرب بعدم الاعتماد على اللغة الشاعرية وضرورة اظهار القوة .

انني مع تقديري البالغ لعواطف المستر رولانـد النبيلة تجـاه القضية العربية أرى أنه تجاهـل القضية الاساسية وهـي سيطرة الايديولوجية الاميركية التي تخطط لها الاحتكارات الامبريالية علـى اذهان قطاع واسع من الرأي العام الاميركـي واستمرار التخديـر الرأسمالي حتى للشغيلة الاميركان . ولذلك فان أي نهوض تقدمي فـي الولايات المتحدة سيكون الى جانب العرب فـي المستقبل . واذا كانت القوى الاميركية التقدمية التي تتظاهر ضد سياسة الولايات المتحدة في فيتنام لم تقف الى جانبنا بعد فان ذلك يؤكد حقيقة ان كفاحنا من أجل قضيتنا لم يبلغ بعد مستوى كفاح الشعب الفيتنامي الذي تحول الـى مأثرة عصرية . ومع ذلك فان القوى المؤيدة للعرب داخـل الولايـات المتحدة تتسع يوما بعد آخر . فقد اعلنت مؤخرا عـدة منظمات طلابية اميركية مساندتها لكفاح الشعب العربي ضـد المحتلين الاسرائيليين ، بالاضافـة الى الصلات الطيبة بين العرب الموجودين في الولاياتالمتحدة وقادة اليسار الجديد . وقد ظهرت هذه الصلات الطيبة بشكل ملحوظ عند انعقاد مؤتمر الطلبة العرب قبل حوالي ثلاثة اشهر في كاليفورنيا .

وهناك خطأ آخر في مقال المستر هوارد رولاند ، فهـو يعتقد ان الاميركان يحتقرون رجال الحكم وقوانهم في سايغون لانهـم لا يقاتلون بشدة مثل ثوار الفيتكونغ ، وهو في نظرته هذه يقدم صورة غير دقيقة منطلقة من ذهنية جيمس بوندية لنضال مئات الالوف مـن الاميركيين الذين انتصروا لقضية الحرية في فيتنام ضد تدخل وجرائـم الولايات المتحدة هناك . ان الشعب الاميركي عندما يحتقر طغمة سايغون انمـا يحتقر العمالة المكشوفة وخيانة الوطن حتى اذا كـان جنود سايغـون محاربين اشداء . ونحن الذين نتابع نمو الحركة الثورية فـي الولايات المتحدة باهتمام بالغ نرى ان الستينات قد احدثت تحولات هامة فـي صفوف الشبيبة والطلبة والزنوج الاميركان . فاليسار الجديد الـذي قد يتحول في غضون فترة قصيرة الى قوة كاسحة يرتبـط اليوم باكثر الافكار ثورية ضد الامبرياليـة والرأسمالية ،وقد اصبحمن القوة بحيث يقلق راحة المستر نيكسون .

ان الشعب الاميركي سيكون قادرا على فهمنا بشكل افضل عندمـا يمتلك السلطة بيديه وينمي السيطرة الرأسمالية والصهيونية علـى أفكاره . الا اننا لسنا مستعدين لتأجيل قضيتنا حتى يحين ذلك اليوم، اذ اننا سوف نسعى وبكل طاقاتنا لتعميق كفاحنـا عسكريا وسياسيا وفكريـا بحيث يستلفت انتباه كل المناضلين من اجل التقدم فيالعالم.

***

يجمع الدراسة او المقدمة التي كتبها الاستاذ صلاح عبـد الصبور عن شعر علي محمود طه بين الانطباعات الشخصية وتدوين بعض الوقائع التأريخية مع عرض سريع وعلى طريقة النقاد القدامى لـ (الاغراض) التي كتب فيها الشاعر . وبسبب التزام الناقد بهذا المنهج الشكلـي في التعامل مع عالم علي محمود طه الشعري فانه أخفق في اعادة تقييم الشاعر وبالتالي كشف الاسس الحضارية والاجتماعية لظهور مثل هذا النمط من الشعر . فالاستاذ عبدالصبور يتساءل ، هـل نستطيـع ان نقول ان علي محمود طه شاعر سلفي تقليدي ؟ ويجيب على هذا السؤال قائلا : انه بلا شك شاعر يعيش في عصره .

ترى هل يمكن ان نقبل حقيقة ان علي محمود طه كان يعيش فـي نفس العصر الذي عاش فيه اندريه بريتون وت. اس. اليوت وجيمس جويس وازرا باوند وكاندفسكي وبيكاسو ؟ العصر الـذي شهد اعمق التحولات الفكرية والادبية والفنية ؟ وهل نعني الكتابة عن بعض القضايا الوطنية ان الشاعر عاش تجربة عصره ؟ ان خطيئة علـي محمود طـه والشعراء الآخرين الذين عاصروه هي أنهم ظلوا أسرى المستوى الثقافي الجماهيري ولم يحاولوا التفتح على ثقافة عصرهم واستلهام الـروح العاصفة التي كانت تحرك الثقافة في العالم . وما زالت الثقافة العربية تشكو حتى اليوم من التأثيرات السيئة التي تركوها في أذهان الجماهير وخاصة فيما يتعلق بالاقتراب الشعري مـن العالم . صحيح ان هؤلاء الشعراء احدثوا بعض التغييرات الشكلية فيالقصيدة ، في الكلمات، في المواضيع الا ان وعيهم للعالم الذي كانوا يعيشون فيه ظل متأخـرا جـدا وفي نفس المستوى العاطفي ، ذي الجذور البدويـة للجمهور . أعتقد انه كان في امكان الاستاذ صلاح عبد الصبور تقديم تقييم كامـل للمجتمع المصري والعربي وحركة الثقافة والشعر فـي الوطن العربـي والعالم وتعيين موقع علي محمود طه الثقافي ودوره الشعري في وسط العاصفة التي كانت تجتاح العالم ومقابلتـه بالشعراء الآخرين الذيـن عاشوا في زمنه ومن ثمتأثيره في الشعراء الذين جاءوا بعده واخيرا الاجابة على هذا السؤال : من الذي يعنيه علي محمود طه الآن ؟

***

اما الدراسة التي قدمها الاستاذ بدر توفيق عن شعر أمل دنقـل (كوميديا القلب المعتم) فهي دراسة تتميز بالاحاطة والخفة فـي ذات الوقت . فهو يكشف لنا عن الوجه الحقيقي لمعظم قصائد هـذا الشاب الذي يعتبره واحدا من افضل الشعراء المصريين الشبان . ولكن رغـم كل هذا التوسع في الكتابة عن الشاعر فان الناقد لم يقل لنا عما اذا كان الوعي الكوميدي للعالم في قصائد أمل دنقل يعنـي شيئا ذا خطورة في الشعر العربي أم لا . كما اننا ما زلنا نتساءل : هل يمتلك أمل دنقل رؤيا فلسفية خاصة به في شعره ؟ ما هي مدى خطورة هـذه الرؤيا ؟ وهل انه أفلح في قصائده ان يقدم صوتا جديدا ذا لغـة شخصية ؟ وكيف يفهم أمل دنقل عملية بناء القصيدة الجديدة والتعامل مع العالم؟

يبدو لي أن أمل دنقل شاعر لا تنقصه النباهة الا انـه مـا زال قاصرا عن فهم الديالكتيك الخاص الذي يتحكم بالقصيدة الجديدة . ان امل دنقل غالبا ما ينقل السرد القصصي الى قصائده بالاضافة الـى التفصيلات النثرية والاوصاف ورسم الجو بصورة تشعرنا اننـا ازاء

شاعر جيد لا يعرف كيف تكتب القصيدة الجديدة . ان هذا النمط من الشعر الذي يتعامل مع العالم ويتناوله بنفس الطريقة النثرية يهبط احيانا الى مستوى النثر الرديء .

***

وفي العدد عدة دراسات اخرى منها دراسة بعنوان (لماذا يبتدىء الشعر ؟) للاستاذ عزيز السيد جاسم وهي دراسة طيبة تنم عن وعي متطور لعلاقة الشاعر بالعالم ، على الرغم من انه كان على الكاتب توسيع هذا الموضوع المهم مع تحديد الامور بصورة اكثر دقة وتنظيما . الا ان المجرى العام للدراسة صائب ويعبر عن مسعى ثقافي في انقاذ الشعر من الابتذال الدعائي . فهو يرى ان الشاعر (يعمد وبحكم حالات غيابية مرهونة برؤى ثاقبة الى نسيان وجود الاشياء والاشخاص) (ولكن هذا الاختيار ليس اختيارا ما ورائيا او فوق العالم ، انه اختيار في العالم. ومهما تكن انفلاقات الشاعر وصبواته الحلمية او التخيلية فهي مربوطة ابدا بالعالم ، بالماضي والحاضر والمستقبل) وهو يعتقد ان تجاوز الشاعر المستمر يتم عن طريق الرفض الكلي للواقع الفاسد وكاستئناف ضد العالم .

وهناك مقالان نقديان آخران عن ديوان (نخلة الله) للزميلين محمد الجزائري وطراد الكبيسي .. وهما يمتازان بالسرعة . ويبدو لي ان الجزائري قد ورط نفسه بخطأ لم يكن ضروريا عندما اقتبس من كارل ماركس تعريفه للاستلاب « Alienation » : بقدر ما يزيد ما عندك ، بقدر ما يتناقض كيانك ــ معتقدا انه يعني الغربة العاطفية الموجودة في نخلة الله ، والا فان سبب غربة حسب الشيخ جعفر متات من التضخم الهائل لرصيده في بنوك العالم .

ان محمد الجزائري راح ضحية بعض المترجمين الذين يعجبهم أحيانا استبدال كلمة الاستلاب بالغربة ، الا انهم يعنون بذلك الفقدان . كما ان المقتبسات العديدة التي اوردها الكاتب عن بيرس وماركس وغارودي بدت كلافتات مجردة لا علاقة لها بالموضوع المكتوب عن حسب الشيخ جعفر .

وبالاضافة الى الدراسة المكتوبة عن مجموعة ديزي الامير القصصية التي لم اقرأها بعد ، ثمة دراسة جادة وواعية بعنوان (البطل والخلاص) كتبها محمد شكري ، الا ان عدم اطلاعي على قصته (العنف على الشاطىء) منعني من متابعة رده على السيد سامي خشبة . ومع ذلك فان الدراسة التي قدمها طريفة وجيدة .

استلفت نظري في العدد نفسه ما كتبه السيد محمود فتحي بعنوان (سرقة أدبية جديدة) وتحت باب (مناقشات) اذ اتهم القاص الشاب احمد خلف الذي يبشر بمستقبل طيب بانه قد سرق فكرة قصة (خوذة لرجل نصف ميت) منه وصاغها صياغة جديدة . ان هذا الاسلوب الرخيص الذي بدأ يلجأ اليه بعض مراهقي الادب من الذين يهمهم تشويه سمعة الآخرين بسهولة يجب أن يوقف ويدان وخاصة بعد حملة التشهير التي استهدفت النيل من نجيب محفوظ عن طريق اتهامه بالسرقة . وقبل ذلك أتهم ارنست همنكواي بانه سرق فكرة (الشيخ والبحر) وقد تناسى هؤلاء حقيقة ان الفكرة التي يمكن تلخيصها بعدة أسطر لا تعني شيئا ذا بال بالنسبة لحركة الادب او الثقافة . أن ما هو مهم في نظرنا هو الشكل الذي تتخذه الفكرة والصياغة التي يقدمها الكاتب بالاضافة الى الوعي العام الذي تضيئه رؤى الكاتب او الشاعر المبدع .

هذا لا يعني أنني اشجع سرقة افكار الآخرين ولكنني لا أريد ان تمر المراهقات الطفولية في الادب بدون ادانة .

بغداد — فاضل العزاوي

ــ تتمة ــ القصص

***

سيكون ناقصا (وربما ظالما) ، وسيضيع عليك كثير مما فيها من براعة وحرارة واصالة .

التجربة القاسية التي تعالجها القصة تجربة العرب كلهم مع اسرائيل ، خساراتهم معها ، نكساتهم ... وما يعقب ذلك من أسى يبلغ حد الانهيار العصبي ثم احاديث متعددة ومتشابهة عن الظواهر والاسباب ، ويصحب ذلك ادانة للمسؤولين وعتاب ولوم للاخرين وللنفس واشياء اخرى من هذا الوادي .

اصبحت التجربة او التجارب من هذا النوع حدثا يوميا في حياة العرب المعاصرين ، نعرف مفرداتها كلنا ، ونعرف أسرارها ، ونتكهن بما سيقع بعدها ، ونستعيدها في كل مجلس وفي كل حين ، ويستطيع حتى الصبيان منا ان يعددوا اكثر من سبب وجيه وحقيقي ، ولكن الفن ان تستل المادة الصالحة للفن القصصي ، وان تعرض هذا الذي تستله من الحدث اليومي عرضا قصصيا ــ والفن ان تدل على عمق التجربة في نفسك ، وتبلغ ذورة من العمق عندما تؤمن بانك سبب في النكسة وان الذين يقدمون ويؤخرون حولك ممن هم في مستوى الوصاية او من هم دون ذلك أسباب في النكسة وان فسروا امرا من الامور على هواهم وافهموا امرا آخر تفهيما ساذجا ــ جهلا او تجاهلا او اي شيء من ذلك.

التقى صابر المنسي مع العدو ــ فيمن التقى ، فانتصر العدو، ولاذ بالفرار وعاد الى قريته ، وكان المفروض ان يفرح بنجاته كما فرحت امه ــ مثلا ، ولكنه لا يريد هذه النجاة ، لانها عار ، وكان عليه ان يموت، بل انه لدى التحقيق قد مات فعلا ، أما الذي بقي له بعد المعركة من حياة فليس حياة، واستحال هذا الموقف شعورا عميقا كئيبا ، واستحال الشعور عقدة : عقدة الموت قبل الموت ، انتشرت في ثنايا نفسه وفكره وعاطفته ووجوده ... « لم تكتب لي العودة لاتحدث عن انتصار عدونا ... » ...

وجمال القصة انها عرضت بلقطات بارعات تكون مع بعضها كلا لا يتجزأ ، وجرت على مذهب المنلوج الداخلي لانها لا يمكن الا ان تجري عليه والا فقدت طعمها وعنفها ووقعها وطراوتها .

بدأ المؤلف قصته بنهاية معركة اشترك فيها بطل القصة ــ ولا تحس بفرق بين بطل القصة والقصاص ، وهذا ما يجب ان يكون في مثل هذا الفن ــ ثم عرض ملامح مما يحس في نفسه من آثار الخسارة ، ثم مناظر من بيته وقد عاد اليه وفيه أمه وزوج أمه واخوته .. ، وعودة الى الحديث عن المعركة أي الهزيمة وملامح اخرى من حالته واسباب الهزيمة الكبرى والصغرى موزعة على فقر مختلفة واحلام والم . وتنتهي بقرار النهج الجديد من أجل النصر ــ ان اردنا نصرا أي ان كنا جادين، ولا بد من ذلك للنصر ولحل العقد ولتحويل الاسى غير المجدي الى عمل مثمر .

لم يسلك المؤلف تسلسلا منطقيا تاريخيا ، لانه ليس مؤرخا ، ولا باحثا في السياسة او الاجتماع ، وانما سار على منطق الحالة النفسية التي يعانيها وهذه لا تستقر على حال من الماضي او الحاضر او المستقبل . واذا كان هذا فنا ، وفنا بارعا في القصص الحديث : النفسي ، فانه يسبب غموضا لمن يريد الاشياء واضحة ، وتعبا لمن يطلب القراءة سهلة ، وجورا في الحكم لمن اعتاد التسرع بالحكم .

عليك ، اذا ، ان تصبر وانت تقرأ « موت الرجل الذي سبق موته » ، وتصبر وانت تعيد قراءتها باحثا وراء السطور وغائصا على ما ضمته الحروف ، ولا باس في ان تخرج من قراءتك الثانية ببناء تاريخي جديد ــ صحفي أخباري ان شئت ــ لان ذلك قد يعينك ويعين الآخرين الذين سيقرأونها مرة واحدة او الذين قرأوها ولم يتذوقوها .

وها هي ذي الخلاصة العلمية التقريرية لعشرين فقرة اساسية :

١ ــ صابر منسي عربي .

٢ ـ كان عضوا في مجموعة عربية تدربت علـى السلاح واعـدت نفسها لحرب الصهاينة .
٣ ـ وكانوا على أرض سيناء .
٤ ـ ولمحوا مجموعة من العدو .
٥ ـ فخابوا : ((تراجعنا دون ان نخوض معركة)) .
٦ ـ وبدأوا يصوغون البيان : ((.. وعادت المجموعة الى قواعدها سالمة ... الا واحدا)) .

هذا الواحد هو صابر منسي . لقد هرب وعاد الى بيته حيث أمه وزوج امه ... فظنوا انه استشهد فعدلوا صياغة البيان ((وشطبـوا واحدا)) وكتبوا الا شهيدا هو البطل .. ((صابر المنسي)).

٧ ـ والخبر غير صحيح ـ كما رأينا ـ وهـو مؤلم ، مؤلم جـدا لصابر منسي بخاصة . ومن هنا تبدأ القصة وبيدأ الوتر الحساس .

٨ ـ عاد صابر منسي حيا ، وكان الواجب يقتضي ان يموت لدى لقاء العدو ، واذا فهو لدى نفسه قد مات وانتهى ، وليست هذه المدة التي يعيشها الآن بحياة . انه لا يرتضيها ، وانها لمرة أشد المرارة .

٩ ـ ولما عاد سخر من فرح أمه بنجاته ، ومن فرح الآخرين .

١٠ ـ لقد أصبحت الحالة عقدة ، وللعقدة عدة مظاهر ...

١١ ـ ويستعرض أسباب الخسارة ، وتتوزع الاسباب هنا وهناك ترد مناسبة للحالة النفسية التي هو عليها وللمادة التي يستقر عليهـا فكره الشارد .

وهذه الاسباب هي : أ ـ لم نتدرب على المعارك ... والموت . ب ـ الام .، والاب والاهل ، انهم لم يفهموا القضية ولم يدركوا ابعادها ولم تترك النكسة فيهم أثرا . الام تفرح بسلامة ولدهـا كأن المهم سلامته ، وتلجأ في علاجه الى الرقي وكرامات الاولياء مما لا يقوم علـى المنطق السليم العلمي في المعالجة ، وزوج الام ، لا هم لـه الا لعب الكوتشينة في المقهى ... والناس مشغوفون بتفاهات الحياة اليومية . هـ ـ لدينا أسلحة ولكن لم نحسن استعمالها . و ـ كثرة الشعارات . ن ـ كثـرة الاناشيد . بقي عامة العرب كما هم كأن الامر لا يعنيهم ...

١٢ ـ ثقلت الحالة واشتدت العقدة وتمنى الموت ولم يمت ، واقنع نفسه بقاعدة للموت ـ من انتحار وما اشبه ـ ولكنه لم ينفذ .

١٣ ـ لانه وجد حلا اسلم ونهجا أسمى وأجدى ، وبذلك انتقل الى مرحلة جديدة غذاها خبر انتصار الكرامة فـي الحاضر وانتصار صلاح الدين الايوبي في الغابر : تدريس الموت ...

***

جمعت قصة ((موت الرجل الذي سبق موته)) كثيرا مـن المحاسن الفنية ، فكل فقرة فيها مدروسة وضعت في مكانها بعد ترو وان بـدت وكأنها جاءت عفوا ، والصور منسجمة تمام الانسجام والحالة النفسية التي يعانيها ((البطل)) ولم ترد التعبيرات العنيفـة والصور الحادة والالفاظ ((المقرفة)) مقتسرة مفتعلة منقطعة عمـا حولها نشازا عمـا ترتبط به ، وانما هي ذات دلالة وصلة بالجو الذي اثارها وبالجو الذي يراد بها الى ان تثيره ـ وهي كثيرة ولعلك وقفت عنـد ((معي جثة هاربة)) و ((سجل اللص اعتداءنا على انفسنا باسمه))و((نبت طنين تحت جذور شعري)) و ((سباق الانسحاب)) و ((في ساحاتكم يستطيع المرء ان يستعيد صوابه ، ربما يناسب هـذا مـن صنعته مانشتات الصحف في حزيران ، لكنني فقدت حياتـي لا صوابي ((الوحل سد حلقي . انا الآخر انكر صوتي ... أحيانا)) الى مـا هناك مما يثيـر السخط ويدل على السخرية ويبين عمق التجربة وصدق الموقف .

استبطن الكاتب التجربة وتركها تختمر حتى تكتمل ولم يقسرها على الولادة فتاتي (طرحا) وسقطا . ان القارىء ليقتنـع كـل الاقتناع بالاتصال التام بين البطل والكاتب حتـى انه لا يجد دافعا لان يسال ما اذا كانت التجربة قد مرت به ـ فعلا . ولم ؟ وكل كلمة تبعده عن هذا السؤال .

والقصة اذ تنجح هذا النجاح موضوعا وشكلا ، فانهـا تصلح ان تكون تجربة موفقة في النهج القصصي الحديث ـ او الجديد ان شئت، وقلما نجحت قصة فيه . ومن شأن هذا اللون من القصص ان يبدو عليه شيء من الغموض ، وقد وفر كاتب ((موت الرجل الـذي سبق موته)) هذا الشيء دون مبالغة او اغراق ـ وطبيعي ان يكون هذا الغموض ، لان القصة حالة نفسية وليست سردا لحادثة ، ولان الكاتب يغوص فيها بعيدا عن الحدث اليومي ولا يلجـأ اذ يعود مـن سفرته الى لغـة الرياضيات وقواعد المنطق .

انك اذ تقرأ القصـة وتعيد قراءتها تلحظ ضبابا ، او ((تشويشا)) يحول دون ان تحدد ابعادها وتعيد بناء خطتها ـ وهذا جـزء من اسرار هذا الفن .

محاسن القصة كثيرة ولا تاخذ عليها اشياء كثيرة أو مهمة ، وقـد تتمنى لو ان الكاتب قرأها قراءة أخرى ناقدة قبـل ان يرسلها الـى المجلة فلعله يدرك ـ اكثر من غيره ـ هنة هنا وهنة هناك ضمن مفهومه الفني السليم ، ولعله يبدل ـ حينئذ ـ لفظة بلفظـة وجملة بجملة ، ولعلـه يختصر قليلا في فقرة القلعة والمخابرة التلفونية معصلاحالدين، ولعله يجعل الخاتمة اقل وضوحا وتقريرا مما جاءت عليه ليتم اتصالها بمجموع اسلاك القصة منتهيا بالبداية الرائعة .

ان الذي كتب ((موت الرجل الذي سبق موتـه)) قصاص يـدع قارئه يامل في ان يرى له الاشباه والنظائر وما هو ادل على الكمال .

ولنقرأهـا ثالثة فقد نجد فيها رموزا وحلا لما يمكن ان تكونرموزا، والا فمن أجل الالمام بمعانيها وادراك لغتها ...

القصة بقلم محمود حسن العزب .

ـ ٥ ـ

وفي العدد قصة مترجمة ، لا باس بها ، فيها نكهة الطفولة وتدل على مقدرة في المترجم وتطمعنا بالاستزادة .

وكنا نود لو ان المترجم ذكر مصدره واللغة التي ترجم عنها ، وكنا نود لو انه اختار لنا ما هو أعلى من ((أحلام)) ((يوري ناجيبين)) ليكون جهده اجدى وعمله انفع .

ذكرت الآداب ان القصة ترجمة رضوان ابراهيم .

بغداد ـ كلية الآداب — **علي جواد الطاهر**



السرقة الادبية المزعومة

بقلم احمد خلف

***

قرأت في عدد ديسمبر من مجلة « الآداب » القراء اتهاما وجهه لقصتي (خوذة لرجل نصف ميت) شخص ادّعى اني سرقت (مضمونها) وما دامت « الآداب » ملتزمة بفتح باب المناقشة الحرة ، الخالية من الاحقاد الشخصية كما اشار السيد المدّعي فاني اتوجه للمجلة المحترمة بنشر ردي هذا كاملا ، لكي تتوضح الحقيقة لمن تهمه معرفتها ، ثم تعرية الادعياء والمزيفين بغية اغلاق النوافذ امام تلك الجمهرة من المراهقين الذين يحاولون بشتى الطرق تقديم اسمائهم الى العالم ولو على حساب سمعة الاخرين .

واضطرار هذا الشخص الى اتهامي بسرقته على اساس انه قدم لي ذات يوم قصة رجل يعود الى بيته من الحرب ، ومع ان مضمونا كهذا يبدو عموميا وشائعا في معظم قصص الحرب والمقاومة فمن الادب الروسي الحديث عن الحرب العالمية حتى الادب الاميركي والالماني ، الى تجربة الكتاب العرب عن الحرب العربية الاسرائيلية في الاونة الاخيرة ، يقدم القاص نموذجه اذا لم يكن عائدا من الحرب فهو ذاهب اليها ، ولكن تبقى المسالة الجوهرية حيث تكشف مدى عمق الشخصية الانسانية المحاربة التي قدمها القاص .. او النتيجة المنطقية للذهاب او العودة ومدى تاثير الحرب بصورة مباشرة او غير مباشرة ، وذلك بطبيعة الحال يعود الى الوعي الذي يتمتع به القاص ، واصالة رؤياه للعالم والكون وللحرب كظاهرة لا انسانية ..

اما اذا اصر صاحب الادعاء على شهادة من اشهدهم ضدي ، فاني اوافق على شرط ارسال القصة صاحبة الامتياز الشرعي (كما ادعى برسالته) موقعة من قبل المدعي والمدعى عليه ، مع توقيع الشهود الآنفي الذكر ، واقتطاعها من الدفتر الذي قرات فيه بعضا من قصصه مع شخص آخر امتنع السيد فتحي من وضع اسمه بين الشهود وهو الفنان « عباس السماوي » ، اما في حالة عدم وجود التواقيع فتعد القصة ممسوخة عن قصتي المشار اليها (خوذة ...) حيث يمكنه التلاعب بالنص المنشور كما يرغب دون ان يخسر شيئا مهما على الاطلاق .

لقد ورد اسم القاص (حسب‌الله يحيى) من بين من ورد اسمهم، فاقول هامسا باذن السيد فتحي (وعساها تسمع) ترى لماذا لم يفضح حسب‌الله السر الخطير في الندوة التي عقدها ملحق جريدة النور مع ستة قصاصين كان حسب من بينهم وكنت انا ايضا من بين المشتركين بالندوة .. اضف الى هذا ان (خوذة لرجل نصف ميت) تناولها احد الحضور بالنقد من بين القصص العراقية التي تتحدث عن الحرب !.. أتراه خجلا مني لم يشر الى ذلك ؟ ام ان السيد فتحي وضع الاسماء كما تتطلب رغبته في الاختيار ، واني اتساءل ايضا : لماذا تاخر السيد فتحي بالرد على قصتي المنشورة في العدد السابع حتى العدد الثاني عشر ؟ أي بعد مضي خمسة اعداد من مجلة الآداب .. هل هي الضغينة الشخصية ؟ ام ان صدور الآداب يأتي عبر كل شهر كامل ؟

مع العلم ان تناول الاستاذين الفاضلين (سامي خشبة ومحمد دكروب) للقصة وعرضها بشكل واف ، بحيث يستطيع السيد فتحي التعرف على مضمونها لو كان من بنات افكاره ، وما دامت القصة مسروقة (كما ادعى) المضمون • ومرة اخرى اسأل : ما السبب الذي دفع بالسيد المذكور لاتهامي دون ارسال قصته للاداب ..؟ لكي تطلع عليها هيئة التحرير والقراء ، هل هو خوف دفين حذره من ذلك ام لسبب لا يعلمه الا الراسخون بعلم الغيب ..!

ولو كان فعل ذلك حقا لساعدنا على تشخيص لصوص الادب ولوفر المزيد من الوقت .. مع ان موضوع اللحظة الذي فرضته النكسة لا يتعدى هذا النوع من المضامين العمومية (بين ذهاب الجندي او عودته من والى الحرب .. وهو يحمل النتائج المباشرة واللامباشرة للقضية) والاكثر من هذا ان الفكرة الرئيسية مستوحاة من عودة شقيقي (واني لاجدني مضطرا لطرح هذه الحقيقة اخيرا) الذي ذهب الى الجبهة الشرقية ، وعاد منها مشوها بسبب قنابل العدوان التي ضربت معسكر الزرقاء في الاردن في السابع من حزيران ١٩٦٧ .

اما بالنسبة للتداخل الزمني فذلك هو منهجي القصصي الذي اتبعته في اغلب قصصي ، فقد نشرت قصتي (الانحدار والقاموس) في مجلة (الكلمة) العراقية وقصة (رجل عبر الممرات) في مجلة (الف باء) العراقية ايضا ..

لقد أردت ان اقول في قصتي (خوذة لرجل ..) ما ملخصه : ان الانسان من الممكن ان يظل مقاتلا حتى ولو دمرته قذائف الاعداء ، وذلك باستخدام شتى الوسائل ، كما اتبعها (سلمان) بطل قصتي في استخدامه المسدس وذلك بتحطيمه لزمنه المتمثل في الساعة الجدارية وليس الخروج الى الشوارع كما جاء في رسالة المدعي ذلك لان اقرب الاشخاص اليه (زوجته) اتخذ موقفا مضادا منه .

ويبدو ان اطراء الاستاذين (سامي خشبه ومحمد دكروب) للقصة والاشادة بنوعيتها الواعية هو الدافع الاساسي الذي اغاظ السيد محمود فتحي وفجر حقده ضدي وذلك ما دفعه لكتابة الاتهام ..

وثمة ملاحظة اخيرة : اوجهها الى السيد المدعي هي : لماذا لم ينشر اتهامه في مجلة الف باء العراقية ما دامت قد نشرت فيها .. اذا لم تكن دوافعه هي بروز اسمه على حساب سمعة الاخرين .. اضف الى ان الشهود متوفرون في العراق ؟

بغداد — احمد خلف

لبنان

قضية مصادرة كتاب

***

عاشت الاوساط الثقافية هذا الشهر قضية هامة من قضايا الفكر ، هي مصادرة كتاب الدكتور صادق جلال العظم « نقد الفكر الديني » وصدر قرار بابعاد مؤلفه عن لبنان بتهمة اثارة النعرات الطائفية .

وقد دعا النادي الثقافي العربي في بيروت الى اجتماع حضره عدد من المفكرين اللبنانيين ووقعوا فيه على بيان باستنكار مصادرة الكتاب وقرار ابعاد المؤلف .

وتناولت الصحف هذه القضية بالمناقشة، فنشرت مقالات مختلفة كانت تتراوح بين تأييد حرية الفكر والرد على مضامين الكتاب .

ولا بد لنا ، في هذه القضية ، من تمييز امرين ، اولهما مبدأ دعم حرية الفكر والثاني ملابسات الموضوع.

ونحن مع مبدأ حرية الفكر الى ابعد الحدود ،فحرية الفكر هي ضمان كرامتنا ومجال نشاطنا الوحيد . واذا كان الدستور اللبناني يضمن هذه الحرية ، فتلك حسنة تحسب له ، وان لم يكن يضمنها فهذه سيئة تسجل عليه . والواقع ان مصادرة الكتب ، ومحاولة مصادرة مؤلفيها احيانا ، دليل على ان هذه الديموقراطية التي يتبجح بها لبنان هي ديموقراطية زائفة ودعوى باطلة .

واما ملابسات الموضوع ، فتقضي تسجيل بعض التحفظات . ومنها ان كتاب ـ نقد الفكر الديني » يستحق المناقشة ، وان مجال القول في آراء مؤلفه ونظرياته ذو سعة. وسوف تنشر « الآداب » في اعدادها القادمة مناقشة لتلك الآراء والنظريات .

ومن هذه التحفظات ان الاوساط التي تبنت الكتاب واخذت جانب الدفاع عنه ،ومنها اوساط جريدة« النهار » لم يسبق أن تبنت كتبا اخرى صدر قرار بمصادرتها وبطرد مؤلفيها من لبنان . مما يدل على ان المسألة عندها ليست مسألة مبدأ ، وانما هي مسألة شخص بعينه . واذا ذكرنا ان آراء الدكتور صادق جلال العظم تكشف عن انه معاد اشد العداء لثورة ٢٣ يوليو ، كما يتبين من المقال الذي نشرته مجلة « مواقف » في عددها الاخير ، وناقشه الاستاذ مطاع صفدي في هذا العدد من « الآداب » ، ادركنا لماذا تتبنى اوساط « النهار » هذا الكاتب بالذات ، دون سواه ممن صودرت كتبهم او اضطهدوا في حرياتهم .

ومن هذه التحفظات ان هناك محاولات لتسجيل اسم المؤلف الدكتور العظم على سجل الثورة الفلسطينية ولتحريض هذه الثورة على تبنيه وحمايته ، بحجة انه يعتبرها القوة الثورية الوحيدة المرصودة لقيادة الشعب العربي في معركته المصيرية . وهذه محاولة مشبوهة لشق الثورة الفلسطينية عن الثورة العربية عامة في سائر اقطارها ومختلف ابعادها ، وهي استغلال للثورة الفلسطينية يجب التصدّي لفضحه ، خاصة وان الذين يلجأون اليه لا يؤمنون حقا بالثورة الفلسطينية ، كما ثبت من موقفهم من ازمة الفدائيين الاخيرة في لبنان ، اذ انهم ينكرون الوجود الفدائي في هذا البلد ويستنكرونه. ولسنا ندري كيف يمكن ان يؤمنوا بالثورة الفلسطينية بعد ذلك !

ومن هذه التحفظات اخيرا تساؤل يراود الاذهان عن التوقيت في اثارة هذه القضية .

فمن المؤسف ان يكون المؤلف قد استجاب لرغبة جريدة « النهار » في استغلاله ، من غير ان يتنبه الى ان ابرازه كمفكر ماركسي ملحد لم تكن غايته تمجيد فكره بقدر ما كانت الرغبة في اثارة معركة ضد الماركسية والشيوعيين وبتحريض عناصر كثيرة من الشعب العربي هي شديدة الايمان والتدين وذلك للقيام بمعركة جانبية غير ذات جدوى ، بل هي ضارة في هذه الفترة بالذات من تاريخ النضال العربي المتجه الى توحيد القوى في معركة مشتركة يتعلق بها مصير العرب جميعا .

س ١٠

فلسطين

مؤامرة حصار ....

***

كتب الشاعر محمود درويش في العدد الثامن ١٩٦٩ من مجلة « الجديد » مقالا بعنوان « الحصار » تساءل فيه بقوله : هل يعرف القارىء العبري شيئا عن حركة الادب العربي في اسرائيل ،هذه الحركة التي استطاعت ان « تثير اهتماما واسعا بها في العالم العربي كله، وتمكنت من التسلل الى اوساط غير ضيقة من قراء اللغات الاجنبية ؟ »

واجاب الشاعر على هذا التساؤل بقوله :

انا نلاحظ في المدة الاخيرة اهتماما واضحا بالنماذج الانتقادية من الادب العربي الحديث ،في البلدان العربية ، وخاصة في الجمهورية العربية المتحدة ولبنان . يكتبون هنا ، بفزارة ، عن تأثير الخامس من حزيران على الادب العربي . يكتبون عن غربة الانسان الفلسطيني

عند ذوي القربى. يكتبون عن الارهاب الفكري الذي يتعرض له الادباء العرب الشباب . ويكتبون ابحاثا طويلة عن تيارات الشعر العربي المعاصر وغيرها من القضايا الفكرية والادبية الهامة .

يكتبون كل ذلك ، ويترجمون . ولا شيء عن وجود حركة ادبية عربية في اسرائيل ، في الوقت الذي صارت تشكل فيه هذه الحركة رافدا عزيزا من روافد الادب العربي المعاصر .

لماذا ؟ ان ظاهرة التجاهل التام لهذه الحركة لا يمكن ان تكون ناجمة عن الصدفة او الاهمال البريء . أو .. لا يمكن ان تكون موقفا نقديا على اعتبار ان هذا الادب لا يقف في مستوى النقد وغير جدير بالملاحظة .

لماذا اذن ؟ قد يكون مضمون هذا الادب وطابعه هو الاجابة المباشرة على هذا السؤال . واذا ادركنا ان موجة الاهتمام الاسرائيلي بالادب الانتقادي في العالم العربي تحركها دوافع سياسية لادانة الانظمة العربية ، بدليل نوعية الاختيار والرتب العسكرية العالية التي يمارس الان اصحابها في اسرائيل لعبة الاهتمام بالادب العربي المعاصر ، ادركنا على الفور ان هؤلاء الخبراء بعيدون عن التمتع بالنزاهة الاكاديمية ، وادركنا ايضا ان ممارستهم الاهتمام بحركة الادب العربي في اسرائيل تضعهم في موقف حرج لانه يدين الواقع الذي انبت هذه الحركة ويدين ، بعنف ، السياسة التي يتباهى بها هؤلاء الخبراء .

ان جوهر الادب العربي في اسرائيل هو الرفض والادانة . وتقديم هذا الادب الى القارىء العبري يضع امامه صورة مغايرة لما الفه .فقد ألف القول ان العرب في اسرائيل يعيشون فيما يشبه جنان الخلد، وان الحديث عن اضطهاد وتمييز يتعرضون له ليس الا ضربا من ضروب الدعاية العربية المعادية .

ولا يريد هؤلاء الخبراء في الاستشراق ايضا ان يعلنوا الرابطة العميقة بين حركة الادب العربي هنا وبين حركة الادب العربي المعاصر ، لان هذا الاعلان يؤكد الانتماء القومي للعرب فياسرائيل.

نخلص من ظاهرة هذا التجاهل التام الى وجود حصار غيرمعلن على حركتنا الادبية الصارخة ، يضعها بعيدا عن مسامع اليهود، للحيلولة دون ترك اي تأثير اخلاقي على الرأي العام اليهودي ،ويدفعها الى الاحساس بالعزلة والغربة والكفر بامكانية التفاعل. اننا نخاطب جمهورا لا يفهمنا . ونجري حوارا ضائعا .

ويزيد هذا الحصار خطورة الموقف غير الطبيعي لكتاب يهود يحلولهم ان يعلنوا التقدمية والانسانية . ان هؤلاء الادباء الذين يميز ادبهم بالروح الانسانية ورفض الجو العسكري الشائع في هذه البلاد، لم يفكروا حتى الان باجراء اي شكل من اشكال الحوار الايجابي مع الادباء العرب . تصبح المسالة معيبة الى حد ما عندما ندرك انهم لا يعرفون شيئا عن وجود حركة ادبية عربية هنا . لقد كنت اشعر بالحرج الشديد أثناء لقائي بمختلف الادباء الاوروبيين ، في عدة مناسبات في اوروبا ، عندما كانوا يسألونني عن تفاعل ادبنا بالادب العبري الحديث ، وعن التأثير المتبادل بين هذين الادبين، وعن عملنا المشترك . كان جوابي دائما : لا أحد يعرفنا !. واذا جرى حوار ما ، وهو نادر ، فانه يكون حوارا بين ضدين .

أين هم ؟ اين هؤلاء الادباء الغاضبون ؟ اني لا اتحدث هنا عن التضامن وعن مسؤوليتهم عن اطلاق صرخة احتجاج على ما يتعرض له زملاؤهم في هذه البلاد الصغيرة . اني اطالب هنا بمجرد التعارف واللقاء واجراء حوار نستمع فيه الى بعضنا البعض . ان صرخة كاذبة او صادقة يطلقها اديب مغمور او معروف في اقصى الارض تثير ضمائر هؤلاء الادباء وحساسيتهم المفرطة دفاعا عن حرية الكلمة . اما ان يوضع شعب كامل في حصار ، وان تطمس صرخات ادبائه ،فتلك مسالة اخرى ..

واذا حظيت حركتنا الادبية بلفتة صحفية عابرة ، فانالتزييف الرخيص يطغى على هذه اللفتة :

يصورون ادباءنا التقدميين بانهم مجموعة من حملة الشعارات المعادية لليهود . اما الادب العربي الحقيقي في اسرائيل ، فهو «الادب الايجابي » الذي يصور حركة البناء الواسعة التي اجتاحت القرى العربية .. وكيفية انتقال المجتمع العربي في اسرائيل من البداوة الى الحضارة .. وهو ذلك الادب الذي لا ينسى البكاء امام شباك الحبيبة ... وعلى ضوء القمر النعسان . وحين لا يجدون معبرين حقيقيين عن هذا الادب الوهمي ، لا بأس من اختراع اسماء لا يسمع بها حتى القارىء العربي هنا ، ويقدمونها الى القارىء العبري ممثلة عن الشعر العربي في اسرائل ، كما فعلت صحيفة « معريب » في سلسلة مقالات عن شعراء عرب لم نسمع بهم ،مما عزز الاعتقاد الساخر الشائع عند العديد من المثقفين اليهود وهو : ان كل شاب عربي انهى دراسته الثانوية يكتب شعرا !.

(محمود درويش)

ج.ع.م.

من مراسل الآداب سامي خشبه
ثقافة الستينات : القومية والحرية !؟

كانت تلك هي الستينات الممزقة . وكان ذلك العام المنقضي هو آخرها . ولكن أيضا شأن كل نهاية ـ قد وضع اقدامنا ، اووضعنا نحن أقدامنا من خلاله على بداية العقد الجديد المليء بالتوقعات والاحتمالات الكبيرة : السبعينات الطموح والحبلى بالتحديات والتحققات الكثار .

بدأت الستينات وقد اصبح ترابنا الوطني حرا حرية كاملة ، وانتهى العقد وقد بعثت قضية تحررنا الوطني من جديد وفيظروف مختلفة كل الاختلاف ،اذ نخوض معركة تحررنا الوطني الجديدة

تحت قيادة وطنية حقيقية وباقتصاد قومي مستقل وموجه ، فترتبط معركة التحرر الوطني اشد الارتباط بقضية تحررنا الاجتماعي الذي كان قد بدأ بالفعل في غضون تلك السنوات المعقدة .

بدات الستينات ، وقد بلغ جيل العقدين السابقين ذروة نضجه، وفي خضمها بلغ ايضا ازمته . وفي ثنايا العقد نفسه صدرت عن جيل العقد القادم اولى صرخات الميلاد ، ونال ايضا اولى الضربات على الظهر العريان .

ولكننا كما يقول ريجي دوريه ((لا يمكن ان نكون معاصرين تماما لزماننا الحاضر . فالتاريخ يتقدم مقنعا : يدخل الفصل الجديد بقناع الفصل السابق)) . واذا كان هذا صحيحا بالنسبة لمن يعيشون التاريخ في صورة احقاب برمتها ، فلا بد ان يكون اكثر صحة بالنسبة لمن يعيشون تلك الاحقاب في سنوات معدودة يختزلون اليها بعملهم ومطامحهم عصور التطور المتطاولة . واذا كانت وظيفة الثوريين هي ازاحة قناع الماضي وبقية جلده الميت عن وجهه الحاضر الحي ليشكلوها بما يتفق وقسمات المستقبل ، فقد كانت وظيفتنا شاقة حقا : كان علينا ان نزيح اقنعة كثيرة دبغت جلودها الميتة على وجوهنا الحية لطول بقائها .

كانت وظيفة مثقفينا الثوريين في ظل اول عقد ـ حر ـ حرية كاملة يعيشه شعبنا بعد ثلاثين جيلا من الاستعباد والقهر والتزييف الحضاري والتجهيل بالخرافة والنقل والافقار الاقتصادي والعقلي واذلال الارواح : كان على هؤلاء المثقفين ان يعيدوا اكتشاف حقيقتنا القومية ، وفي الوقت نفسه ان يبشروا بيننا بقيمة الانسان من حيث هو انسان وان يحذروا مع ذلك الوقوع في شرك التعصب القومي من ناحية ومن هاوية تحقير الذات من ناحية اخرى ، وكان عليهم ان يبشروا بقيمة الحرية الفردية والفكرية التي لم نكن في كامل وعينا حين اشتعلت ثورتها على الجانب الاخر من البحر في الشمال ، وفي الوقت نفسه كان عليهم ان يلتزموا وان يبشروا بضرورة التماسك الاجتماعي والصلابة الفكرية وان يحذروا رغم ذلك من الوقوع في محاذير التسيب او الجمود دون تراث قومي من تقاليد يستندون اليها لتبرير تحررهم او لدعم صلابتهم ، وكان عليهم ان يبشروا بقدرة الانسان على صنع مصيره في الارض وحقه في صنع ذلك المصير ، ولكنهم في الوقت نفسه كانوا يحملون قيودا ورثوها من التاريخ وصنعها لهم الحاضر تحاول ان تكذب تلك القدرة وذلك الحق .

ان نظرة واحدة عميقة الى كل التاريخ الممتد وراء ذلك العقد المنتهي لتدلنا على جسامة المهام التي القيت على عاتق المثقفين العرب في مصر . فمثلما تخلف مجتمعنا عن عصر الكشوف الجغرافية وعصر البخار والانقلاب الصناعي والانتاج الواسع وفاجاه عصر الكهرباء والالكترونيات والثورة التكنولوجية وهو ما يزال يجاهد للتخلص من بقايا العلاقات الاقطاعية ، كذلك تخلف مجتمعنا عن عصر الثورة الانسانية والاصلاح الديني وعصر التنوير وعصر التفكير العلمي والفلسفة التجريبية واقامة الدول القومية والعلمانية وانتشار التعليم والديموقراطية السياسية ، وتخلف عن عصر الحرية الفكرية وسيادة الانسان وعصر الفلسفة العلمية والتنظيم الاجتماعي الواسع التخصص للعمل والبحث النظري والتطبيقي ، وفاجاه عصر العقول الالكترونية وغزو الفضاء وانتصار الثورة الاشتراكية على النطاق العالمي وسيادة مناهج البحث العلمية (الجدلية والفينومينولوجية والبنيوية) وهو ما يزال يحجل في قيود الامية التعليمية والعقلية والفكر الغيبي والخرافة . فاجانا التحرر السياسي بمهام جسام تتلخص في ضرورة عبور تلك الفجوة الهائلة التي تفصلنا عن الانسانية المتقدمة وبسرعة بالغة الا فلن يكون مصيرنا افضل من مصير قرطاجة او قبائل الانكا البائدة !.

كان لدينا عشرات من الكتاب والصحفيين ، وعدة من دور النشر والاعلام ، وثلاث او اربع جامعات . ولكن افضل كتابنا لم يكونوا يبيعون من افضل كتبهم اكثر من خمسة آلاف نسخة ، واوسع صحفنا انتشارا لم تكن توزع أكثر من مائة الف نسخة ،وتسعون بالمائة من شعبنا لم يكونوا قد دخلوا السينما من قبل ، ولم يكونوا يعرفون ماذا تعنيه كلمة ((مسرح)) ، وغالب الظن ان عيونهم لم تكن وقعت على مصباح كهربائي من قبل ، ولم تكن آذانهم قد التقت بصوت صادر عن جهاز للراديو .

ونظرة واحدة عميقة الى التاريخ الممتد قبل الستينات تدلنا على حقيقتين اساسيتين :

اولاهما : ان حقيقتنا القومية كانت قد طمست ولم تسمح لها الظروف التاريخية في ظل الشراكسة والمغول والاتراك بان تتضح وتنضج وتتبلور في آداب وفلسفات ومؤسسات ثقافية وتراث فكري وعلمي مكتوب بلغتنا القومية ، لكي تسمح لشخصيتنا القومية بالتحدد والتميز والنضج، ولكي تسمح لعقليتنا بالنمو الانساني الطبيعي من خلال مواجهة التحديات وتجاوزها واختزان خبراتها في صورة ((عقلية)) ونقدية ، وليس في صورة غريزية وتلقائية مشوشة وغيبية .

وثانيتهما : اننا لم نحصل على تراث من تقاليد الصراع الاجتماعي والفكري الحر نتيجة لطول السيطرة السياسية والعقلية التي فرضتها علينا قوى اجنبية متبربرة وغير حضارية ، فكان ان تحولت اكثر موضوعات الفكر والواقع تحديا للعقل الانساني الى ((محرمات)) ممنوع على عقولنا ان تقترب منها ، وكانت اهم هذه الموضوعات هي الدين والحرية والجنس والعلاقات الاجتماعية المتصلة بالعمل او بالبناء الاسري او بالاوضاع الاقتصادية .

وبالتالي فان المهمتين الاساسيتين اللتين القيتا على عاتق المثقفين المصريين تلخصتا في :

اولا : اعادة اكتشاف حقيقتنا القومية ، واعادة اكتشاف خبراتنا القومية المكتوبة والشفوية لتقييمها ونقدها واستخلاص دروسها، ولتخليصنا من تاثيرها التلقائي والغيبي من ناحية ،وفي الوقت ذاته لابراز ملامحنا القومية والانسانية والتقدمية والتاكيد عليها من ناحية اخرى .

ثانيا : تاسيس وارساء تقاليد الحرية الفكرية ، واقتحام موضوعات الفكر والواقع ، التقليدية وغير التقليدية ، التي سبق درسها وتلك التي كانت محرمة او ((تابو)) بتاثير التقاليد القديمة،بهدف تحرير طاقاتنا العقلية والروحية من اسر الفكر الغيبي وتراث التقاليد الفكرية المعادية للحرية وللانسان ـ هذه التقاليد الغريبة عن تراثنا الاصيل والتي فرضتها علينا ارستقراطية اجنبية اقطاعية وعسكرية ومعادية للحضارة والعلم ، جاءتنا اواسط آسيا وحكمتنا طوال الف سنة .

ولكن الستينات جاءت تحمل معها تحدياتها السياسية والاجتماعية الخطيرة ، التي بدأت بازمة العلاقات مع اليسار القومي وهي الازمة التي انعكست على الصعيد الفكري التحرري كله بتاثير سلبي واضح ، ثم جاءت ازمة الانفصال فكانت تلك الضربة القوية التي نالها ((الشعور)) القومي الغض والجديد ، سببا في انتكاس او تاجيل الوفاء بالمهمة الاولى . اما المهمة الثانية . وهي الاصعب والاكثر خطورة ـ فقد واجهت تحديات تنبع من الداخل ، من القوى الاجتماعية والفكرية نفسها التي يرتبط وجودها وتاثيرها باستمرار التخلف الفكري ، وباستمرار السطحية والامية العقليتين ، وباستمرار سيادة الفكر الغيبي والجهل والخرافة ، وباستمرار سيادة التقاليد المنافية للحرية الفكرية وللصراع الفكري الحر ، ولخلق تيار تقدي قوي ومؤثر .

لقدحلت أزمة الانتماء القومي بعد الانفصال نتيجة لاصرار

القيادة السياسية على موقعها الفكري السياسي ، وليس نتيجة للجهود الثقافية .

ولكن مشكلة الافتقار الى الحرية الفكرية والوضوح الايديولوجي في بداية تحررنا السياسي والاجتماعي الجديد ،تسببت في ارتباك المثقفين الثوريين امام مهامهم التحررية في مجالات الفكر والبحث النظري والابداع الفني ، كما تسبب العاملان ذاتهما في اتاحة الفرصة امام عناصر معادية للحرية الفكرية والعقلية وللفكر النقدي والثقافة الانسانية لكي تتصور مؤسسات ثقافية وفنية قومية ، تتحدث من فوق منابرها باسم الثورة والتحرر وبشعاراتهما ، بينما هي في التطبيق العملي تقف ضد كل ما من شأنه ان يدفع بموجة التحرر الفكري والعقلي والثقافي حتى الى بداية متواضعة .

* * *

اننا نعيش في عصر لا تستطيع فيه الثقافة ان تنفصل عن الواقع واصبح فيه من الواضح ان مادة الفكر وموضوعه هما الحياةالانسانية، سواء جاء هذا الفكر في صورة فلسفة نظرية او بحث دراسي او ابداع فني . كما اننا نعيش في عصر اصبح فيه « نقد الحياة الانسانية » هو المهمة الاولى للفكر • وحتى الفكر الرياضي ـ في ميدان الرياضيات البحتة العليا ـ لا يستطيع ان يعيش دون ان يحدد هدفه التطبيقي سلفا في مجال من مجالات العمل الاجتماعي للانسان. ولذلك لم يكن غريبا ان ينشغل الجانب الاعظم من انتاجنا الفكري والثقافي في الستينات بنقد حياتنا الاجتماعية من زوايامختلفة. الا ان ازمة الشعور بالانتماء القومي من ناحية ، وازمة الحرية والوضوح الايديولوجي من ناحية اخرى وضعت المثقفين المصريين في مواجهة ازمة فريدة من ازمات الضمير الانساني انعكست علىشتى صنوف التعبير الادبي والفني، وبخاصة في الفنون الادبية (الرواية والمسرحية والشعر والقصة) التي انتجها في الستينات جيل العقدين السابقين . اما السينما فقد تجسدت الازمة فيها بصورةسلبية حينما غرقت حتى الاذنين في أنتاج ما يمكن ان نسميه بفنون الغيبوبة العقلية والتسلية الهابطة مع استثناءات قليلة كان اكثرها من عمل فنانين شبان (1) ومع ازدهار ظاهرة النقد السينمائي الادبي على أيدي كتاب شبان ، أما الفنون التشكيلية فقداستطاعت لاعتبارات خاصة بادواتها التعبيرية المجردة ، وبتخصص جمهورها المثقف ، استطاعت ان تتجاوز الازمة بالانتاج والمعارض ذات الاتجاهات المتعددة والمستويات الرفيعة ، ولكن ضيق مجال جمهورها نفسه انما يعبر عن ازمة حقيقية ، اما الفنون الموسيقية فقد سايرت الازمة مسايرة كاملة لكي تعبر عن وظيفتها المثالية في حياتنا الفنية ، وظيفة التطريب والتسرية عن النفوس المحزونة ، سواء طلبت هذه النفوس تسرية رخيصة وعابرة ، أو متعة راقية دون تفكير . بل لقد فرضت وظيفة التسرية نفسها على الاغنية الوطنية ، وفرضت عادة تحويل الاكتشاف الى « تقليعة » نفسها على الاغنية الشعبية ، واحتكرت القاهرة ـ او قلة من جمهور القاهرة المثقف ـ احتكرتحفلات الاوركسترا السيمفوني ولكن الاضافة الايجابية في مجال الموسيقى تتمثل في انشاء فرقة الموسيقى العربية التي يشرف عليها اثنان من فناني العقدين السابقين (احمد شفيق ابو عوف وعبدالحليم نويرة) ، وتضاف هذه الفرقة الى رصيد ظاهرة الاهتمام بالتراث الثقافي والفني التي سنعود اليها بعد قليل ، ويجدر بنا ان ننسى غزو ثقافة الغيبوبة العقلية والتسلية الهابطة لعالم المسرح الذي استطاع في منتصف العقد ان يكون منبرا رفيعا من منابر التعبير الحر ، وان ظل خاضعا لظروف ازمة الضمير التي واجهت كتابنا الكبار من ابناء العقدين السابقين . وقد لا نكون مبالغين ان قلنا ان ظاهرة انتشار الفرق المسرحية الخاصة في اواخر الستينات(1) مضافا اليها سبل الانتاج السينمائي الهابط ، واكثر العروض الدرامية في التليفزيون ، انما يعيد الى الاذهان انتاج سينما أثرياء الحرب في سنوات ١٩٤٦ ـ ١٩٥٢ . فهل يعني هذا انمجتمعنا ما زال يضم فئة تريد ان تتسلى على حساب كل قيم الثقافة والفن الانسانيين ، فتنشر بذلك قيمها هي الهابطة ـ الفنية والعقلية ـ بين فئات أخرى من مصلحتها ان تفكر وان تنقد حتى أثناء التسلية ؟

الازمة وسبل الخلاص .

في العقد الاسبق (الخمسينات) كان أكثر ادبائنا ما يزالون يبحثون عن الانتماء الفكري القادر على الاجابة على الاسئلة الكثيرة التي طرحها الواقع عليهم . وكانت اكثر هذه الاسئلة تدور حول التقدم الاجتماعي والحرية . وبدرجة او بأخرى ، انتمى هؤلاء الادباء او تأثروا ـ مع استثناءات قليلة ـ بالمادية العلمية . ولكن هذه الفلسفة النقدية البناءة لم تشكل عند اكثرهم اداةلتفسير الواقع وتغييره ، بقدر ما كانت اداة لخلق عالم عقلي اكثر اكتمالا واشراقا ونقاء في عالم الواقع الذي يعتوره النقص وتجلله القناعة ويعكره الصراع . وعلى العكس من ذلك ، بدأت السلطة الثورية الجديدة من المشاكل الواقعية ، التي طرحت مسألتي التقدم الاجتماعيوالحرية بصورة اكثر عملية وان كانت تفتقر الى التفسير العلمي والى الرؤية الشاملة لحركتها المتقدمة نحو التغيير . وتتلخصالمشكلة هنا في التركيز الكبير على تغيير البناء التحتيللمجتمع ، مع الرغبة في المحافظة تقريبا على البناء الفوقي على ما هو عليه ، او على الاقل ، مع اهمال التخطيط لتغيير البناء الفوقي ـ من قيم وافكار ومعتقدات سائدة بما يتلاءم مع التغيير الذي شرعت السلطة في فرضه ثوريا على البناء التحتي . وحينما اعلنت السلطة الثورية « الاشتراكية » طريقا حتميا لتغيير الواقع الاجتماعي ، ورفضت في الوقت ذاته ـ المادية العلمية كدليل نظري لتوجيه عمليةالتغيير، وتجنبت التصدي للواقع الفكري والعقلي السائد لتغييره ، وما تبع ذلك من تعقد عملية التغيير الاجتماعي وعدم انتظامها ، نشأت ازمة الضمير المزق عند ادبائنا بين التزامهم الايديولوجي بعالمهم العقلي المكتمل والمشرق والنقي ، وبين التزامهم الوطني بالنظام الذي حققه الاستقلال الوطني وحسم قضية الانتماء القومي وبدأ طريق النمو الاجتماعي . وفي الوقت نفسه واجه كل من طرفي الازمة تناقضاته الخاصة المزقة : واجه الالتزام الايديولوجي تمزقاته بين الافكار الشائعة القديمة ، وبين التفسيرات والاضافات الجديدة في الخارج والتأثر بها ، وبين الافكار المجردة او غير الواقعية التي تبناها اليسار في الداخل ، وبين الرغبة في تجاوز مرحلة التأثر للوصول الى مرحلة الخلق والاضافة والعجز عن ذلك تحت وطأة الاحساس بالنفس الاجتماعي وانعدام تأثيرهم الاجتماعي الفعال . اما الالتزام الوطني فقد واجه تمزقاته بين موقف الوسطية الفكرية ظنا من أصحاب هذا الموقف انه الموقف المعبر فكريا عنالحياد السياسي ، وبين الموقف الديموقراطي النقدي الذي يحاول انيتجسد في مواجهة مباشرة مع الواقع ولكنه لا يستطيع هذه المواجهة ،وبين التزام المسايرة والتسليم بصحة كل ما يقدمه الواقع في حركته الجياشة المحملة بكل سمين وغث .

في هذا الاطار العام ، برزت المواقف الفردية لكل كاتب ـ،ونادرا ما نجد مجموعة من الكتاب تمثل مدرسة متكاملة ، وان كان باستطاعتنا النظر اليهم نظرة تجميعية على اساس طريقتهم فيالتعبير عن مواقفهم من الواقع .

(1) مثل أفلام توفيق صالح ، وبعض افلام حسين كمال ويوسف شاهين ، وفيلم شادي عبدالسلام .

(1) بلغ عددها اكثر من عشر فرق في صيف عام ١٩٦٩ ، قدمت جميعها اعمالا هابطة ، وبعضها مقتبس من اعمال هابطة سابقة .

كانت هناك طريقة المواجهة الموضوعية والنقدية : مأساوية ورمزية عند نجيب محفوظ ، وعدمية رائية لآلام الانسانية عند يوسف ادريس ، وتحليلية فوتوغرافية عند نعمان عاشور ، ومتأرجحة بين موضوعية القالب ورمزية المضمون عند سعد وهبه ، وتعبيرية او تجريدية او طبيعية ولكنها زاعقة على الدوام مليئة بالشعارات الصحيحة والابطال الزائفية أو الحقيقية عند ميخائيل رومان ، واجتماعية مباشرة او رمزية عند لطفي الخولي ، متأرجحة بين التسجيل التاريخي والتعليق الشعري عند ابو المعاطى ابو النجا ، مؤكدة على عنف الواقع والقائية عند سليمان فياض .

وكانت هناك طريقة تجاوز الواقع باللجوء الى التاريخ او الادب الشعبي او الخيال العلمي :متجاوزة كل تناقضات الواقع تشعل المعارك الذهنية بين المعاني المجردة عند توفيق الحكيم ، ورامزة الى الواقع بالشعارات العامة وليس بالموضوع عند الشرقاوي (باستثناء مسرحية « جميلة بوحيرد » ورواية « الفلاح ») محلقة في سماء القضايا الواقعية بعد تجريدها ثم تجاهد لربطها بواقعنا التاريخي والعصري عند الفريدفرج، متأرجحة بين التحليل النفسي للعقد الجنسية وبين النقد الفوقائي عند رشاد رشدي ، ومتذبذبة بين البحث عن ميتافيزيقا جديدة وبين النقد الاخلاقي الاجتماعي عند صلاح عبدالصبور ، وناظرة الى الماضي باعتباره مصدرا للعبرة عند نجيب سرور ، أو مصدرا للاصالة اللغز عند شوقي عبدالحكيم ، او دليلا على عدم الاصالة والعجز عنها عند لويس عوض .

ولعلّ ظاهرة ازدهار التأليف للمسرح ان تكون ذات مغزى اجتماعي هام . فقد اتجه الى المسرح كتاب لم يكونوا قد كتبوا سوى القصة القصيرة والرواية والشعر من قبل . كذلك فعل يوسف ادريس ولطفي الخولي وصلاح عبدالصبور وعبدالرحمن الشرقاوي ونجيب سرور وشوقي عبدالحكيم . والف للمسرح احد كبار النقاد وهو الدكتور لويس عوض . وكان الانتاج المسرحي غزيرا بصورة غير عادية. كتب ميخائيل رومان اثنتي عشرة مسرحية ، وكتب سعدالدين وهبه تسع مسرحيات ، وكتب رشاد رشدي ستا ، وكتب شوقي عبد الحكيم ما يقرب من خمس عشرة مسرحية .

ولم يكن الاغراء المادي ، ولا اغراء الظهور الاجتماعي هما السببين الحقيقيين لكل هذه الوفرة . فالحقيقة ان المسرح يستطيع ان يكون اداة صالحة لنقل الافكار لجمهور يريد ان يفكر وان يناقش الفكر. وبالتالي فقد كان المسرح هو اصلح ادوات التعبير الفني لطرح قضايا ازمة الضمير التي عاشها مثقفو العقدين السابقين في الستينات على جمهورهم ،ورصد آثارها على هذا الجمهور وردود فعله ازاءها .

* * *

ولم يكن من الغريب ان يطور النقد ادواته الفكرية والفنية لكي يواجه التطورات التي حدثت في الانواع الادبية ، الابداعية . ولكننا نستطيع ان نقف عند ظاهرتين اساسيتين ، نراهما على علاقة وثيقة بجانبي ازمة الضمير التي استبدت بادبائنا الكبار في الستينات :

اولا : اتجاه النقد الى دراسة التراث والتاريخ وتحديد مواقف جديدة منهما واستخلاص سماتهما الاساسية الممتدة الى عصرنا .نرى ذلك في دراسات الدكتور لويس عوض « على هامش الغفران » ، « مقدمة ابن خلدون » ، « اسطورة اوريست والملاحم العربية » ، «تاريخ الفكر المصري الحديث» ونراه في دراسات رجاء النقاش التي ضمنها كتابه « ادباء معاصرون ودراسته الناقصة عن العقاد ، ونراه في دراسة احمد عباس صالح عن اليمين واليسار في الاسلام ، ونراه في كتابي صلاح عبدالصبور « ماذا يبقى منهم للتاريخ ؟» و« قراءة جديدة في شعرنا القديم » .

ثانيا – التركيز على الجوانب الفكرية للاعمال الفنية والادبية ، يقابله اهمال للجوانب الجمالية والشكلية .

ولقد يبدو من التركيز على التاريخ والتراث ميل من جانب النقد الى حل ازمة الانتماء القومي واعادة اكتشاف جذور ذلك الانتماء ، كما قد يبدو من التركيز على الجوانب الفكرية ميل الى حل ازمة الوضوح الايديولوجي والتعارض بين الالتزام الفكري والالتزام الوطني . ولكن المنجزات الحقيقية في هذه الاعمال النقدية لم تكفل حل الازمتين ، بل على العكس ربما زادت تناقضاتهما تعقيدا . فبينما ينحو د. لويس عوض منحى ارجاع كل ما هو أصيل وتقدمي في التراث والتاريخ الى أصول غير قومية ، وغير عربية بالتحديد ، نرى رجاء النقاش وصلاح عبد الصبور يقفان على الناحية المقابلة ، ولكن من زاويتين مختلفتين : زاوية التحليل العقلي والتفسير الحضاري عند رجاء ، وزاوية الاستناد الى الذوق الشخصي والقيم الذاتية عند صلاح . وبينما يؤكد احمد عباس صالح على الاساس السياسي والحضاري لموقفه النقدي ، نرى غالي شكري يؤكد على الاساس الوجودي والميتافيزيقي الذي يحلله بتحليل سياسي وطبقي للاعمال والاشخاص موضع النقد .

***

من خلال ذلك العرض نستطيع ان نستخلص مجموعة من النتائج :

اولا – لم تتح الظروف التاريخية لجيل العقدين السابقين ان يوفق الى حل ازمة الانتماء القومي لثقافتنا . وربما رجع ذلك الى ضربة الانفصال التي تلقاها حسنا القومي مع بداية العقد ، بالاضافة الى ان ذلك الجيل – او الجيلين في الحقيقة – قد نشأ في جو ثقافي يؤكد الانتماء القومي الاقليمي ، وبالاضافة الى انعدام او ضآلة التأثير الثقافي العميق المتبادل بين المثقفين العرب في اقطارهم المختلفة .

ثانيا – ولم تتح الظروف الاجتماعية والسياسية لذلك الجيل ان يحل ازمة الوضوح الايديولوجي ولا الازمة المترتبة عليها : ازمة التعارض بين الالتزام الايديولوجي الممزق ، والالتزام الوطني غير المحدد . ان طبيعة الوضع التاريخي للمثقفين المصريين هي السبب الاول لهذا الاخفاق باعتبارهم فئة اجتماعية حرمت تاريخيا من النفوذ ومن التأثير الاجتماعي. ولانهم – كأبناء للبورجوازية الصغيرة في معظمهم – قد سعوا غالبا الى اقامة عوالم عقلية مكتملة ومشرقة ونقية يلتزمون بها بدلا من الخوض في تناقضات الواقع واستخدام ثقافتهم في تفسير الواقع ونقده وتغييره. ولا يغرب عن بالنا السبب الثاني لذلك الاخفاق ، وهو عدم الوضوح الايديولوجي من جانب القيادة الوطنية السياسية التي حققت الاستقلال ، واكدت انتماءنا القومي ، وبدأت مرحلة التغيير الاجتماعي ، ثم تجنبت مواجهة قضية تغيير البناء الفوقي ليتلاءم مع التغيير الجديد ، وفضلت المحافظة على البناء الفوقي القديم في مجمله .

ثالثا – ورغم هذا فقد انضج جيل العقدين السابقين في غضون الستينات اشكالا فنية وادبية تصلح اساسا للتطور المقبل في مجالات الابداع الفني المختلفة . ومن المؤكد ان جهود الدارسين الفكريين والنظريين والنقاد قد تصلح دليلا مرشدا لاعمال مقبلة في مجال اكتشاف تاريخنا وواقعنا الاجتماعي والفكري ونقدهما . هناك اعمال ايجابية في هذا الصدد (١) وهناك اعمال قد تفيد ولو بمفهوم المخالفة (٢) أي بمفهوم تحديد السبل غير المفيدة في المستقبل .

رابعا – عن طريق الترجمات الغزيرة ذات المستوى الرفيع في الموضوعات الاساسية للفكر الانساني ، ثم عن طريق مشاركة اساتذة الجامعات في الحياة الثقافية اليومية ، وعن طريق المؤسسات الثقافية المتخصصة (٣) استطعنا بمعونة جيل العقدين السابقين دون جدال – ان نضع اقدامنا على طريق التمثل الصحيح للثقافات الانسانية من زاوية المبادرة الى الخلق والاضافة ، بعد مراحل الاستيعاب والتأثر ورد الفعل التي ينبغي الا نقلل من شأنها اولا ، وينبغي الا نعتقد بوجوب توقفها ثانيا .

---

١ – مثل اعمال احمد بهاء الدين ولطفي الخولي ومحمد عمارة ورفعت السعيد . ٢ – مثل اعمال الدكتور جمال حمدان .

٣ – مثل المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية .

صراع الاجيـال

في بداية الخمسينات اشتبك جيل العقد الاسبق مع الجيل الذي سبقه ، واكد وجوده ، ثم حقق ازدهاره في الستينات حتى اواخرها . وليس من الواقعي في شيء ان نعتقد بأن ظهور جيل جديد يعني الفناء للجيل السابق عليه ، بل ان وطننا يعتبر وطنا نموذجيا في اتاحة الفرصة امام تعايش الاجيال وتهدئة عوامل الفناء للاجيال القديمة ، وكبح لجام عوامل الانسلاخ التي تدفع الاجيال الجديدة . ولم يكن غريبا ان نبـدأ معركة جديدة ـ اقل ثقلا من الناحية الفكرية من معركة بداية الخمسينات، واكثرها غير مسجل او مكتوب مع الاسف ـ بين الجيل الذي انتصر في اوائل العقد الاسبق ، وبين الجيل الذي برز الى الوجود فـي غضون العقد المنتهي .

يمكننا القول بأن هذا الجيل الجديد قد شرع فـي اسماع صوته منذ اوائل العقد ، ومن خلال منابر رسمية يشرف عليها اساتذة مـن ابناء الجيل الاسبق مثل يحيى حقي، والجيل التالي مثل يوسف ادريس. في تلك الفترة الباكرة من العقد سمعنا وقرأنا كلامـا واعمـالا أثارت الاستغراب من كتاب شبان مثل محمد حافظ رجب ، ثم يحيى الطاهـر عبد الله . وكانت « القصة القصيرة » هي ميدان الاشتباك الاول الذي كان اشتباكا « ابيض » دون اتهامات ودون ضحايا .

وظهرت ترجمات عديدة ـ في بيروت خصوصا ـ لكتاب يحملون لواء التجديد الفكري في اتجاهات مختلفة ، وكانت هناك جماعات ادبية وفنية يتجمع فيها الشبان يتعرفون من خلالها علـى « الغاضبين » الانجليز ، والموجة الجديدة الفرنسية ، والواقعية الجديدة الايطالية ، ثم الامريكية ، والنزعة التسجيلية في المانيا ، وشعراء ذوبـان الجليد الروس ، والثورة الثقافية التي حمل عبئها الطلبة والشبان في الصين. وكانت هناك جمعيات فنية مثل، جمعية الفيلم ،او اشبيليه القاهرة، ومقاه مثل « ايزافيتسن » و « ريسن » تشهد الخميرة الجديدة وهـي تتهيأ وتتغذى وتعارك العالم وتتحدى نفسها .. حتـى وقعت النكسة الحضارية عام ١٩٦٧ بعد الهزيمة العسكرية ، التي كانت فـي نظـر الشباب ادانة موجهة الى الاجيال الكبيرة بصورة اساسية .

ولم يكن من الطبيعي ان يقتصر « النقد الذاتي » علـى الكتابات السياسية التي يحتكرها الكبار ، كما لم يكن من الطبيعي أن يقتصر رد الفعل الاجتماعي الشاب على ثرثرات المقاهي او المظاهرات المجهضة ... كان من الطبيعي ان يظهر رد الفعل في الفن والادب .

ولما كانت السينما مشروعا تجاريا ضخما لا يستطيعه الشبان ، فقد اقتصر رد الفعل فيها على بضعة افلام دراسية . واخـرى تسجيلية لا تشكل « موجة جديدة » ، كذلك المسرح فاقتصر الامر فيه على بعض اعمال من جانب الكبار ومن جانب عدد محدود من الكتاب الشبان لـم يستطع اكثرهم ان ينشروا اعمالهم بله ان يصلوا بها الى منصة العرض المسرحي ، ولذلك فقد برز ظهور الجيل الجديد فـي مجالات القصـة القصيرة ثم الشعر ، ثم الرواية ، ثم النقد التطبيقي .

ونستطيع القول بأن الصفحة الادبية لجريدة المساء ، منذ سنـة ١٩٦٦ استطاعت ان تفسح المجال لعدد كبير من كتاب القصة والنقـد الشبان ، وكان ثمة اول ظهورهم كجماعة تبحث عن نفسها فـي استقلال عن الكبـار .

ثم ظهرت مجموعة « مجلة ٦٨ » التي لم يكن يجمعها اكثـر مـن الرغبة في اصدار مجلة لانفسهم . رفضوا منـذ البدايـة ان يعلنـوا انتماءهم ـ كجماعة ـ الى مدرسة او الى تيار فكري رغـم انهم كأفراد يعرفون انتماءاتهم ويحددونها بدقة وطلاقة كاملتين .

وفي بعض الاقاليم ـ مثل دمياط والمنصورة والاسكندرية ودمنهور والمنيا ـ كانت هناك جماعات اخرى اكثر افرادها مـن كتاب القصة ، ينظرون الى الكبار نظرة اكثر عداء ، والى منابر القاهرة نظـرة تجمع بين الاشتهاء والازدراء ، ولكنهم بحكم التماسك التقليدي لابناء الاقاليم ـ كانوا اكثر تحددا من الناحية الفكرية واكثر تقاربا من ناحية المستوى الفنـي .

وعن طريق بعض منابر القاهرة ، واساسا عـن طريق المجـلات البيروتية ، اثبت الشعراء الشبان وجودهم وكذلك النقاد الشبان الذين يقدمون مساهماتهم في مجال النقد التطبيقي .

كانت تلك هي الملامح العامة لظاهرة الجيـل الجديد ، قبل ان تتحول الى قضية فكرية وادبية اساسية في العام الاخير من العقد .

بدأت القضية بمقالات رجاء النقاش عن بعض الروائيين وكتـاب القصة الشبان في بداية العام .

واستمر الحوار بين النقد والابداع حينما ظهرت مجموعة قصصية لغالب هلسا ، ثم مجموعة اخرى لجمال الغيطاني ، ثم رواية لمحمد يوسف القعيد فرواية أخرى لعبد الحكيم قاسم وثالثة لصنع اللـه ابراهيم ورابعة لفتحي سلامة . وتوالت مجموعات القصص لمحمد حافظ رجب وعز الدين نجيب ومحمد البساطي وضيـاء الشرقاوي واحمـد هاشم الشريف . واصدرت « مجلة ٦٨ » عددا خاصا بالقصة القصيرة شارك فيه اكثر هؤلاء الى جانب بهاء طاهر ويحيى الطاهر عبد الله وغيرهم ، ثم اصدرت مجلة « الهلال » ومجلة « المجلة » عدديـن خاصين بالقصة ايضا ، ابرز ما فيهما مساهمات الكتاب الشبان . وفي بيروت ودمشق والقاهرة ظهرت دواوين لشعراء شبان : محمد عفيفي مطر ، أمل دنقل ، بدر توفيق ، مهران السيد ، كمال عمار ، محمد ابراهيم أبـو سنة ، حسن توفيق . وفي القاهرة نشرت وعرضت مسرحيات لمحمود ديـاب وعلي سالم ومصطفى بهجت مصطفى ورؤوف مسعد . وفي شعر العامية ظهرت دواوين عبد الرحمن الابنودي وسيد حجاب ومجـدي نجيب ومحسن الخياط . بل ظهر من الشبان عدد مـن المخرجين المسرحيين الموهوبين ، مثل كرم مطاوع واحمد عبدالحليم . وفـي السينمـا خرجت من « جمعية الفيلم » جماعة « الغاضبين » التـي احتضنتهـا مجلـة « الكواكب » ، واصبح من الواضح ان النقد السينمائي فـي مجلـة « السينما » المتخصصة ، وفي الصحافة اليومية والاسبوعية صار قادرا على دفع السينما المصرية الى مستوى اكثر جدية من الناحيتين الفكرية والفنية . واستمر النقاد الشبان في التعرض لاعمال زملائهم ولاعمـال الكبار في وقت واحد : كان هناك صبري حافظ وعبد الرحمن ابو عوف وصافيناز كاظم وفاروق عبد القادر وامير اسكندر وبهاء طاهر وابراهيم فتحي وغالب هلسا وخليل كلفت وغيرهم . ومـن البديهي ان تستمر كتابات هؤلاء النقاد في مستوى النقد التطبيقي ، وغالبا تقـوم علـى أساس التذوق الشخصي دون تطبيق مناهج نقديـة واضحة ، ومـن البديهي ان يظلوا حتى الآن بعيدين عن « التنظير النقدي » وصياغـة المقاييس والرؤى العامة قبل ان تتبلور الحركة الابداعية المواكبة لهـم من خلال فيضان كمي كبير من الاعمال ، وفـي صورة اتجاهات عامة مشتركة يستطيعون هم اكتشافها وتحديد ملامحها الفكرية والفنية فـي حدود نظرية .

وفي اواخر العام تفجرت القضية من جديد ـ فـي مجلة « روز اليوسف » ثم في مجلة « الطليعة » . وكان من البديهي أن تكون هناك مواقف متفاوتة الرفض والقبول والتشدد والتسامح من جانب الكبـار ومن جانب الشبان في آن معا . وطولب الشبان بأن يكونـوا مهذبين ، وقيل لهم انهم لا يساوون شيئا ، وطولبوا بأن يكون لهم « بيان » يعلنون فيه ملامحهم وانتماءاتهم الفكرية والفنية ، وقيل عنهـم انهم متمردون ولكن بدافع الحب ، وقيل ما معناه انهـم ظاهرة اجتماعية خطيـرة وظاهرة ادبية لا تنبيء عن شيء جاد ، وقيل العكس ايضا ، وقيل انهم ضائعون ...

ولكن من المؤكد ان الحكم الصحيح لهم او عليهم لـن يكون ممكنا قبل ان يقدموا الكثير من الانتاج الجيد ، وقبل ان يخوضوا الكثير مـن الصراعات الحرة على مستوى فكري كبير ، حتى يمكن ان تتحول «الملامح المشتركة » فيما بينهم الى مواقف مشتركة واتجاهات مشتركة . انهم يملكون الآن شيئا من الملامح المشتركة التي يمكننا الاشارة اليها :

اولا ـ الموقف الاجتماعي النقدي الذي لا يقبل الاستسلام لتيـار

الواقع ، ويعارضه من زوايا متعددة : مأساوية او متسائلة او عدمية او عبثية او ساخرة ، ولكنها جميعا زوايا تنم عن قدرة حقيقية على تحمل هموم ذلك الواقع وتحمل مسؤولية رفضه او التمرد عليها ، كما انهـا جميعا زوايا « نقدية » فقط ، لا تصل الـى مستوى التبشير بأساس لعالم جديد .

ثانيا ـ رؤيـة الانهيار الشامل ، بعد ان فقد حلم الفردوس الارضي عند الجيل السابق بريقه في عالم الحقيقة ، ولانهم نشأوا في مرحلـة تحطيم القديم ، وتسلل بقاياه الى الجديد ، الذي لم يكد بناؤه يتجاوز البداية ، وبعد ان فقدت قوانين التطور الاجتماعي حتميتها «النظرية» في عيونهم ، لانهم ورثوا من اسلافهم عادة اقامة العوالم المكتملة والانتماء اليها ، وان كانوا يكتسبون من ضغوط عصرهم عادة الخوض في تناقضات الواقع لاستخلاص يقينهم من العمل بـدلا من التأمل ، ومـن المناقشة الايجابية بدلا من التأمل السلبي .

ثالثا ـ من هنا تكتمل رؤية الانهيار الشامل برؤية ضرورة اعـادة البناء ، وضرورة الكشف عن امكانية اعادته . قـد يعوزهم الدليـل النظري ، وقد يعوزهم الايمان بجدوى المحاولة . ولكن ليس ثمة من مفر ولا بديل . فان حلم الانعتاق من عبودية الفقر والجهل والتخلف ، ومن مذلة الانتماء الى ثقافة لقيطة او منقطعة الجذور .. هذا الحلم يدفـع المحاولة ويزودها بالكثير من الطاقة والجهد .

رابعا ـ هذا الحلم الذي قد يكون اجابة الجيل الجديد على اخفاق جيل العقدين السابقين في حل ازمة الانتماء القومي وازمـة التعارض بين الالتزام الايديولوجي والالتزام الوطني هو الذي يشكل بذرة رؤيـة العودة الى الاصول واعادة اكتشاف القيم الانسانية والتحررية فـي التراث والتاريخ مع الالتزام برؤية التقدم الانساني .

خامسا ـ ولكن الاخفاق القديم نفسه ، بالاضافة الـى المتاعب الضرورية التي يواجهها جيل متمرد فـي مجتمع تسوده قيم محافظة حتى الآن ، كل ذلك قد يكون هو الاصل فـي رؤيـة الاغتراب والادانة الموجهة الى عالم معقد يجمع بين التقـدم والتخلف ، بين العلمانيـة والخرافة ، بين التحرر وفرض القيود . وترتبط رؤية الاغتراب والادانة برؤية الانتماء الى حلم يجسد الخلاص . قـد يكون حلمـا بالانعتاق الفردي ، او بالعودة الى المنبع مع التملص مـن المسؤولية الاجتماعية بزعم تحمل مسؤولية الفن وحده او الانسانية في عمومها ، وقـد يكون حلما بمجرد الوعي بالواقع واستيعابه .

الجيل الجديد اذن يحمل ملامح تراجيدية واضحة . والتراجيديا هنا لا تحمل معنى اليأس من الخلاص ـ وانمـا تحمل معنى الاحساس بالمرارة وفداحة المخاطرة التي لا بد من القيام بها .

***

مـاذا تحمل السبعينات لثقافتنا اذن ؟.

من المخاطرة التنبؤ بأي ملامح عامة ـ حتى ـ في ظل ظروف غالب الظن انها ستشهد صراعا طويلا وقويا بين ثلاثة اجيال متعاصرة ، وبيـن عديد من الاتجاهات الفكرية والفنية لا تتمتع بكثير من وضوح الرؤية ولا تملك ان تدير صراعها في حرية كاملة .

ولكن من اليقين ان احدا لن يستطيع ان يؤكـد ازدهار ثقافتنـا ازدهارا حقيقيا ما لم نقض على الامية (أمية القراءة والكتابة والامية العقلية والفكرية في وقت واحد) ، وما لـم نقم دولة علمانية وعصرية : التعليم فيها والقانون والاعلام والسلطة لا تخضع الا للمقاييس العلمانية وحدها ، وما لم نقض على البطالة المقنعـة للمتعلمين وعلـى الخوف السري لكي نطلق مردة الانتاج والابداع والفكر المتحرر من عقالهم . اننا نحتاج الى معرفة اكثر ، ووعي اعمق ، وعدالة اشمـل ، وحرية أعم ، ومحرمات اقل ، وممنوعات اكثر ضآلة ، لكي نستطيع ان ننتج فكرا اكثر تحررا ، وفنا اكثر انسانية واصالة ، لكي نستطيع ان نعـي انسانيتنا وحقيقتنا القومية بحرية ، فنعبر عنها ، ونحققها بالتالي في صورة اكثر عظمة ونبلا واكثر جدارة بالحياة والتكريم .

القاهـرة — سامي خشبة